

التبصير
في
أحاديث النفس

من أملاء
سماحة الشيخ محمد المكي الناصري

الجزء الثاني



دار الغرب الإسلامي

الطبعة الأولى
حقوق الطبع محفوظة

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

دار الغرب الإسلامي

ص.ب. ١١٣/٥٧٨٧
بيروت - لبنان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التَّيْسِيَّةُ
فِي
أَحَادِيثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الربع الأول من الحزب الحادي عشر
في المصحف الكريم

لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوْءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ
 اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعَفُّوْا عَنْ
 سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ
 بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ
 وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا
 بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا
 لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ
 وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ؕ أُولَئِكَ سَوْفَ نُؤْتِيهِمْ ؕ
 أَجْرَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٥٢﴾ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ
 أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ
 مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ

ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَعَفَوْنَا عَنْ
ذَلِكَ وَءَاتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٥٢﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ
الطُّورَ عَمِيشْفِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا
لَهُمْ لَا تَعَدُّوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾
فِيمَا نَفَضِهِمْ مِيثْفَهُمْ وَكُفِّرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْإِنْبِيَاءَ
بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا
يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْنَانَا
عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ
اللَّهِ ۝ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ
اِخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ
وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا
حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ
الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فِظَلَمَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا
عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتِ احْتَلَتْ لَهُمْ وَبَصَدَهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾
وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ وَأَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَطْلِ
وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَكِنَّ الرَّاغِبِينَ فِي الْعِلْمِ

مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ
 وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
 وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٣﴾
 إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ
 وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ
 وَعِيسَى وَإِيُوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ
 زَبُورًا ﴿١١٤﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا
 لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١١٥﴾
 رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى
 اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١١٥﴾

الربع الأول من الحزب الحادي عشر في المصحف الكريم

عباد الله

في حديث هذا اليوم نشرع في تفسير الحزب الحادي عشر من المصحف الكريم، وابتدىء الربع الأول منه بقوله تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوِّءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلِمَ، وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً﴾ وينتهي نفس الربع بقوله تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾.

يتناول كتاب الله في هذا الربع بادىء ذي بدء موضوعاً أخلاقياً واجتماعياً خطيراً، ألا وهو الجهر بقالة السوء بين عامة الناس، ونشر المردول من الأقاويل بينهم، وترويج البذيء من الاشاعات المغرضة في أوساطهم، فكما يبغض الإسلام أولئك الأبالسة المفسدين الذين يتاجرون بالأعراض والعقول، ويشيعون الفاحشة بين أفراد المجتمع، والذين يضربون بسلوكهم أسوأ الأمثال لمن عداهم، فيصبحون قدوة في الفساد، كذلك يبغض الإسلام من يتعمدون الجهر بالسوء، ويقومون بترويج الاشاعات الكاذبة والتلفيقات المضللة، ويتحدثون عن الناس بما يلوث أعراضهم، ويضيع الثقة منهم وفيهم، إذ بذلك ينتشر سوء الظن بين الناس

جميعاً، وتضعف ثقة بعضهم ببعض، أو تزول بالمرّة، ويصبح المجتمع كله - بحكم العدوى والتقليد والبلبلّة - مجتمع سوء لا خير فيه، ولا ثقة بين أفرادها، بل ما منهم من أحد إلا وهو يتربص بأخيه الدوائر، لينقضّ عليه انقضاض الأسد على فريسته، دون شفقة ولا رحمة، ومن غير تقزز ولا مضمض، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى:

﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾.

غير أن الإسلام الذي يعطي للمظلوم الحق في دفع الظلم عنه، ويأذن له بالعمل على رفعه، لا يقف حجر عثرة في سبيل تشهير المظلوم بالظالم، لإقامة الحجة عليه، وتحذير الناس منه، حتى لا يكونوا من ضحاياه، وذلك ما ينبغي أن نفهم من قوله تعالى:

﴿ إِلَّا مَنْ ظَلِمَ ﴾ أي أن المظلوم لا يجرمه الإسلام من التمتع بحق التنفيس عن كربه، وبالتحدث عن مظلّمته، حديثاً قد يسيء إلى الظالم في سمعته ومكانته، ما دام ذلك في حدود الواقع، ودون مبالغة فيه ولا زيادة عليه.

وقوله تعالى في التعقيب على هذا السياق ﴿ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً ﴾ إشارة إلى أن الحق سبحانه وتعالى لا يخفى عليه من أقوال القائلين شيء، بل يسمع أقوالهم كيفما كانت، لا فرق بين من قال سوءاً أو قال خيراً، كما أنه سبحانه مطلع على نياتهم ومقاصدهم، يعلم منهم المظلوم من الظالم، والصادق من الكاذب، والمفسد من المصلح.

ثم أخذ كتاب الله ينبّه المؤمنين إلى ما ينبغي أن يشغلوا به ألسنتهم من قول الخير، بدلاً من قول السوء، ويحضهم على إبراز

خصال الخير وإشهار فضائله، والتنويه بمظاهرة، وعلى ضرب المثل للناس بالعفو عن سوء كلما بدرت بادرته من مسيء، ومضى كتاب الله في توكيد هذا المعنى وإغراء المؤمنين به، لافتاً نظرهم إلى أن من صفات الكمال التي اتصف بها الحق سبحانه وتعالى صفة «العفو» مع كامل القدرة، وإذن فمن أدب المؤمن، بل من الواجب عليه أن يتحلى في هذا المجال بخلق ربه، فيعفو عن أساء إليه، حتى ولو كان قادراً عليه، وهذا ما نستوحيه من قوله تعالى: ﴿إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ لُحْفًا أَوْ تَعَفُّوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا قَدِيرًا﴾ .

ومما تجب ملاحظته في هذه الآية أنها ابتدأت في الذكر ببدء الخير وإبرازه، فقالت ﴿إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا﴾ لأن في إبداء الخير وإظهاره وإشهاره بين الناس تشجيعاً عليه، ودفعاً إليه، وضرباً للمثل الصالح والقدوة الحسنة.

ولا يخفى على بصير أن تقليد الناس ومحاكاة بعضهم لبعض، وتشبه فريق منهم بفريق، ظاهرة اجتماعية ونفسية لا تتخلف بالنسبة للخير والشر، وللصلاح والفساد، وإشاعة الفاحشة وقالة السوء تدفع بالمجتمع إلى أن يصير مجتمعاً فاحشاً ومجتمع سوء، وإشاعة الخير قولاً وفعلاً تدفع بالمجتمع إلى أن يصير مجتمعاً خيراً، ومن هنا نادى الإسلام في غير ما آية وغير ما حديث بضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك حتى تضيق دائرة الشر، وتحاصر بؤرة الفساد، فلا يتسرب إلى البلاد والعباد.

وعلى ضوء هذا التفسير يتضح المقصود من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجِبُونَ أَنْ تَشِيَعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي

الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ، وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾.

وفي هذا الربع يعود كتاب الله إلى الحديث بمنتهى القوة وبالحجج البالغة عن وحدانية الله، ووحدة الوحي الإلهي، ووحدة الرسالة السماوية، ووحدة الرسل والأنبياء جميعاً، وكما أن الكون بسائر أصنافه وأشكاله وألوانه، وعلى اختلاف أنواعه، تتجلى فيه وحدة المكون وحكمته، من خلال نواميسه القائمة وسننه الثابتة، فعالم الإنسان الذي هو جزء لا يتجزأ من الكون لا يتخلف عن هذه الحقيقة الكبرى، وما الوحي وما الرسالة وما الرسل إلا فرع من شجرة الوحدة الكبرى، وحدة الواحد الأحد الذي له الخلق والأمر، الخلق لجميع العوالم، والأمر لعالم المكلفين من بني آدم وغيرهم من بقية العوالم ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾.

وقد حمل كتاب الله بمنتهى الشدة على من يدعون الإيمان ببعض الرسل وبعض الكتب، وهم يكفرون ببقية الرسل والكتب، واصفاً لهم بصفة الكفر المطلق، وبأنهم في الواقع يكفرون بجميع الرسالات والرسل ولا يؤمنون منها بشيء، إذ إن ظاهرة النبوة والرسالة، وظاهرة الوحي إلى الأنبياء والرسل، هي في الواقع ظاهرة واحدة متماثلة، ومتسلسلة في موكب الأنبياء والرسل، من فاتحهم إلى خاتمهم.

وقصر الإيمان على البعض منهم دون الآخر لا يقضي به منطق، ولا يبرره أي برهان، وإنما هو أثر من آثار التعصب البغيض، والتقليد الأعمى والهووى المتبع، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ

الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا، أُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرُونَ حَقًّا، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا، وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ نُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ، وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ، وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا، وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ، وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٠٥﴾.

والإسلام عندما يقرر وحدة الوحي، ووحدة الرسالة، ووحدة الرسل، إنما يؤكد بذلك وحدة الإنسان نفسه، ووحدة التوجيه الإلهي للناس جميعاً، لا فرق بين مختلف الأجناس والألوان والفئات، فالإنسانية في حقيقتها واحدة، ودين الله كما أوحاه إلى رسله وأنزله في كتبه واحد في مصدره، واحد في جوهره، واحد في أثره، والأثر الذي يهدف إليه هو هداية الإنسان عن طريق الوحي الإلهي، وامداد الإنسان عن طريق التوجيه الإلهي، حتى لا يبقى للإنسان على الله حجة، إذ كما أنعم عليه بنعمة الخلق والإيجاد، أنعم عليه بنعمة التوجيه والامداد، وذلك قوله تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾. وفي آية أخرى من كتاب الله بسورة طه ما يزيد هذا المعنى وضوحاً وبياناً، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ، أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ، وَلَوْ أَنَّا

أَهْلَكْنَهُمْ بِعَذَابٍ مِّنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتَّبِعَ
ءَايَاتِكَ مِنْ قَبْلٍ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَىٰ، قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبِّصُوا،
فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿

الربع الثاني من الحزب الحادي عشر
في المصحف الكريم

لَكِنَّ اللَّهَ يُشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ
يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ
طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ
عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ
بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ
لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾
يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى
اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ
وَكَلِمَتُهُ وَأَلْقِيهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ

وَرُسُلِهِمْ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ إِنَّمَا خَيْرًا لَكُمْ و
 إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا
 فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧٦﴾
 لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ
 الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ
 إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٧﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ
 أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ؕ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا
 وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ
 اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٨﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ
 مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿١٧٩﴾ فَأَمَّا
 الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي
 رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ﴿١٨٠﴾
 يَسْتَفْنُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ۚ إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ
 لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ إِخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا
 إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ ۚ فَإِنْ كَانَا إِثْنَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثُ مِمَّا
 تَرَكَ ۚ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ

الْأَنْشِيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ وَأَنْ تَصِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوفُوا بِالْعُقُودِ أَحَلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ
إِلَّا مَا يُبْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرِ مُحِلِّهِ الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١٧٦﴾
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعْبَرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ
وَلَا الْقَلْبِدَ وَلَا أَمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا
وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوا عَنْ
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا
عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٧٧﴾

الربع الثاني من الحزب الحادي عشر في المصحف الكريم

عباد الله

تتناول حصة هذا اليوم الربع الثاني من الحزب الحادي عشر في المصحف الكريم، وأول آية فيه قوله تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ، أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُتُ يَشْهَدُونَ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ وهي تقع في الثُّمْنِ الأخير من سورة النساء.

وآخر آية منه قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، وَاتَّقُوا اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وهي تقع في الثُّمْنِ الأول من سورة المائدة.

وبذلك نجمع في هذه الحصة المباركة بين اختتام سورة «افتتاح أخرى مستعنيين بالله، معتمدين عليه».

يبتدىء هذا الربع بالحديث عن الوحي الإلهي الذي أكرم الله به خاتم النبيين، وشهادة الله وملائكته بصدقه ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾.

ويتجه الحديث إثر ذلك إلى وصف الكافرين ووصف إعراضهم وظلمهم وضلالهم، وما ينتظرهم عند الله من الخلود في عذاب الجحيم ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾.

ثم يخاطب كتاب الله كافة الناس دون استثناء، فيدعوهم إلى الإيمان بالحق الذي جاءهم من ربهم، مبيناً لهم أن خيرهم فيه لا في غيره ﴿فَأَمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾ .

ومن هنا تنتقل الآيات الكريمة إلى التنديد بغلو أهل الكتاب، وما أضافوه إلى دين الله من تلقاء أنفسهم من العقائد الباطلة، وما خلعوه على أنبيائهم من صفات الألوهية ودعاوى الربوبية، التي هم بريئون منها كل البراءة ﴿يَأْهَلُ الْكِتَابَ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ - ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً، انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ، إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ، سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ .

ويعود كتاب الله إلى الحديث عن عذاب ﴿الَّذِينَ اسْتَكْفَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا، وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، وعن ثواب ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ .

ثم يتجه الخطاب الإلهي إلى الناس كافة، يدعوهم جميعاً إلى الإيمان بكتاب الله، والاعتصام بحبله، والالتفاف من حوله، مبيناً لهم أن القرآن الكريم هو آخر برهان من ربهم أنزله إليهم، حتى لا يبقى بعده للناس، أقل عذر أو أدنى التباس ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا، فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ .

والآن ونحن على أبواب الانتهاء من سورة النساء نرى من المناسب أن نلفت النظر إلى ما نقله المفسرون عن عبد الله بن

مسعود وعن عبد الله بن عباس من تنويه خاص ببعض الآيات الواردة في هذه السورة، وهي آيات قال عنها الأول «ما يسرني أن لي بها الدنيا وما فيها» وقال عنها الثاني: «هي خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت».

الآية الأولى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعِفْهَا وَيُوتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

الآية الثانية: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُهَوَّنُ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾.

الآية الثالثة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

الآية الرابعة: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾.

الآية الخامسة: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

الآية السادسة: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

الآية السابعة: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ، وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا﴾.

الآية الثامنة: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ، وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾.

والآن ونحن نشرع في سورة المائدة نرى من الواجب أن نفتح القول فيها بكلمة خاصة عن سبب تسميتها «سورة المائدة»،

وبكلمة عامة عن موضوعات هذه السورة الكريمة .

أما تسميتها بسورة المائدة فلعلها والله أعلم مبنية على ما نزل في هذه السورة من الآيات الكريمة المتعلقة بقصة المائدة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ، قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ. قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ، وَارزُقْنَا، وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ. قَالَ اللَّهُ إِنَّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ .

وأما موضوعاتها فهذه السورة تشتمل على موضوعات تشريعية وأخلاقية واعتقادية متنوعة، وفيها بالخصوص أحكام تمس العلاقات الدولية بين المسلمين وغيرهم، وأحكام تمس العلاقات الاجتماعية فيما بين المسلمين بعضهم مع بعض، مما هو قاصر على الأسرة أو ممتد إلى المجتمع، وقد نقل القاضي أبو بكر (ابن العربي) المعافري في كتابه (أحكام القرآن) عن أبي ميسرة أنه قال: «في المائدة ثمان عشرة فريضة» ثم عقب على كلامه قائلاً: «فأما قول أبي ميسرة إن فيها ثمان عشرة فريضة، فربما كان فيها ألف فريضة، وقد ذكرناها نحن في هذا المختصر للأحكام» .

وأول آية افتتحت بها هذه السورة مَبْدُوءَةٌ بِنْدَاءٍ هُوَ أَحَبُّ نِدَاءٍ

يوجهه الحق سبحانه وتعالى إلى عباده المؤمنين: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَأَمَنُوا﴾ قال عبد الله بن مسعود لرجل سأله أن يعهد إليه ويوصيه وصية خير: «إذا سمعت الله يقول (يا أيها الذين آمنوا) فأرعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه».

وبمجرد ما يصدر النداء الإلهي المحبب إلى المؤمنين ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَأَمَنُوا﴾ يصدر الأمر الإلهي إليهم بوجوب الوفاء بالعقود على اختلاف أنواعها، ما كان منها باسم الأفراد فيما بينهم، وما كان منها باسم الدولة الإسلامية التي تمثلهم، فيما بينها وبين الدول الأخرى من العقود والمواثيق، ويدخل في الوفاء بالعقد بطريق الأصالة الوفاء بالعقد الذي عقده الله بين المسلمين ورسولهم، على الاعتصام بكتابه الكريم، والتزام العمل بشريعته الفاضلة.

ومن الآيات التي يجب الوقوف عندها في هذا السياق قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾ يشير إلى ما قام به المشركون عدة مرات من الحيلولة بين المسلمين وبين الحج إلى بيت الله الحرام، أفراداً وجماعات، وخاصة ما قاموا به من التعرض لرسول الله ﷺ وهو في طريقه إلى الحج، فكان من ذلك «صلح الحُدَيْبِيَّة» الشهير، فالله تعالى يأمر رسوله والمؤمنين - عندما فتح في وجوههم مكة وجزيرة العرب من أدناها إلى أقصاها فتحاً مبيناً، وغلبهم على الشرك والوثنية - بأن لا يتقموا من قريش، ولا يقابلوا عدوانها بعدوان مثله، وأن يعفوا ويصفحوا عما سلف، فالإسلام دين العفو لا دين الانتقام.

ثم يأمر كتاب الله المسلمين السابقين من المهاجرين والأنصار،

والمسلمين اللاحقين بهم، الذين استسلموا لحكم الإسلام ودخلوا في دين الله أفواجاً، أن ينسوا الماضي، ويتأهبوا للمستقبل، ويعبثوا طاقاتهم جميعاً لخدمة الإسلام، والعمل في سبيل الله، على أساس من التعاون الصادق، بتوجيه من الله ورسوله، وذلك قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ، وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾.

وهكذا تم الفتح الإسلامي لمكة وجزيرة العرب، طبقاً لتقاليد الشرف والشهامة والحكمة، وبرزت الدولة الإسلامية وشعارها البر دون الاثم، والتقوى دون العدوان، والتعاون دون التناكر، وذلك هو دستور الإسلام الذي تركه أمانة في أعناق أولي الأمر المسلمين، يلتزمونه ويهتدون بهديه، كلما تم لهم الغلب، أو آتاهم الله فتحاً من عنده، فيكون شعارهم العفو دون الانتقام، وتجنيد الجميع في خدمة الصالح العام، عملاً بدستور الفتح في الإسلام.

الربع الثالث من الحزب الحادي عشر
في المصحف الكريم

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْيَتَةُ وَالذَّمُّ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ
بِهِ وَالْمُخَنَّقَةُ وَالْمَوْقُودَةُ وَالْمُتَرَدِّيَّةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ
السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا
بِالْأَزْلَمِ ذِكْرُكُمْ فَسُقُوا الْيَوْمَ بَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا
تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ
نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ
مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ
لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلَّبِينَ
تُعَاوَنُهُنَّ يَمَا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا
بِسْمِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾ الْيَوْمَ أُحِلَّ
لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَلٌ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ

حَلُّهُمَّ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ
 أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِذَا أَتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ
 مُحْصِنِينَ غَيْرِ مُسَفِّحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ
 بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ⑤
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا
 وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا
 بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ
 جُنُبًا فاطهروا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ
 مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا
 صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ
 مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ
 لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ، عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ
 تَشْكُرُونَ ⑥ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّتِي
 وَاتَّقْتُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ
 اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ⑦ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
 كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاانُ

قَوْمٍ عَلَىٰ إِلَّا تَعْدِلُوا أَعِدُّوا لَهُمْ أَسْفَٰرًا وَمَا تَعْدِلُ فِي أَعْيُنِنَا قَوْمٌ اتَّقُوا اللَّهَ
 إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾
 وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ
 أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا
 نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ
 أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ
 فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

الربع الثالث من الحزب الحادي عشر في المصحف الكريم

عباد الله

في حديث هذا اليوم نتناول الربع الثالث من الحزب الحادي عشر في المصحف الكريم، ويبتدىء بقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ الآية.

وينتهي بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

يستوعب هذا الربع من كتاب الله موضوع الحلال والحرام من المأكولات في الإسلام، كما يتحدث عن طعام أهل الكتاب بالنسبة للمسلمين، وطعام المسلمين بالنسبة لأهل الكتاب، ويشير إلى موضوع الزواج بالكتابيات، كما يشير إلى موضوع الطهارة المائية والطهارة الترايبية عند القيام للصلاة، ويعين الأعضاء المطلوب غسلها أو مسحها، ويجدد الحديث عن العدل بالنسبة للصديق والعدو، ويذكر امتنان الله على المسلمين بنعمه التي لا تحصى، وعلى رأسها نعمة تمكين الدين وإكماله، ورضى الله عن أهله.

ونظراً لضيق الوقت نعالج في هذا الحديث الموضوع الأول، تاركين بقية الموضوعات لمناسبة قادمة، ففي موضوع الحلال والحرام

من المأكولات حرم كتاب الله على المسلمين أكل الميتة، وهي ما مات من الحيوانات ميتة طبيعية، من غير ذكاة ولا اصطيد، وحرم الدم المسفوح الجاري، وقد كان أهل الجاهلية يأكلون منها، وحرم أكل الخنزير، ما كان منه انسياً أو وحشياً، وتحريم لحم الخنزير يستلزم تحريم شحمه، إذ ما من لحم إلا وفيه شحم، ومن جملة حكم الله في تحريم هذه الأشياء حمايته للمسلمين مما فيها من الميكروبات والجراثيم والمواد الضارة، التي لم يهتد الأطباء لمعرفة إلا في عهد متأخر جداً.

قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «اتفقت الأمة على أن لحم الخنزير حرام بجميع أجزائه، والفائدة في ذكر اللحم أن الخنزير حيوان يذبح للقصد إلى لحمه، وقد شغفت المتدعة بأن تقول: فما بال شحمه، بأي شيء حرم؟ وهم أعاجم، لا يعلمون أن من قال لحماً فقد قال شحماً، ومن قال شحماً فلم يقل لحماً، إذ كل شحم لحم، وليس كل لحم شحماً من جهة اختصاص اللفظ، وهو لحم من جهة حقيقة اللحمية».

كما حرم الله على المسلمين أكل الذبائح التي ذبحت لغير الله، وذكر عليها عند الذبح اسم غيره من الأصنام والأوثان وما شابهها ﴿وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ والتحريم هنا لعله اعتقادية، لها علاقة وثيقة بالشرك والوثنية.

ومن المحرمات من هذا النوع الذبائح التي كان المشركون يذبحونها وينضحون بدمائها الأحجار المنصوبة من حول الكعبة

﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصْبِ ﴾ - ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ . ومن بين المحرمات التي لها نفس حكم الميتة ما مات مخنوقاً بحبل أو غيره، إما عمداً وإما صدفة (الْمُنْخِنِقَةُ).

وما مات مضروباً بالحجر أو العصا أو الخشب أو غير ذلك، من كل شيء ثقيل غير محدد (الْمَوْقُودَةُ).

وما مات ساقطاً من جبل أو سطح أو هوى في بئر، أو تردى من مكان شاهق (الْمُتَرَدِّيَةُ)، ويلحق بها (الْمُتَنَدِّيَةُ) وهي الدابة التي انفلتت من وثاقها وَشَرَدَتْ، فوقعت مطاردتها لإرجاعها، ورميت بسيف أو رمح فماتت.

وما مات منطوحاً بقرون بهيمة أخرى (النَّطِيحَةُ).

وما وقع فريسة للوحوش المفترسة ﴿ مَا أَكَلَ السَّبْعُ ﴾ وكان أهل الجاهلية إذا أكل السبع شاة أكلوا بقيتها.

فهذه كلها محرمات ملحقة بالميتة، اللهم إلا إذا وقع تداركها بالذبح وهي تحرك يداً أو رجلاً ولا تزال فيها الروح ﴿ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾ .

قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «اختلف قول مالك في هذه الأشياء، فروي عنه أنه لا يوكل إلا ما كان بذكاة صحيحة. والذي في «الموطأ» عنه أنه إن كان ذبحها ونفسها يجري وهي تطرف فليأكلها. ثم عقب ابن العربي على ذلك قائلاً: «وهذا هو الصحيح من قوله الذي كتبه بيده، وقرأه على الناس من كل بلد، عُمَرُ، فهو أولى من الروايات الغابرة».

ومما ورد تحريمه في هذا السياق اللحوم التي يتم الوصول إليها وتقع قسمتها بين المقامرين عن طريق الاستقسام بالأزلام، وهي القِداح والقراطيس التي كان المشركون يستشيرونها بحضرة أصنامهم في الاقدام على الأمور أو الاحجام عنها، والتي كانوا يقامرون بها أحياناً أخرى في الميسر، فكل من خرج له قِدْح أو قرطاس نال من لحم الجزور بقدر ما خصص لذلك القدح أو القرطاس، فيمثلون ما يخرج لهم، ويعتقدون أن ذلك هداية من الصنم لمطلبهم ﴿ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ﴾ .

وهذه المحرمات جميعاً هي التي استوعبها قوله تعالى في هذا الربع: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ، وَالْدَّمُ، وَحَلْمُ الْخَنزِيرِ، وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ، وَالْمُنْخَنِقَةُ، وَالْمَوْقُوذَةُ، وَالْمُتَرَدِّيَةُ، وَالنَّطِيحَةُ، وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ - إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ - وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ، وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ﴾ . وسبقت في سورة البقرة آية أخرى لها علاقة بهذا الموضوع، وهي قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ، وَالْدَّمَّ، وَحَلْمَ الْخَنزِيرِ، وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ﴾ .

غير أن الحق سبحانه وتعالى - تخفيفاً عن عباده، وحفظاً لهم من خطر الهلاك في حالة الاضطرار - أباح لهم عند عدم وجود الحلال من المأكولات أن يأكلوا ما يدفعون به ألم الجوع وينقذهم من الخطر، ولو كان محرماً، في انتظار وجود ما هو حلال، بشرط أن لا يتعمدوا أكل ذلك الحرام عن شهوة مقصودة، وإنما يتناولونه عن ضرورة ملحة لا خلاص لهم منها، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرٍ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ على

غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾ .

وفي نفس هذا المعنى سبقت آية أخرى في سورة البقرة، وهي قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

ومعنى قوله تعالى: ﴿ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ﴾ عند المحققين من المفسرين: غير طالب شراً ولا متجاوز حداً، فيدخل تحت لفظ «الباغى» كل خارج على الامام وقاطع للطريق ومن في معناهما، ويدخل تحت لفظ «العادي» كل من تجاوز حد الضرورة إلى حد الاختيار، ولأجل ذلك لا يستبيح العاصي بسفره رخص السفر، لأن الله تعالى إنما أباح ذلك عوناً، والعاصي لا تحمل اعانته، فإن أراد الانتفاع بالرخصة فليتب أولاً، ثم ليترخص ثانياً.

ثم مضت الآيات الكريمة تشرح تساؤل المسلمين من جديد عن هذا الموضوع، وكأنهم أخذوا يتخرجون من أكل بعض الأشياء الأخرى التي اعتادوا أكلها قبل الإسلام، فهم يستفسرون الرسول الأعظم عنها لمعرفة حكم الله فيها، وذلك قوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ، قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ، فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَنَّ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَاتَّقُوا اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ .

ومعنى هذا الجواب أن الله تعالى لم يحرم على المؤمنين شيئاً من «الطيبات»، وإنما حرم عليهم «الخبائث» وحدها: الخبائث بطبعها،

والخبثا بالقصده منها، وأضاف إلى ما هو حلال نوعاً آخر هو أكل ما وقع صيده بواسطة الكلاب المعلمة، «والكلب المعلم» هو الذي إذا أشلّيته انشلى، وإذا زجرته انزجر، وإذن فصيد الكلب المعلم هو الحلال، لا نفس الكلب المعلم، وإنما يكون صيداً حلالاً إذا أخذ الكلب الصيد وأمسكه حتى يجيء إليه صاحبه، وكان لصائد قد ذكر اسم الله عند إرساله للصيد، طبقاً لقوله تعالى: ﴿وَأذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ويلحق بالكلب المعلم الفهود وجوارح الطير، فقد روى أشهب وغيره عن الإمام مالك أن الباز والصقر والعقاب وما أشبه ذلك من الطير إذا كان معلماً يفقه ما يفقه الكلب فإنه يجوز صيده، وبه قال عامة العلماء.

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن طعام أهل الكتاب، مبيناً أن ذبائح الكتابيين من اليهود والنصارى وأطعمتهم حلال للمسلمين، بخلاف المجوس فلا تؤكل ذبائحهم ولا أطعمتهم، وذلك قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾.

قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «فإن قيل: فما أكلوه على غير وجه الذكاة كالخنق وحطم الرأس. فالجواب: إن هذه ميتة، وهي حرام بالنص، وإن أكلوها فلا نأكلها نحن، كالخنزير فإنه حلال لهم، ومن طعامهم، وهو حرام علينا، فهذه أمثلة، والله أعلم».

ثم عاد فقال: «ولقد سئلت عن النصراني يقتل عنق الدجاجة ثم يطبخها، هل يؤكل معه، أو تؤخذ طعاماً منه؟ فقلت: تؤكل

لأنها طعامه وطعام أحباره ورهبانه، وإن لم تكن هذه ذكاة عندنا، ولكن الله تعالى أباح طعامهم مطلقاً.

وذكر ابن كثير في تفسيره أن أصحاب مالك يجرمون على المسلمين أكل ما يعتقد اليهود تحريمه من ذبائحهم، إذ ليس من طعامهم، فلا يندرج تحت قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾.

وفصل ابن رشد في كتابه (بداية المجتهد) القول في هذا الموضوع فقال: «والحق أن ما حرم عليهم أو حرموه على أنفسهم - يقصد أهل الكتاب - هو في وقت شريعة الإسلام أمر باطل، إذ كانت ناسخة لجميع الشرائع، فيجب أن لا يراعى اعتقادهم في ذلك، ولا يشترط أيضاً أن يكون اعتقادهم في تحليل الذبائح اعتقاد المسلمين، ولا اعتقاد شريعتهم، لأنه لو اشترط ذلك لما جاز أكل ذبائحهم بوجه من الوجوه، لكون اعتقاد شريعتهم في ذلك منسوخاً، واعتقاد شريعتنا لا يصح منهم.

وإنما هذا حكم خصهم الله تعالى به، فذبائحهم - والله أعلم - جائزة لنا على الاطلاق، وإلا ارتفع حكم آية التحليل جملة، فتأمل هذا فإنه بين، والله أعلم».

أما قوله تعالى ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ فمعناه أن الله تعالى أباح للمسلمين أن يطعموا من ذبائحهم أهل الكتاب، أي ولكم أن تطعموهم من ذبائحكم كما أكلتم من ذبائحهم. قال ابن كثير: «وهذا من باب المكافأة والمقابلة والمجازاة. فأما الحديث الذي فيه

(لا تصحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي) فمحمول على
الندب والاستحباب، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ فَسْقٌ﴾ بعد قوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى
النُّصَبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ﴾ وارد على غرار قوله تعالى في آية
أخرى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾
فالواجب على المسلم تفادي ذلك بكل الوسائل، حتى لا يندرج في
عداد الفاسقين.

الربع الأخير من الحزب الحادي عشر
في المصحف الكريم

وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي
إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي
مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَءَامَنْتُمْ
بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا
لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ
فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٧﴾ فِيمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ
لَعْنَتُهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ
عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ
تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ
فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٨﴾
وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّوْنَا أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ

فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ
الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ
يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَا أَهْلَ
الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا
مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ
قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾
يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ
وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ
وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَقَدْ
كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ
مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ
يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا
يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾
وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاؤُ اللَّهِ وَأَحِبَّوهُ قُلْ
فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ

يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ
رَسُولُنَا يَبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فِتْرَةٍ مِنَ الرَّسُولِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا
مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَاللَّهُ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِذْكُرُوا
نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۖ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ رُءُوسًا وَجَعَلَ لَكُم مَّلُوكًا
وَأَتَيْكُمْ مَالَهُمْ يَوْمَ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَا قَوْمِ إِذْ خَلَوُا
بِالْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ
فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا فِيهَا قَوْمٌ جَبَّارِينَ
وَإِنَّا لَنَنذِرُكَ لِتَدْخُلَها حَتَّىٰ تَخْرُجُوا مِنْهَا ۖ وَإِن تَخْرُجُوا مِنْهَا
فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾

الربع الأخير من الحزب الحادي عشر في المصحف الكريم

عباد الله

نعالج في حصة هذا اليوم الربع الأخير من الحزب الحادي عشر في المصحف الكريم، وأول آية منه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا، وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ وَاخْرَ آيَةٍ فِيهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ، وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا، فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾.

تعرض الآيات الكريمة في هذا الربع الميثاق الذي أخذه الله على بني إسرائيل، وما تجرأوا عليه من نقض لذلك الميثاق، وما نالهم من عقاب وعذاب، نتيجة نقضه وخيانتته ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا، وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ - ﴿فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ كما تعرض الآيات الكريمة الميثاق الذي أخذه الله على النصارى، ثم نقضهم لميثاقه بعد ذلك، وما نالهم من عقاب وعذاب، نتيجة نقضهم لميثاقه، وخيانتهم لعهدده ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ، فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

ويوجه كتاب الله خطابه إلى أهل الكتاب من النصارى واليهود، مبيناً لهم أن الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام جاء ليظهر الكثير مما كانوا يخفونه في كتبهم، وليبرز حقيقة الوحي الإلهي لهم خاصة وللناس عامة، وليخرجهم من الظلمات إلى النور ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ، قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾.

ثم يواجه كتاب الله العقيدة الباطلة التي يعتقدها النصارى في المسيح ابن مريم، مؤكداً بطلانها وفسادها، مسجلاً براءة عيسى ابن مريم وأمه منها، ومذكراً بعبوديتهما لله، وخضوعهما لمشيئته، ونزولهما عند إراداته ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ، قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَفِي الْأَرْضِ جَمِيعًا، وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾.

ويتناول كتاب الله بالأخص ما يعني به اليهود والنصارى أنفسهم، وما يعتقدونه، لمن هو منهم وعلى شاكلتهم، من المنزلة الرفيعة عند الله، والمكانة الخاصة لديه دون بقية الناس، ثم يكرُّ الخطاب الإلهي على دعواهم بالنقض والإبطال، مبيناً لهم أنهم ﴿بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾ لا أقل ولا أكثر، فهم لا يفضلون غيرهم بأي فضل ذاتي، مهما ادعوا لأنفسهم من الدعاوى، ومهما تمنوا على الله من الأماني ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ، قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ، بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ، يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾.

ويتجه الخطاب الإلهي مرة أخرى إلى أهل الكتاب مباشرة، لافتاً نظرهم إلى الرسول الأعظم الذي أرسله الله ليبين لهم الحق، على حين فترة من الرسل، وليقيم عليهم الحجة حتى لا يقولوا: «ما جاءنا من بشير ولا نذير» ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فِتْرَةٍ مِّنَ الرَّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ثم يحكي كتاب الله للناس أجمعين قصة موسى مع قومه، وما وجهه إليهم من ذكرى وموعظة عسى أن يذكرها نعمة الله فيقابلوها بالشكر والطاعة، فقد جعل الله فيهم من الأنبياء والملوك ما لم يجعله في غيرهم من معاصريهم، وآتاهم من نعمه ما لم يؤت بقية الناس في عهدهم، لكنهم كفروا بنعمه، ولم يحفلوا بالميثاق الذي واثقهم عليه، ولم يجاهدوا في سبيله.

وذلك هو السر في جنبهم وتراجعهم أمام الأرض المقدسة وهم على أبوابها، وفزعهم من القوم الذين استولوا عليها فزعاً جعلهم يصرخون في وجه نبيهم موسى، ويعلنون براءتهم منه ومن ربه كما حكى الله عنهم في كتابه المبين: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ ادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا، وَأَتَيْنَكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ، يَنْقُومِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمَقْدَسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ، وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ، قَالُوا يَمْوَسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ، وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يُخْرِجُوا مِنهَا، فَإِن يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ ﴿قَالُوا يَمْوَسَىٰ إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا، فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَتَنِيلاً

إِنَّا هَهُنَا قَعِدُونَ ﴿١﴾ - ﴿٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَأَ أُمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي، فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٣﴾.

وفي (كتاب التفسير) من صحيح البخاري عن طارق عن عبد الله قال: «قال المقداد يوم بدر: يا رسول الله، إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى (فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون) ولكن امض ونحن معك. فكانه سرى عن رسول الله ﷺ» مما يدل أقوى دلالة على الأثر الحميد والعميق الذي كانت تتركه في نفوس المسلمين قصص الأنبياء مع أقوامهم، وذلك هو الغرض الأول من ذكرها في القرآن الكريم.

ومن الفوائد في هذا الربع الاشارة إلى «النقباء» الذين هم بمنزلة النواب والمندوبين عن غيرهم، يتحدثون باسمهم في مختلف المناسبات، وينوبون عنهم في النظر إلى مختلف المشاكل ﴿١﴾ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴿٢﴾ فقد وجه موسى عليه السلام النقباء الاثني عشر إلى الأرض المقدسة، ليختبروا حال من بها، ويعلموه بما اطلعوا عليه فيها، حتى ينظروا معه في الغزو إليها.

وهكذا لما بايع رسول الله ﷺ الأنصار ليلة العقبة، وعددهم في تلك الليلة سبعون رجلاً، كان فيهم اثنا عشر نقيباً بعدد نقباء موسى، ثلاثة من الأوس وتسعة من الخزرج، وهؤلاء هم الذين تولوا المعاقدة والمبايعة عن قومهم للنبي ﷺ على السمع والطاعة، وقد جعلهم النبي ﷺ نقباء على من كان معهم، وعلى من يأتي بعدهم.

قال (ابن العربي): «قال علماؤنا: التسعة من الخزرج هم: أبو أمامة أسعد بن زرارة، وسعد بن الربيع، وعبد الله بن رواحة، والبراء بن معرور، وعبد الله بن عمرو، وعبادة بن الصامت، وسعد بن عبادة، والمنذر بن عمر، وعمرو بن الجموح (وذكر ابن كثير بدلاً من هذا الاسم اسم «رافع بن مالك بن العجلان») والثلاثة من الأوس هم: أسيد بن الخضير، وسعد بن خيثمة، ورفاعة بن عبد المنذر. ومن الناس من يعد فيهم أبا الهيثم بن التيهان، وقد كان رسول الله بنفسه «نقيب الأنصار» بالنسبة لنقبائهم ولمن تحتهم جميعاً.

وكلمة «نقيب» تطلق في اللغة على الأمين والكفيل، وإنما قيل له «نقيب» لأنه يعرف دخيلة أمر القوم ومناقبهم، والمناقب تطلق على الخلقة الجميلة وعلى الأخلاق الحسنة.

وكما عرف الإسلام «النقباء» فقد عرف «العرفاء»، جمع عريف، وهو الذي يعرف ما عند الشخص الذي كلف به، ليعرف به من جعله عريفاً، فقد روي أن وفد هَوَازِن لما جاؤوا تائين إلى النبي ﷺ كَلَّمَ رسول الله الناس، وسألهم أن يتركوا لهم نصيبهم من السبي، فقال الناس: «قد طيننا ذلك يا رسول الله - أي وافقنا عليه - لكن رسول الله ﷺ قال لهم: «إنا لا ندري من أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم». فرجع الناس فكلّمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيبوا وأذنوا، وبني قراره ﷺ على ما بلغه «العرفاء» إليه، نيابة عن من يمثلونهم من الناس.

وهذه السابقة التاريخية تصح أن تكون سنداً لكل نظام تمثيلي يراد إنشاؤه في العالم الإسلامي، تحقيقاً للشورى العامة التي أمر بها الإسلام، وطبقها الرسول عليه السلام.

الربع الأول من الحزب الثاني عشر في المصحف الكريم

قَالَ رَجُلَيْنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ
 عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ
 غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾
 قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ
 أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَالَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ
 إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ
 الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً
 يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾
 وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَى آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ
 أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُنْقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَا أُقْبِلُكَ قَالَ إِنَّمَا يُنْقَبَلُ
 اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَنْ بَسَطْتُ إِلَى يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا
 بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾

إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ
 النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ، وَنَفْسُهُ وَ
 قَتَلَ أَخِيهِ فَتَتَلَّهُ، فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴿٨٠﴾ فَبَعَثَ
 اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ، كَيْفَ يُورِيهِ
 سُوءَ أَخِيهِ قَالَ يَوَيْلَ لِيَ آءِ عَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ
 هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِي سُوءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ التَّائِبِينَ ﴿٨١﴾
 مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ
 مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا
 قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا
 النَّاسَ جَمِيعًا ﴿٨٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَ تَهُمُ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ
 ثُمَّ إِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٨٣﴾
 إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيَسْعَوْنَ
 فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ
 أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ
 ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ
 عَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ

فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
 اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي
 سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَآئِنَ
 لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ
 مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَهُمْ عَذَابُ الْيَمِّ ﴿٣٦﴾
 يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوكَ مِنَ الْبَارِ وَمَا هُمْ بِمُخْرِجِينَ مِنْهَا وَهُمْ
 عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا
 جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾
 فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ
 غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
 وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ
 شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾

الربع الأول من الحزب الثاني عشر في المصحف الكريم

عباد الله

حديث هذا اليوم يتناول الربع الأول من الحزب الثاني عشر في المصحف الكريم، ويبتدىء هذا الربع بقوله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ، فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ، وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. وينتهي بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

في هذا الربع من كتاب الله تتحدث الآيات الكريمة بالأخص عن ثلاثة أمور أساسية لا يقوم مجتمع سليم آمن ومطمئن بدون حفظ لها، وذنب عنها، وصيانتها من كل اعتداء، ألا وهي أمن الأرواح وأمن الأموال وأمن الطرق، كما تتحدث عن موقف بني إسرائيل من الأرض المقدسة وتحريمها عليهم، جزاء خذلانهم لنبيهم موسى عليه السلام، وعن نفيهم في التيه وابتلائهم فيه مدة أربعين سنة ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ، أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيَهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾.

وتتناول آيات هذا الربع بالذكر موضوع التقوى والوسيلة

وَالْجِهَادِ ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ
وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ كما تناول محاولة الكافرين
اليائسة يوم القيامة، للافتداء من عذاب الله والخروج من النار دون
جدوى ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا، وَهُمْ
عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

أما موضوع الأمن على الأرواح فقد تناوله القرآن الكريم
عندما عرض على المؤمنين قصة ولدي آدم، وبين أنها ذات يوم
قدَّما إلى الله قرباناً بقصد التقرب إليه، فتقبل الله من أحدهما ولم
يتقبل من الآخر، وكانت الصدقة المقبولة هي صدقة ولد آدم التقي،
دون أخيه غير المتقي، فثارت فورة الحسد والحقد في نفس الأخ
الذي لم يقبل قربانه، وأحس أنه قد افتضح أمام الناس، إذ ظهر
من أمره ما بطن، وألقى الشيطان في روعه أنه لا حياة له ما دام
أخوه المتقي والمقبول القربان عند الله يمشي على الأرض، ففكر في
قتل أخيه والتخلص منه لينفرد وحده بالعيش، وعندما هدد أخاه
بالقتل أجابه أخوه بأن قبول القربان يتوقف على تقوى الله، فما عليه
إذا أراد قبول قربانه إلا أن يتقي بدوره، لكن أخاه أصر على قتله
مهما كلفه الأمر، فما كان من الأخ المتقي إلا أن ذكَّر أخاه الحسود
الحقود بأنه يخاف الله، وأنه لن يقاتله ولن يقتله ولو دفاعاً عن
نفسه، وأنه يفضل أن يقع اثم قتله على أخيه، بدلاً من أن يقع هو
في الاثم مثله، وأخيراً تغلبت نزعة الشر في أخيه على نزعة الخير التي
فيه، ففضى نجهه قتيلاً على يد أخيه، وتحمل أخوه وزر قتله ووزر
كل قتل وقع بين الناس من بعده، كما قال ﷺ «لا تقتل نفس ظلماً

إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه كان أول من سن القتل» وتشير قصة ابني آدم في نفس السياق إلى أن الأخ الحسود القاتل قد ارتكب بعد قتله لأخيه، ولم يعرف ماذا يفعل به، إلى أن رأى غراباً يوارى تحت التراب غراباً آخر قد مات، فأقبل على أخيه يواريه في التراب، وذلك قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ، قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ، قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ، لَئِن مَّ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدَيْ إِلَيْكَ لِأَتُقْتَلَ، إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ، فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ، فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ، قَالَ يَوَيْلَ لِي أُعْجِزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِي سَوْءَةَ أَخِي، فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾.

فهذه القصة التي حكاها القرآن الكريم تصف لنا نموذجين من البشر تمكنت من أحدهما روح الاعتداء، كما تمكنت روح الطيبة من الآخر، وهما وجهاً لوجه، دون رادع يردع الأول عن الثاني:

النموذج الأول: نموذج الإنسان النزاع إلى الشر، الميال إلى العدوان، المصر على الأذى، المتعدي للحدود.

والنموذج الثاني: نموذج الإنسان النزاع إلى الخير، الميال إلى الإنصاف، الحريص على الإحسان، المتمسك بالتقوى.

وتبين لنا نفس القصة أنه عندما واجه كل واحد منهما الآخر

بمفردهما ولم يتدخل بينهما عنصر ثالث، ليردع الإنسان الشرير، ويجول بينه وبين الاعتداء على الإنسان الخير، كان عنصر الخير هو الضحية والفريسة لعنصر الشر، ولم تنفع تقوى المتقي أمام عدوان المعتدي.

ومن هنا اقتضت حكمة الله تشريع الحدود الرادعة عن ارتكاب الجرائم، وإقامة السلطة التي تقوم بتنفيذها، وتتولى مطاردة المجرمين، وحماية الأرواح والأموال والطرق، من اعتداء المعتدين، حتى لا يعكروا صفو الحياة على بقية الناس الأمنين.

وهذا هو السر في قوله تعالى عقب الانتهاء من قصة ابني آدم مباشرة: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ، كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا، وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾.

وذكرُ بني إسرائيل في هذه الآية بالخصوص إنما هو لمناسبة السياق الذي وردت فيه، فقد كان الحديث قبل قصة ابني آدم يدور حول قصة موسى وقومه بخصوص الأرض المقدسة والتيه الطويل الذي عوقبوا به، وإلا فكما كتب الله القصاص على بني إسرائيل كتبه على من قبلهم وعلى من بعدهم، وإن كان بنو إسرائيل لم يتراجعوا بذلك كله عن سفك الدماء ﴿ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ إشارة إلى أن الحياة التي وهبها الله للإنسان إلى أجل مسمى في هذه الدنيا هي حق

مقدس منحه الله لعباده، فلا يسوغ لغيره الوقوف في وجه هذا الحق المطلق، وإذن فمن اعتدى على حياة فرد يعتبر معتدياً - من جهة المبدأ - على حياة كل الأفراد، والذي استباح لنفسه العدوان على حياة فرد بعينه أصبح في حل أمام نفسه من كل القيود التي تحول دون اعتدائه على الباقين، إذ لا فرق بين حياة عمرو وحياة زيد بالنسبة لطبيعة الحياة فيهما، ولا بالنسبة لواهب الحياة لهما.

ولهذه الاعتبارات يكون الذي حال دون الاعتداء على حياة فرد من الأفراد، أو اقتص من المعتدي عليها - ردعاً له وحماية للباقيين - كأنما أحيا أولئك الأفراد جميعاً ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ .

وأما موضوع الأمن في الطرق الذي أشار إليه بالاجمال قوله تعالى: ﴿ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ فقد تناولته بالتفصيل آيتان من هذا الربع، وهما قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ، ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ، إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَنْ تَقْدَرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وكما نلاحظ جميعاً فقد اعتبر الحق سبحانه وتعالى قطاع الطرق المسلحين والعاملين على الاخلال بالأمن العام، والساعين في تعويق الناس عن التنقل بأنفسهم وبضائعهم آمنين مطمئنين بين مختلف المدن والقرى والبوادي والحواضر، «محاربين» لله ولرسوله، ومن ثم سميت جريمتهم بجريمة «الحرابة» إشعاراً لكل من يهمة الأمر، بأن

صيانة أمن الناس فريضة عامة من فرائض الدين، والاخلال بها عدوان على حق الله المبين، لا يسوغ القيام به لأي أحد من المسلمين، ولذلك وضع الله لهذه الجريمة عقوبات مغلظة، أنزلها وحددها في كتابه من فوق سبع سماوات، تتراوح بين القتل والصلب والنفي وقطع الأطراف من خلاف، وإنما حددها الله تعالى في كتابه الحكيم حتى لا يتهاون في شأنها المتهاونون، ولا يعترض على تنفيذها المتحدلقون، ووَكَّلَ الحَقُّ سبحانه وتعالى أمر اختيار العقوبة المناسبة، من بين تلك العقوبات، لظروف الجريمة وملابساتها، إلى اجتهاد امراء المؤمنين وولاية المسلمين.

وأما موضوع الأمن على الأموال فقد تناولته آيتان من هذا الربع أيضاً، وهما قوله تعالى: ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ ﴾ إشارة إلى أن السارق هنا ظالم للمجتمع وغير مظلوم منه، فقد اعتدى بالسرقة على مال غيره لمجرد الرغبة في الاجرام والقيام بظلم الغير، حيث لا ضرورة من فقر ولا من جوع تدفعه إلى ذلك، وإنما دفعه إلى السرقة استهانتته بحرمة أموال الناس، وحرصه على الاستئثار بها لنفسه دونهم، رغبة في التكاثر والغنى من أيسر طريق، وفي الآية أيضاً إيماء إلى وجوب كفاية حاجة المحتاجين، وتمكينهم من ضروريات الحياة، حتى لا يقعوا في شرك الجريمة، فقد (كاد الفقر أن يكون كفراً) كما جاء في الأثر.

الربع الثاني من الحزب الثاني عشر
في المصحف الكريم

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا مَحْزَنَ لَكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ
فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنِ
قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا وَاسْتَمَعُونَ لِلْكَذِبِ
سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ - آخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ بِمَحْرَفُونَ الْكَلِمَةَ
مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ
وَإِنْ لَمْ تَأْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ
فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ أَلَيْسَ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ
لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي
الدُّنْيَا حِزْبٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾
سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ
فَأحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ

فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ
 إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ
 التَّوْرِيَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا
 أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرِيَةَ فِيهَا هُدًى
 وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْمَوا لِلَّذِينَ هَادُوا
 وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا
 عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي وَلَا
 تَشْتَرُوا بِعَائِلَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا
 أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا
 عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ
 بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ
 قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَنْ
 لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾
 وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آبَائِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ
 يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرِيَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ
 وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرِيَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً

لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَيُحْكِمَ أَمْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ
 وَمَنْ لَمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾
 وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ
 الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا
 تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ هُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ
 شِرْعَةً وَمِنْهَا جَا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ
 لِيَبْلُوكُمْ فِي مَاءِ آيَاتِكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ
 مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾

الربع الثاني من الحزب الثاني عشر في المصحف الكريم

عباد الله

نتناول في حصة هذا اليوم الربع الثاني من الحزب الثاني عشر في المصحف الكريم، وأول آية منه قوله تعالى: ﴿يَأْيُهَا الرَّسُولُ لَا يُجْزِنَكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ وآخر آية فيه قوله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

في هذا الربع يتحدث كتاب الله عن الوقع الأليم الذي يحدثه في نفس الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام رجوع فريق من الناس إلى الكفر بعد الإيمان ﴿يَأْيُهَا الرَّسُولُ لَا يُجْزِنَكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ - ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ، لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ويتحدث كتاب الله عن أهل الكتاب وما هم عليه من تصديق للأكاذيب، وتواطؤ مع المتأمرين على الإسلام تحت جُرح الظلام، وتحريف للكلم عن مواضعه، ومحاولة للدرس والاستغلال،

وتهالك على أكل أموال الناس بالباطل عن طريق الرشوة والربا ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ - آخِرِينَ لَمْ يَأْتَوْكَ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ؟ بَعْدَ مَوَاضِعِهِ، يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ، وَإِنْ لَمْ تُوْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ - ﴿سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِللَّسْتِ﴾.

ويلفت كتاب الله نظر الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام إلى ما قد يجاوله اليهود من تحكيمه في بعض شؤونهم المالية، بالرغم عن وجود الأحكام الخاصة بتلك الشؤون منصوصاً عليها في التوراة التي يدعون التزامهم لها، وإيمانهم بها، منبهاً إياه إلى أن غرضهم من مثل هذه المحاولات هو تفاديهم لأحكام التوراة، التي أخذوا يشعرون أنها - بالنسبة لأحكام الإسلام - أحكام قاسية تقضي بعقوبات مغلظة، تاركاً للنبي ﷺ الخيار حسب الظروف، فإن شاء الحكم بينهم طبقاً لطلبهم تدخل وحكم، وإن فضل الاعراض بالرغم من طلبهم لم يتدخل ولم يحكم، داعياً له إذا رجح التدخل والحكم، طبقاً لطلبهم، إلى أن يحكم بينهم بالعدل المجرد، دون أي اعتبار للأغراض والأهداف التي قصدوها من وراء التحاكم إلى الرسول، بدلاً من التحاكم مباشرة إلى التوراة.

وبهذه المناسبة نوّه كتاب الله بالتوراة التي أوحى الله بها إلى موسى، ولم يكتف أن في التوراة بالصيغة التي أنزلت عليها هدى ونوراً، وإن كان القرآن الكريم مهيمناً على جميع الكتب المنزلة من قبله، وناسخاً لما انتهى وقت العمل به منها. وذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنْ جَاءَوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ، وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ

يُضْرُوكَ شَيْئًا، وَإِنَّ حَكَمْتَ فَأَحْكُمَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
 الْمُقْسِطِينَ، وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ
 يَتَوَلَّوْنَ مِنْ؟ بَعْدَ ذَلِكَ، وَمَا أَوْلَيْكَ بِالْمُؤْمِنِينَ، إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ
 فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا
 وَالرَّبَّانِيُّونَ، وَالْأَحْبَارُ، بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، وَكَانُوا عَلَيْهِ
 شُهَدَاءَ، فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ، وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا
 قَلِيلًا ﴿١٠﴾.

وكلمة (المقسطين) في هذه الآية هي نقيض كلمة (القاسطين) التي وردت في آية أخرى، فالمقسط من عدل ﴿١٠﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿١١﴾ والقاسط من ظلم ﴿١٢﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٣﴾.

وقوله تعالى: ﴿١٣﴾ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﴿١٤﴾ إشارة إلى أن حفظ التوراة كان أمره موكولاً إلى أحبار اليهود وعلمائهم أنفسهم، ولذلك وقع ما وقع فيها من التحريف والتبديل عندما تهاونوا بحفظها والمحافظة عليها، وأخذوا يشترون آياتها ثمناً قليلاً، بخلاف القرآن العظيم فقد تعهد بحفظه رب العالمين الحفيظ العليم، ولم يكل أمره إلى أحد من خلقه فقال: ﴿١٥﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٦﴾ وذلك هو السر في بقاءه محفوظاً مصوناً من كل تحريف أو تغيير إلى يوم الدين، وهو السر في خلود وصمود لسان القرآن العربي المبين، رغماً عن الحرب الدائرة، الخفية والظاهرة، التي تشهرها عليه القوات المعادية والمكابرة.

ثم فصل كتاب الله ما أجمله في الربع الماضي من مبدأ

القصاص الذي سجلته التوراة وأقره الإسلام، فقال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ، وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ، وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ، وَالْأُذْنَ بِالْأُذْنِ، وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ، وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ وكما أمر الله تعالى بالقصاص، وجعله في هذا الباب هو الأساس، بالنسبة لأصحاب الحق فيه، الحريصين على استخلاصه بوجه شرعي، فقد فتح باب العفو وإسقاط القصاص في وجه أولئك الذين يفضلون العفو على المؤاخظة، ويسقطون حقهم في القصاص، إقفالاً لباب الفتنة، ونشراً لروح التسامح بين الناس، وابتغاء المزيد من الطمأنينة والعيش في سلام ووثام، وذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ واعتبر الإسلام هذا النوع من العفو كفارة لذنوب القتل.

وانتقلت الآيات الكريمة إلى الحديث عن عيسى بن مريم عليه السلام وما أمر به من تصديق التوراة، وما نزل عليه من الإنجيل، ولم يكتب كتاب الله أن في الإنجيل حسب الصيغة التي أوحى الله بها إلى عيسى هدى ونورا، وإن كان القرآن الكريم مهيمناً عليه، كما هيمن على التوراة المنزلة من قبله.

ورغمًا عن أن الإسلام دعا اليهود والنصارى إلى الدخول فيه، والعمل بشريعته، فإن من اختار منهم البقاء على يهوديته أو نصرانيته، لم يجبره الإسلام على أن يتحاكم إلى الشريعة الإسلامية، بل أذن لليهود في تطبيق أحكام التوراة عليهم كما نزلت دون تحريف، وأذن للنصارى في تطبيق وصايا الإنجيل عليهم كما نزلت دون تحريف. وفتح الباب في وجه التدخل أو عدمه، في حالة ما إذا

توجه إليه اليهود أو النصارى أنفسهم بطلب التدخل .

وعلى ضوء هذا التفسير ينبغي أن نفهم قوله تعالى:
﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ على غرار الآية
السابقة ﴿وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ أما
التدخل في شؤونهم المالية أو عدمه فهو مرتبط بطلبهم الخاص
ورغبتهم الخاصة، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم
بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ .

ثم وجه كتاب الله خطابه إلى الرسول الأعظم عليه الصلاة
والسلام، آمراً له بالحكم بين اليهود بعضهم مع بعض، وبين
النصارى بعضهم مع بعض، إذا جاؤوا إليه طالين تدخله وحكمه،
على أن لا يتأثر حكمه عليهم بأي اعتبار خارج عن مقتضى العدل
المجرد والحق الصراح ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ
أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ .

وعقب على ذلك بما معناه أنه بعد إقامة الحجة على صدق
الدين الحق الذي هو دين الإسلام، ودعوة اليهود والنصارى إلى
الدخول فيه، وامتناع من امتنع منهم، وإصراره على الاحتفاظ
بيهوديته أو نصرانيته، لم يبق أمام الإسلام بالنسبة للمُصْرِّين على ما
هم فيه إلا موقف واحد، هو موقف السماح لهم بالبقاء على دينهم
والتحاكم إلى كتابهم، فليهود توراتهم، وللنصارى انجيلهم، وذلك
قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ
لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً، وَلَكِنْ لَيَبْلُوَكُمْ فِي مَاءِ آتِيكُمْ، فَاسْتَبِقُوا
الْخَيْرَاتِ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ .

أما الذين أسلموا من المشركين والكتابين وكافة الأمم والملل فكتابهم الوحيد هو مسك الختام للوحي الإلهي وخاتمة كتبه المنزلة، وهو كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي هو في آن واحد مصدق لما بين يديه، ومهيمن عليه، أي أنه مصدق لما في الكتب السابقة من حقائق إيمانية، وتشريعات سماوية، وتوجيهات إلهية، لكنه حاكم عليها كلها، بمعنى أن ما ينسب إليها إن أثبتته وصدقه كان حقاً وصدقاً، وإن نفاه وكذبه كان زوراً وبهتاناً، وإن أقر منها تشريعاً كان تشريعاً للمسلمين كما هو تشريع لمن قبلهم، وإن نسخ منها تشريعاً وألغاه اعتبره المسلمون كأن لم يكن.

يضاف إلى ذلك أن كتاب الله يعتبر في الدولة الإسلامية هو الدستور الأساسي العام، الذي يعيش في ظله جميع المتساكنين في دار الإسلام، من كافة الملل والأقوام، ولك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ .

وقوله تعالى في سياق هذه الآيات: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ ﴿ وَمَنْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ تنبيه إلى أن خصوم الشريعة الإلهية في الأرض هم ثلاثة أصناف:

١- كافرون: لا يؤمنون بالله ولا برسله ولا بكتبه، فهم يفضلون شريعة الغاب على شريعة الكتاب.

٢- وظالمون: لا يجدون في شريعة العدل والحق ما يؤيد ظلمهم، ويدعم بغيهم.

٣- وفاسقون: لا تقع أيديهم في شريعة الله على أيّ سند يبيح لهم الفجور والفسوق، والاستهتار والعقوق.

فهؤلاء الأصناف الثلاثة هم خصوم شريعة الله، وعليهم ألقى كتاب الله أضواءه الكشافة حتى تسفل كلمتهم في الأرض، ولا تعلق فيها إلا كلمة الله.

الربع الثالث من الحزب الثاني عشر
في المصحف الكريم

وَأَنْ أَحْكَمَ
بَيْنَهُمْ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ وَأَنْ يَفْتِنُوكَ
عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ
بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٥٤﴾ أَلْحَكَمَ
الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٥﴾
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ
أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ ﴿٥٦﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ
نَحْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ
فِيُصِيبُوا عَلَى مَا آسَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٧﴾ يَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا
أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ وَانَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتِ
أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ

عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ
 أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ
 ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ
 اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ
 الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ
 آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا
 تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا أَدِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِمَّنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
 مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾
 وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ
 لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ
 وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ
 أَنْبَيْتُمْ بِشَرِّ مَنْ ذَلِكَ مُشْرَبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَعَضِبَ عَلَيْهِ
 وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا
 وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا
 بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَبَرَى
 كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْأَسْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكَلِهِمُ الشَّحْتُ

لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٧﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ
 الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتَ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٨﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ
 يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدُهُ مَبْسُوطَةٌ
 مِّنْ سَمَاءٍ كَيْفَ يَشَاءُ وَلْيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ
 رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ
 الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ
 وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٩﴾
 وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ
 وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٧٠﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ
 وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِن
 تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْنَصَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا
 يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾

الربع الثالث من الحزب الثاني عشر في المصحف الكريم

عباد الله

في هذه الحصة نتناول الربع الثالث من الحزب الثاني عشر في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ، وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾، ونهايته قوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ، وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءٌ مَا يَعْمَلُونَ﴾.

يبتدىء هذا الربع بخطاب موجه إلى الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام، أمراً له أن يحكم بما أنزل الله، وأن لا يتأثر بأهواء المحكومين والمخالفين، وأن يكون حذراً تجاه المحاولات التي يحاولونها لفتنته عن بعض ما أنزل الله إليه.

وإذا كان الخطاب الإلهي يتوجه إلى الرسول بمثل هذه الأوامر والنواهي، وهو المتميز عن غيره بالعصمة والرسالة - حرصاً على إحقاق الحق وإبطال الباطل، وإقامة العدل المطلق بين الناس - فمن باب أولى وأحرى أن يوجه هذا الخطاب الإلهي إلى غير المعصومين من ولاة المسلمين الحاكمين بين الناس من بعده، ومن باب أولى وأحرى أن تساق إليهم هذه الأوامر والنواهي، بل إنهم هم

المقصودون بالذات من هذا الخطاب الموجه في الظاهر إلى الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام، إذ هم وحدهم - دون الرسول - المعرّضون للتأثر بأهواء المحكومين والمخالفين، على حساب الحق، وهم وحدهم المعرّضون للفتنة عن العدل. والفتنة أنواع وأشكال، من بينها فتنة الرشوة، وفتنة البطانة والحاشية، وفتنة العداوة والصدقة، وفتنة الشفاعات والوساطات، وفتنة الانحراف والتحريف، وفتنة الآراء الفاسدة والنظريات الباطلة.

وذلك قوله تعالى في خطابه إلى رسوله وهو خطاب إلى المؤمنين عن طريقه ﴿وَأَنْ أَحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ، وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾.

وتنتقل الآيات الكريمة إلى وصف أولئك الذين يولون الادبار ويتراجعون عن الحكم بما أنزل الله، مفضلين التتهقر إلى الورا، وناظرين إلى شريعة الله، إما شزراً، وإما بالاستخفاف والاستهزاء.

وتبين نفس الآيات أن الوصول إلى هذا الحد الأقصى من الانحراف إنما هو نتيجة حتمية لانحرافات تدريجية سابقة، ونوع من أنواع العقاب الإلهي لأولئك المنحرفين الفاسقين، على ذنوبهم التي ارتكبوها وأصروا عليها إصراراً، وذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَعَلَّمَ آثَمًا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾.

ويرفع كتاب الله النقاب عن خصوم الشريعة وأعدائها، ويبين السر الخفي والدافع الحقيقي لخصومتهم لها في السر والعلن، ذلك

أنهم يفضلون شريعة الغاب على شريعة الكتاب، لأنهم يجدون في كنف الأولى كل ما يحقق أغراضهم المنحرفة من الوسائل والأسباب، وحكم الغاب بالنسبة للإسلام هو حكم الجاهلية الأولى، وحكم الجاهلية هو حكم الهوى لا حكم الحق، وحكم العصبية لا حكم العدل، وحكم الطبقة لا حكم المساواة، وحكم الاستغلال لا حكم الانصاف، وحكم الإباحية لا حكم ضبط النفس، وحكم الفوضى لا حكم النظام، وحكم الفواحش والخبائث لا حكم المكارم والطيبات، وبالجملة فحكم الجاهلية هو الحكم الذي يوحى به الشيطان، والنقيض الطبيعي التام من كل الوجوه، ومن جميع زوايا النظر، لحكم الحكيم الرحمن.

ومن أراد أن يستحضر مثلاً حياً لثمرة حكم الجاهلية وثمرة حكم الإسلام، والوليد الشرعي لكل منهما، فليتذكر كيف كان المجتمع العربي في العهد الجاهلي، وكيف أصبح في العهد الإسلامي، وكيف كانت رقة العالم، الذي أصبح فيما بعد عالماً إسلامياً، كيف كانت قبل الإسلام وكيف عادت بعده. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ .

وبطريق الإيماء تفيد هذه الآية الكريمة معنى دقيقاً وصریحاً لا مناص من لفت النظر إليه، ألا وهو أن كل حكم لم يكن مطابقاً لما أنزل الله، ولا مستنداً إلى ما أنزله، ولا منسجماً مع روحه، ولا مستنبطاً منه أو راجعاً إليه، أو دائراً في فلكه، بوجه من وجوه الاستنباط، وطريقة من طرق الاجتهاد، فهو مندرج تحت حكم

الجاهلية، وداخل تحته دخولاً أولياً، مهما أعطي له من الألقاب والأسماء، حيث إن كتاب الله اقتصر عند تعداد أنواع الحكم التي يحكم بها بين الناس على نوعين اثنين لا ثالث لهما: النوع الأول حكم الله، والنوع الثاني حكم الجاهلية، فمن ترك حكم الجاهلية انتقل عنه إلى حكم الله، ومن ترك حكم الله انتقل عنه إلى حكم الجاهلية، وهو في الحقيقة رمز لكل حكم يتنكر للتوجيهات الإلهية والمبادئ الأخلاقية، ويتجاهل وجودها، ويتعمد محاربتها، ويُسقط من حسابه ومن تقديره كل علاقة تربطه بمن «له الخلق والأمر»، متجاهلاً قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾.

وفي هذا السياق نفسه يوجه كتاب الله خطابه إلى المؤمنين، متحدثاً عما يمكن أن يقع لبعضهم من الردة عن دينه - وكأن في ذلك إشارة إلى من يعطل الحكم بما أنزل الله، ويستبدل به حكم الجاهلية، ويفضله على حكم الإسلام - ثم يعقب على ذلك بأن الله تعالى غني عن هذا النوع من الناس، وقادر على أن يستبدل بهم قوماً آخرين لا يبغضهم الله ولا يبغضونه، ولكن يحبهم الله كما يحبونه، ومن جملة خصالهم أنهم رحاء بالمؤمنين، يحققون بينهم مقتضيات شرعه الرحيم وعدله السليم، أشدّاء على الكافرين، لا يقبلون منهم افتياتاً ولا تطاولاً، ولا يفتحون في وجوههم باباً للفتنة عما أنزل الله. ثم إنهم يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون في الله لومة لائم، فهم لا يتأثرون بأهواء المحكومين والمخالفين ولا بنزغات الجاهلية كيفما كانت، ولا يتنازلون عن شرع الله وعدله قلاماً ظُفر، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَن يَرْتَدُّ مِنكُمْ

عَنْ ذِيْنِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّٰهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّوْنَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكٰفِرِيْنَ يُجَاهِدُوْنَ فِي سَبِيْلِ اللّٰهِ، وَلَا يَخَافُوْنَ لَوْمَةَ لَائِمٍ، ذٰلِكَ فَضْلُ اللّٰهِ يُؤْتِيْهِ مَنْ يَّشَآءُ، وَاللّٰهُ وَاسِعٌ عَلِيْمٌ ﴿١٠﴾ .

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكٰفِرِينَ﴾ يشبه قوله تعالى في آية أخرى ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللّٰهِ، وَالَّذِيْنَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ فلفظ (أذلة) هنا بمعنى رحماء هناك، ولفظ (أعزة) هنا بمعنى أشداء هناك، إذ القرآن يفسر بعضه بعضاً.

ثم يزيد كتاب الله هذا الموضوع توضيحاً وتبييناً، فيخاطب الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام، لافتاً نظره إلى الدوافع والأسباب التي جعلت كفار أهل الكتاب ومن في حكمهم يتنكرون لحكم الله، ويصرون على الكفر بما أنزل الله، فهم يعيشون عيشة كلها فسوق وانحراف، وهم أسرع الناس إلى ارتكاب الفواحش والآثام، وأكثرهم تهالكاً على الظلم والطغيان، وأشدهم انهماكاً في أكل أموال الناس بالباطل.

ولو كان هذا الأمر مقتصرأ على عامتهم، والخاصة منهم تنكره وتقاومه لكان الخطب، ولكن خاصتهم متواطئة عليه مع العامة بسكوتها وتهاونها، إذ لا تنكره ولا تقف في وجهه بحال.

وذلك قوله تعالى: ﴿وَتَرَى كَثِيْرًا مِّنْهُمْ يُسْرِعُوْنَ فِي الْاِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاكْلِهِمْ السُّحْتِ، لَيْسَ مَا كَانُوْا يَعْمَلُوْنَ، لَوْلَا يَنْهٰهُمْ

الرَّبُّبْنِيُّونَ وَالْأَخْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ، لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٤٠﴾.

وختمت آيات هذا الربع بدعوة أهل الكتاب إلى الإيمان بالله وتقواه، ودعوتهم إلى تنفيذ التوجيهات الإلهية التي تضمنها الوحي المنزل في التوراة والإنجيل والقرآن، كما تضمنت نفس الآيات الكريمة وعد الله لهم - إن دخلوا في حظيرة الإسلام وحكمه - بالمزيد من نعمه الظاهرة والباطنة، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ، وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ، مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٤٠﴾. وهذا الوعد الإلهي وإن كان موجهاً لكفار أهل الكتاب، فهو موجه لعصاة المسلمين من باب أولى وأحرى، فما عليهم إلا أن يعودوا إلى الله ويرضوا بحكمه، ويسيروا في حياتهم الخاصة والعامة على ضوء الهدى المحمدي، ليكونوا من المهتدين، ومع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

الربع الأخير من الحزب الثاني عشر في المصحف الكريم

يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ
تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا
يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٧﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ
عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ
مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ
طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٧٨﴾ إِنَّ
الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالنَّصَارَى
مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٧٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ
وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ رُسُلًا كَلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا
لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٨٠﴾

وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونُ فِئْتَةً فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ
 تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ
 وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ
 قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ
 يَبْنِي لَكُمْ إِسْرَائِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَ
 إِنَّهُ وَمَنْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ
 وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ
 كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ
 وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا
 يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ
 أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ
 وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا
 رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ
 صِدِّيقَةٌ كَانَا يَاكُلَنِ الطَّعَامَ أَنْظِرْ كَيْفَ
 بُنِينَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَبْنِيَّ يَوْفُكُونَ ﴿٧٥﴾
 قُلْ أَعْبُدُونِ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ

ضَرًّا وَلَا نَفَعًا ۗ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾
قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ
غَيْرَ الْحَقِّ ۗ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا
مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ
السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي
إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ
مَرْيَمَ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾
كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ۗ
لَيْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَبَىٰ كَثِيرًا
مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ
لَهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ ۗ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي
الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ
بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ ۗ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ
أَوْلِيَاءَ ۗ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨١﴾

الربع الأخير من الحزب الثاني عشر في المصحف الكريم

عباد الله

حديث هذا اليوم يتناول تفسير الربع الأخير من الحزب الثاني عشر في المصحف الكريم، وأول آية منه قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتِهِ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ وآخر آية فيه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ، وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾.

يبتدىء الخطاب الإلهي في هذا الربع بحض الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام على القيام بواجب التبليغ الذي كلفه الله به دون توانٍ ولا تردد، وينبهه إلى أن أي تقصير في هذا الواجب يعتبر عملاً مضاداً للتبليغ، كما يؤكد للرسول عليه السلام أن الله الذي أرسله لتبليغ الرسالة قد تعهد بحفظه، وأنه مهما استعمل من الوسائل لتحقيق هذه الغاية وضاعف من الجهود في هذا السبيل، فلن ينال حياته أي مكروه، وأن أية محاولة يحاولها الكافرون ضده ستبوء بالفشل، وذلك قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتِهِ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ

النَّاسِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠﴾ . وينبغي أن يفهم هذا الأمر الإلهي للرسول بالتبليغ والحرص عليه، على أنه أمر موجه إلى ورثة الرسول من بعده، وهم علماء الشريعة وحملة الدين، الذين هم مطالبون بتبليغ الدعوة الإسلامية، وكشف النقاب عنها على وجهها الحق، في كل العصور والأجيال، مهما كلفهم ذلك من الجهود والتضحيات.

ثم يوجه كتاب الله خطابه إلى أهل الكتاب مرة أخرى، فيدينهم جميعاً بما هم عليه من مخالفة صريحة للتوراة والإنجيل، مبيناً أن ما يدعون من التمسك بهما، وما ينسبونه إليهما مما ليس منهما، هو منتهى الزور والتضليل، وموضحاً أن «أهل الكتاب» بسبب ابتداعهم في دينهم، وتحريفهم لكتبهم، وابتعادهم عن روح الدين ومنبع الإيمان، أصبحوا وهم «ليسوا على شيء» لا من الدين، ولا من الإيمان، ولا من الكتاب، وأن الوسيلة الوحيدة لإنقاذهم مما هم فيه هي قبول رسالة الإسلام التي قامت على أساسها وهداياها نفس التوراة ونفس الإنجيل، والتي جاء القرآن الكريم بتتيممها وختامها لخير الناس أجمعين، وذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ .

وعقب كتاب الله على هذه الدعوة بما يفيد أن الكثرة من أهل الكتاب ستصر على ضلالها، وسوف لا تستجيب لدعوة الإخاء الديني والإنساني التي ينادي بها الإسلام، بل ما يؤكد أن هذه الدعوة ستزيدها طغياناً على طغيان، وكفراً على كفر، اعتزازاً منها

بالإثم والأناية، وإمعاناً في العناد والاستكبار، وتمسكاً بحفظ مصالحها وامتيازاتها، وحرصاً على إبقاء الجماهير المضللة في شبكتها، وتحت تأثيرها، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً، فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

وانتقلت الآيات الكريمة إلى التنديد بموقف بني إسرائيل من ميثاق الله الذي واثقهم به، والتنديد بموقفهم من رسل الله الذين تعاقبوا عليهم الواحد بعد الآخر، فلم يكن آخرهم أحسن حظاً من أولهم، وأشارت نفس الآيات إلى ما تقلبت فيه كثرة بني إسرائيل من عصيان وتوبة، ثم عصيان مستمر جعلهم محل سخط الله وغضبه، وذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا، كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ، وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا، كَثِيرٌ مِّنْهُمْ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

ومن الحديث عن بني إسرائيل وموقفهم من أنبيائهم انتقلت الآيات مرة أخرى إلى الحديث عن موقف المدّعين لاتباع المسيح والإيمان به، مبيّنة كفرهم الصريح بسبب تأليههم لعيسى بن مريم، على خلاف تعاليمه ووصاياهم التي نادى بها من المهد إلى اللحد، فنفس المسيح عليه السلام منذ كان في المهد صبياً قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَيْنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً﴾ ولم يقل إني إله، ونفس المسيح ظل خلال قيامه برسالته يدعو أتباعه إلى عبادة الله الواحد الأحد،

وعرفهم بأن الإله المعبود هو رب العالمين وحده لا شريك له، وبأن الشرك بالله ظلم عظيم لا جزاء له إلا النار، وليس لأهله شفعاء ولا أنصار، وذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ، وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ، إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ، لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ، وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ، وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ثم يتولى كتاب الله وصف الحقيقة الصادقة عن المسيح وأمه مريم دون زيادة ولا نقص، ولا غلو ولا تحريف، ولا تأليه ولا تثليث، وذلك قوله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ، وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ، كَانَا يَأْكُلَنِ الطَّعَامَ، انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤفَكُونَ، قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، قُلْ يَأْهَلِ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ، وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَنِ الطَّعَامَ﴾ فيه توضيح لبشرية عيسى وأمه وتوابع هذه البشرية، بتعبير قرآني مهذب، فمن كان يتناول الطعام لدفع ألم الجوع، سوف يضطر بحكم تناوله للطعام إلى العمل على التخلص من فضلاته، وإذن فهو يحتاج إلى تناول الطعام أولاً والتخلص من فضلاته ثانياً، ومن كان حاله هو هذا

الحال، لا يمكن أن يكون إلهاً ولو في الخيال.

وواصلت الآيات الكريمة حديثها عن كفر بني إسرائيل، مبيّنة تواطؤهم على المناكر، وحرصهم على موالة الكافرين، وما أدى إليه هذا السلوك المنحرف من عذاب في الدنيا والآخرة، وذلك قوله تعالى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ، لَيْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ، تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا، لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾.

وإذا استنكر كتاب الله موقف التواطؤ على المنكر من بني إسرائيل، فإنه يستنكره من المسلمين من باب أولى وأحرى.

على أن كتاب الله في هذا الربع قد فتح في وجه المخالفين للإسلام أياً كان دينهم، وكيفما كان شعارهم - بالرغم عن مخالفاتهم وانحرافاتهم - باب التوبة والمغفرة والدخول في حظيرة الإسلام على أساس المساواة التامة، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، ووعدهم وعد الحق والصدق بالأمن في الدنيا والآخرة، رفقاً بهم، وحرصاً على هدايتهم، وإقامة للحجة عليهم، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالنَّصِرِيُّ، مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

الربع الأول من الحزب الثالث عشر
في المصحف الكريم

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ
وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ
ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيّ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ
قَسِيصِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٧﴾
وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ
نَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ بِمَا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا
ءَامَنَّا فَآكُتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٨﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ
بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا
مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٩﴾ فَأَثَبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتِ
تَجْرِيهِ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ
الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا

أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرِمُوا
 طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ
 لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ
 حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾
 لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ
 الْإِيْمَانَ فَكَفَرْتُمْ وَءِطَعَامُ عَشْرَةِ مَسَكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا
 تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ
 فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفْرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا
 أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ يَا أَيُّهَا
 الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ
 مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ
 أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ
 عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ
 وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا إِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا
 الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا
 طَعَمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ

اتَّقُوا وَأَحْسِنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
 لِيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بُشْتًا مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ وَأَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ
 اللَّهُ مَن يَخَافُهُ وَيَالْغَيْبِ فَمِنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ وَعَذَابُ آيَمٍ ﴿٩٤﴾
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَن قَتَلَهُ وَمِنْكُمْ مُّتَعَدًّا
 فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدِيًّا بَلِغَ
 الْكَعْبَةَ أَكْفَرًا طَعَامٍ مَّسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ
 أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَن عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو
 انْتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ
 عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمَّتْ حُرْمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾

الربع الأول من الحزب الثالث عشر في المصحف الكريم

عباد الله

نتناول في حصة هذا اليوم الربع الأول من الحزب الثالث عشر في المصحف الكريم، ويبتدىء هذا الربع بقوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ وينتهي بقوله تعالى: ﴿وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

في بداية هذا الربع يتحدث كتاب الله، وهو يخاطب الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام، عن مواقف أهل الكتاب من الإسلام، وما يبرز في صفوفهم من عداوة أو مودة له ولأهله، ولا يُغفل كتاب الله التنبيه إلى أن الهوة التي تفصل بين الإسلام والوثنية من جهة، وبينه وبين اليهودية من جهة أخرى، هوة سحيقة جداً، فطبيعة الوثنية في حد ذاتها ومن أصلها لا تنسجم مع الوحي الإلهي في شيء، ولا سيما الوحي الإلهي الوثيق الذي لا تبديل فيه ولا تغيير، كوحي القرآن الكريم، وأنى للظلمة أن تنسجم مع النور، وللحق أن يعايش الباطل.

وعناد اليهودية وتجاهلها لبقية الأنبياء والرسول ولبقية الكتب

المنزلة، وتظاهرها بالاستعلاء والاستكبار على من لا يدين بدينها، كل ذلك جعلها سبّاقاً إلى اشهار الحرب على الإنجيل ورسوله، كما جعلها سبّاقاً إلى حرب القرآن ورسوله، وقد اختارت في كثير من الأوقات حرب الدسيسة، والتآمر، وبلبلة الأفكار، وإثارة المشاكل الجانبية، ثم محاولة التسرب إلى قلعة القرآن عن طريق التأويلات المبتذلة، والأساطير المتحولة، فهي من الوجهة السياسية الحليفة الأولى للوثنية العربية طيلة عهد الرسالة المحمدية، وهي من الوجهة الاعتقادية والتشريعية تتزعم جميع الحركات والتيارات المناوئة للإسلام، والعاملة على تشويهه وتحريفه، وإبرازه كعنصر ثانوي لا أصالة فيه ولا ابتكار، ولا تفتّر دوماً عن ملاحقة الإسلام ومطاردته في مختلف المجالات، ولا سيما مجال العقائد والآراء والأفكار، وإلى هذه المعاني يومىء قوله تعالى في إيجاز وإعجاز ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾.

ويلاحظ في هذه الآية تقديم (اليهود) على (الذين أشركوا) والسر في ذلك - والله أعلم - أن خطر هذا العنصر أقوى وأشد من خطر جميع العناصر الوثنية، لا فرق بين الوثنية العربية وغيرها، فالوثنية ليس لها أي أساس مقبول من الوحي والرسالة، ولا من المنطق والحكمة، وهي عاجزة عن أن تقف على قدمها أمام الإسلام الذي يقوم في صميمه على الكتاب والحكمة معاً، بينما اليهودية تعتبر نفسها عقيدة توحيد، وبيدها شريعة التوراة التي لا تقبل فيها نسخاً، وإن كانت من الوجهة العملية قد حرفت بها بنفسها ومسختها نسخاً، وهكذا تجد المجال مفتوحاً عند غير المسلمين، لتضليلهم

عن حقيقة الإسلام المثلى وجوهره الرفيع .

ثم تنتقل الآيات الكريمة إلى وصف طائفة أخرى من أهل الكتاب، هي طائفة من القسيسين والرهبان كانت تدين بالنصرانية، لكنها على أثاره من العلم بقرب ظهور خاتم الأنبياء والمرسلين، طبقاً لبشارة المسيح عليه السلام الثابتة من قبل ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ﴾ فما كاد يظهر الإسلام، ويشرع الرسول عليه الصلاة والسلام في تبليغ الرسالة التي تلقاها من عند الله، حتى آمنوا به وبرسالته، بل أعرضوا عن لغو اليهود من جهة، وتركوا نصرانيتهم من جهة أخرى، وخالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، وتلقوا ما أنزل إلى الرسول بتلطف وشوق وتأثر بالغ، ففاضت أعينهم بالدموع، وبرزت على جوارحهم آثار الخشوع، وأخذوا يسألون الحق سبحانه وتعالى أن يكتبهم في زمرة الأمة المحمدية الشاهدة على الناس، وأن يدخلهم الجنة في رفقة القوم الصالحين، ونظراً لصدق يقينهم، وإخلاص إيمانهم، وحسن توفيقهم، استجاب الله دعاءهم، وأحسن جزاءهم، وذلك ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيصِينَ وَرُهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ، وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ، يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ، وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ، فَأَنْبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

خَلِيدِينَ فِيهَا، وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٠﴾ .

وفي هذه الطائفة أو في مثلها نزل قوله تعالى في سورة القصص ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ، وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ، أَوْلَئِكَ يُوْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ، وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٤١﴾ .

وإذن فالأمر في قوله تعالى هنا: ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً ﴾ الآية يتعلق بمن كانوا على النصرانية ثم تركوها نهائياً وانتقلوا إلى الإسلام، لا بمن أصروا على نصرانيتهم واستمروا عليها ووقفوا في وجه الإسلام يحاربون دعوته، ويطاردون شريعته، ويستعبدون أمته، منذ نشأته الأولى إلى هذه الأيام، فهؤلاء هم الذين تولى الحق سبحانه وتعالى ذكرهم وذكر عقابهم في قوله عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ .

ومضى كتاب الله يدعو المومنين إلى تجنب مظاهر الرهبانية التي ابتدعها النصارى في دينهم، مطالباً للمومنين بتناول جميع الطيبات التي أحلها الله لهم، لكن في غير تجاوز للحدود، ودون إسراف بما يزيد عن الهدف المقصود ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ﴾ .

ولفتت الآيات الكريمة أنظار المومنين إلى ما يجب أن يحيطوا به اسم «الله» من تقديس واحترام، وانهم لا ينبغي لهم أن يقسموا

باسمه العظيم إلا عند الضرورة القصوى ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ منبهة إلى أنه إذا كان الله تعالى لا يؤاخذهم باللغو في أيمانهم، لأنها صدرت منهم عن غير قصد ودون عمد، فإنه سبحانه سيحاسبهم على الأيمان التي قصدوها، وتعمدوا توكيد مقاصدهم بها، هل برؤا بها أو لم يبرؤا، وعليهم إذا لم يبرؤا بأيمانهم أن يكفروا عن تقصيرهم في البرور بها. وحددت نفس الآية الوجوه التي يمكن أن تقع «كفارة اليمين» باختيار واحد منها، وذلك قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ، وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْاَيْمَانَ، فَكَفَّرَتْهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقِيَّةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، ذَلِكَ كَفْرَةٌ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ، وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وجدد كتاب الله الحديث عن تحريم الخمر والقمار، وتحريم الذبائح التي كان المشركون يذبحونها، ويرشون بدمائها أحجاراً وثنية مخصوصة يدعونها «الأنصاب» أو يقتسمونها بواسطة قِدَاحٍ أو قراطيس خاصة يدعونها «الأزلام»، مبيناً الآثار السيئة التي تنشأ عن شرب الخمر وعن لعب القمار، ومعلناً تحريم الخمر والميسر تحريماً قاطعاً، وذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ، فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾.

وهنا يجب التنبيه والتأكيد على أن من صيغ التحريم التي

يستعملها القرآن الكريم صيغة «اجتنبوا» كما ورد في هذه الآية وغيرها من الآيات، مثل قوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَأَجْتَنِبُوا الطُّغُوتَ﴾، وقوله تعالى في سورة الحج: ﴿فَأَجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾، وقوله تعالى في سورة الحجرات: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ الآية، فكل ما ورد في هذه الآيات بعد صيغة (اجتنبوا) يعتبر في الشريعة من المحرمات المقطوع بتحريمها.

ثم يعقب كتاب الله على ذلك كله بقوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا﴾، منبهاً إلى أن شارب الخمر ولاعب القمار هما عملياً في حرب مع الله ورسوله، مجاهران لله ورسوله بالعصيان، متمردان على طاعته، متهاونان بأحكام شريعته.

وإذا كان المتمرد على سلطة المخلوق مثله يتعرض لأشد أنواع العقاب، جزاء تمرده وعصيانه، فما بالك بالمخلوق المتمرد على سلطة الخالق القاهر فوق عباده، ماذا يكون مصيره بين يدي الله؟ يوم لا ينفعه إلا طاعة الله وتقواه وما قدمت يداه، وذلك هو معنى قوله تعالى: (واحدروا) بعد قوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أي احدروا مغبة عصيانكم لله، فقد تكون العاقبة أوخم عاقبة، وقد تكون الخاتمة أسوأ خاتمة، فأطيعوا الله ليشبثكم في أخرج المواقف، ولا تلقوه وأنتم «سكارى» عند سكرات الموت، وكونوا من أهل الإيمان والإذعان، حتى ينعم الله عليكم في مواقف الحيرة والفرع بالثبات والاطمئنان، قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾.

الربع الثاني من الحزب الثالث عشر في المصحف الكريم

جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ
 وَالْهَدْيَ وَالْقَلِيدَ ذَلِكَ لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا
 فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ إَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
 الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
 مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿١٩﴾ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ
 أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ
 تُفْلِحُونَ ﴿٢٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِن تُبَدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ
 وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنزَلُ الْقُرْآنُ تُبَدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ
 غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿٢٢﴾
 مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ
 كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ

لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ
ءَابَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٤٤﴾ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسِكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ وَإِلَى
اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ إِشْنِ ذَوَا
عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ آخَرَينَ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ
مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِنُوهَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسَمِنَ بِاللَّهِ إِنْ
إِرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ
إِنَّا إِذَا الْمِنَ الْأَعْيُنِ ﴿١٤٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَينَ
يَقُومِنَ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيْنَ فَيُقْسَمِنَ بِاللَّهِ
لَشَهَدْنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَدَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا الْمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٧﴾ ذَلِكَ
أَدْبَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ
أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٨﴾

يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ
لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١٤٩﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ
أَنْذِرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ

تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهَلًا وَإِذْ عَلَّمْتَ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرِيَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ
كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي
وَتُبْرِئُ الْأَكْمَامَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى
بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ
فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْحَرٌ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾

الربع الثاني من الحزب الثالث عشر في المصحف الكريم

عباد الله

حديث هذا اليوم يستوعب الربع الثاني من الحزب الثالث عشر في المصحف الكريم، وأول آية فيه قوله تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ﴾، وآخر آية منه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

يبتدىء الحديث في هذا الربع بذكر فضائل الكعبة وخصائص البيت الحرام، وما اقتضته الحكمة الإلهية من جعل هذه المنطقة منطقة أمن عام، وطمانينة شاملة، بالنسبة للإنسان وبالنسبة للحيوان، فالإنسان في دائرتها لا يتعرض لأي انتقام من أخيه أو عدوان، والحيوان في محيطها يتمتع بعهد الأمان وبالحصانة التامة من طرف الإنسان، بحيث لا يسفك بها دم، ولا يتوقع فيها ثأر، ولا يروّع فيها سرب، ولا يقتل فيها صيد، ولا يُعضد فيها شجر، ويكون الحجاج إليها كلهم فارغي البال، اللهم إلا من عباداتهم التي يعكفون عليها، ومناسكهم التي يقومون بها وهم على أحسن حال، دون رفث ولا فسوق ولا جدال، وذلك قوله تعالى: ﴿جَعَلَ

اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيناً لِلنَّاسِ ﴿٤﴾ أي أمنأ لهم وصلاًحاً. وسميت الكعبة «كعبة» لتتوئها وبروزها، إذ يقال لكل ناطء بارز «كعب»، مستديراً كان أو غير مستدير، على ما صححه المحققون.

ويتجه خطاب الله إلى نبيه الأعظم عليه الصلاة والسلام، أمراً له أن ينبه الناس إلى أن الخبيث والطيب لا يستويان عند الله في شيء، وأن يلفت نظر الإنسان أيأ كان وحيثما كان، إلى أن مجرد الاستلذاذ بالخبيث والاعجاب به لا يقف في وجه هذه الحقيقة الناصعة، فقد يكون الخبيث جذاباً وبراقاً ومثيراً، ولكنه في جوهره خبيث، وفي أثره خبيث، وفي عاقبته خبيث، ولن يقف الخبيث مع الطيب على قدم المساواة بأي وجه من الوجوه، وإذا كان الخبيث «أوزن» في الدنيا فالطيب أثقل منه وزناً في الآخرة، وإذا كان مآل الطيب إلى الجنة، فإن مآل الخبيث إلى النار، وإذا كان منفق المال الخبيث يعتبر انفاقه هباءً منثوراً، فمنفق المال الطيب يظل انفاقه ثابتاً مذكوراً، هذا إلى ما يترتب على تناول كل من الطيب والخبيث، وعلى ممارسة كل من الطيبات والخبائث، من الآثار النفسية والأخلاقية، الفردية والاجتماعية، مما يجعل سلوك الطيبين رحمة لهم وللناس، وسلوك الخبيثين نقمة عليهم قبل أن يكون نقمة على بقية الناس، وإلى ذلك يشير قوله تعالى في إيجاز وإعجاز ﴿قُلْ لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ، فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأْتِيهِ الْآلَبُوبُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

ثم يتناول كتاب الله الحديث عن طائفة من الناس، مصابة بنوع غريب من حب الاستطلاع والهوس بلغ إلى حد الوسواس،

فهي تحاول أن تحيط علماً بكل شيء، وهي تحشر أنفسها في جميع المقامات والمجامع، وهي مولعة بالبحث عن أسرار الناس الخاصة ودخائل أمورهم دون أي موجب شرعي ولا مبرر أخلاقي، وهي حريصة على إثارة الأسئلة الفارغة أو الملتوية، التي لا جدوى من ورائها ولا نفع في الجواب عنها، بغية إيقاع المجيب عنها في ورطة يصعب عليه الخلاص منها، وهكذا. فإلى هذه الطائفة ومثيلاتها يتجه الخطاب الإلهي قائلاً: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَأْمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ﴾.

وما يندرج تحت هذه الآية ما جاء في الأثر: أن رجلاً من بني سهم يقال له عبد الله بن حذافة كان يُطعن فيه، فقال يارسول الله مَنْ أَبِي؟ فقال أبوك حذافة، فدعاه لأبيه. قال الزهري: فقالت أم عبد الله بن حذافة: «ما رأيت ولدأ أعق منك قط، أكنت تامن أن تكون أمك قد قارفت ما قارف أهل الجاهلية، فتفضحها على رؤوس الناس» فقال: «والله لو ألحقني بعبد أسود للحقته».

وأشار كتاب الله في تعقيبه على هذا النوع من الناس الموسوسين وأسئلتهم الفجّة، إلى أن المؤمنين لا يمنعهم أي مانع من توجيه أسئلتهم إلى الرسول ﷺ، مادام الغرض منها هو الاستفسار عن الدين والسؤال عن الشريعة، منبهاً إلى أن أحسن فرصة مناسبة لإلقاء هذا النوع المفيد من الأسئلة هي الوقت الذي ينزل فيه الوحي على رسول الله ﷺ. ففي تلك المناسبة يكون الرسول على أتم استعداد لإجابة المؤمنين وتفقيهم في الدين، بتوضيح ما فيه إشكال، وتفصيل ما فيه إجمال، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا

عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّلُ لَكُمْ ﴿١٠٠﴾ .

وقوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا، وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ يمكن تفسيره بالجزء الأخير من الحديث الصحيح الذي ثبت فيه عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله أمركم بأشياء فامثلوها، ونهاكم عن أشياء فاجتنبوها، وسكت لكم عن أشياء رحمة منه فلا تسألوا عنها» فيكون معنى (عفا الله عنها) سكت عنها رحمة بالمؤمنين. قال القاضي أبو بكر (ابن العربي) ما خلاصته: (قوله تعالى ﴿عفا الله عنها﴾ أي أسقطها، والذي يسقط لعدم بيان الله فيه هو باب التكليف، فإنه بعد موت النبي ﷺ تختلف العلماء فيه... واختلاف العلماء رحمة للخلق، وفسحة في الحق، وطريق إلى الرفق).

ثم نادى كتاب الله بإبطال الشعائر الوثنية وإلغائها، وخاصة ما ابتدعه المشركون من اعتاق الإبل والغنم وتسيبها للأصنام والأوثان، فهذه ناقة تشق أذنبا وتترك، وهي «البحيرة»، وتلك ناقة يخلى سبيلها مع أمها دون راعٍ ولا قيد، وهي «السائبة» بحيث لا يُركب ظهرها، ولا يُجزُّ وبرها، ولا يشرب لبنها، وهناك شاة تلد ذكراً أو ذكراً وأنثى، وهي «الوصيلة» فتخلى للأوثان والأصنام، وهذا فحل من الإبل ينقضي ضرابه، فيجعل عليه من ريش الطواويس ويسيب، وهو «الحامي».

وهكذا ذم الله تعالى ما كان يفعله المشركون من هذه الشعائر الباطلة، وحذر المسلمين من الوقوع فيما وقعوا فيه، بعد أن عرفهم أن ذلك كله مجرد كذب على الله، ومحض افتراء عليه، وذلك قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ،

وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ،
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا
وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا، أُولَئِكَ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا
يَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾.

وفي هذا الربع آية كريمة يجب الوقوف عندها وقفة خاصة،
فقد فهمها بعض الناس على غير وجهها منذ عهد مبكر، ألا وهي
قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسُكُمْ، لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ
ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿١٠﴾.

وأقل نظر إلى هذه الآية بتعمق وإمعان يؤدي إلى فهم
المقصود منها على أحسن وجه، إذ هي واردة في سياق الآية التي
سبقتها، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ
وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا ﴿١٠﴾﴾ فهذا هنا دعوة
موجهة إلى المشركين من الرسول والمؤمنين، ليركعوا ما هم عليه من
ضلال وخبال، لكنهم يصرون على تقليدهم الأعمى، ويأبون
الاستجابة إلى الدعوة الإسلامية.

وما دام الأمر هكذا، وما دام الرسول والمؤمنون قد بذلوا كل
ما في وسعهم للقيام بتوجيه الدعوة وتبليغ الرسالة، وحاولوا بكل
الوسائل اقناع المشركين دون جدوى، فقد برئت ذمتهم ولم يبق
أمامهم إلا العمل على نجاة أنفسهم وخلصها، ولن يحاسبوا على
ضلال من أصر على الضلال، بعد دعوتهم له باستمرار، ورفضه
لدعوتهم بكامل الرفض ومزيد الإنكار. وليس معنى هذه الآية
الاذن للمسلم بالتخلي عن واجباته نحو المجتمع الإسلامي والدولة

الإسلامية، ولا الترخيص له بالوقوف منها موقف المتفرج الذي لا يهيمه من أمرهما شيء، فذلك فهم مقلوب للإسلام، وتأويل مضاد للمعنى المقصود من هذه الآية.

روى أصحاب السنن أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه يوشك الله عز وجل أن يعمهم بعقابه».

ومما لا يسوغ للمسلم التخلي عنه ولا إهماله أبداً أمر أسرته وأولاده، امثالاً لقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً﴾ وقوله تعالى: (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) ﴿

الربع الثالث من الحزب الثالث عشر في المصحف الكريم

وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي
 قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ
 الْحَوَارِيُّونَ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ
 عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ
 مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا
 وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾
 قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ
 تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارزُقْنَا وَأَنْتَ
 خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُمْتَزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ ذَلِكَ
 مِنِّي أَعَذِبُ بِهِ وَعَذَابِي لَا أُعَذِّبُهُ وَأَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ
 اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ آنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ إِلَهَيْنِ

مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ
 أَنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِهِ وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي
 نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَالِمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٧﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي
 بِهِ أَنْ أَعْبُدُ وَأَلَّهُ رَبِّي وَرَبُّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا
 دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى
 كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَإِنْ تُغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ
 أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ
 لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ
 عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ
 السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾

﴿٦﴾ سُورَةُ الْإِنْعَامِ مَكِّيَّةٌ وَقَدْ آيَاتُهَا ١٦٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ
 الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ
 قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ

فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾
 وَمَا نَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَذُكِّرُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥﴾
 أَلَمْ يَرَوْا كَرَاهِلَكُنَّا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُنْمِكَنَّ
 لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِمُ مِنْ
 تَحْتِهِمْ فَاهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾
 وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ
 كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْحَرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ
 مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾
 وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا
 يَلْبَسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَخَاقَ
 بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ
 سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
 الْمُكذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُلْ لِمَنْ مَلِكٌ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ
 كُتِبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَ كُودًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا
 رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ

الربع الثالث من الحزب الثالث عشر في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نعالج الربع الثالث من الحزب الثالث عشر في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي، قَالُوا ءَأَمَّنَّا وَآشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ ونهايته قوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ، الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

في هذا الربع من كتاب الله نجمع بين آخر ثُمْنٍ من سورة المائدة وأول ثُمْنٍ من سورة الأنعام، وبذلك نكون قد اختتمنا سورة وابتدأنا أخرى، مستعينين بالله ومعتمدين عليه.

والحديث في الثُمْنِ الأخير من سورة المائدة يتعلق بعيسى بن مريم عليه السلام والحواريين الذين آمنوا به وصدقوه، وقصة المائدة التي طلبوها، والحوار الذي دار بينهم وبين عيسى في شأنها، كما يتناول وصف الكيفية التي يكون عليها سؤال الحق سبحانه وتعالى يوم القيامة لعيسى عن موقف المسيحيين الذين غالوا في تعظيمه حتى رفعوه إلى درجة الألوهية، فأشركوا بالله الواحد الأحد، ثم وصف الجواب الذي يجيب به عيسى بن مريم ربه، متبرئاً من

المنتسبين إليه زوراً وبهتاناً، والمغالين في حقه ظلماً وعدواناً.

فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ الذي نبتدىء به ربيع هذا اليوم هو وارد في سياق آيات أخرى سبقت في نهاية الربيع الماضي، وهو تابع لها ومرتبطة بها في المعنى كل الارتباط، فقد سبقها قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ، قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ، إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ، إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا، وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ، وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي، وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي، وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتُ بِإِذْنِي، وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ، وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾.

والمقام في هذه الآيات مقام استعراض عام أمام الله وبين يديه لجميع الرسل الذين أرسلهم الحق سبحانه وتعالى إلى خلقه، من أولهم إلى آخرهم، واستجوابهم أمام الجناب الإلهي الأقدس، ماذا كان موقف أهمهم من الرسائل التي أرسلهم بها، وماذا كان جواب أهمهم عنها؟

وفي وسط هذا الاستعراض الضخم لموكب الرسل الكرام جميعاً يقف كتاب الله وقفة خاصة عند سؤال عيسى بن مريم وجوابه، ويصف خطاب الحق سبحانه وتعالى له بشيء من التفصيل، وفي أسلوب من الحوار، فقد اختلط أمر عيسى بن مريم

على من يدعون اتباعه اختلاطاً كبيراً، وقد ارتبك في شأنه عدد غير قليل من البشر، وفي هذا السياق يذكر الله رسوله عيسى بن مريم بالمعجزات التي أيده بها ﴿ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ ﴾ ويعدها عدداً، مؤكداً أنها كلها إنما كانت معجزات من عند الله ومن صنعه وبإذنه، لا من وضع عيسى ولا بقوته وقدرته ﴿ إِذْ أَيْدُتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ - ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ - ﴿ وَإِذْ تَخَلَّقْنَا مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي ﴾ - ﴿ وَتُبِّرِيءُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ﴾ - ﴿ وَإِذْ نُخْرِجُ الْمَوْتُ بِإِذْنِي ﴾ - ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ ﴾ - ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي ﴾ - وهكذا وردت هذه الآية الأخيرة في معرض تذكير الله لعيسى بن مريم بنعمه التي أنعم بها عليه، تمهيداً لاستجوابه واستفساره عن الغلو في تعظيمه، وتأليه من طرف المنتسبين إليه، وموقفه من ذلك الغلو.

والنعمه التي يمتن الله بها على عيسى بن مريم في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي ﴾ هي نعمه ما أكرمه الله به من الأصحاب والأنصار، إعانة له على تبليغ الرسالة، وأداء الأمانة، فقد ألهم الله الحواريين المعرفة بصدق رسالته، وألقى في قلوبهم بذور محبته، وهداهم إلى الإيمان بالله بواسطته، و«الوحي» إلى الحواريين في هذا المقام، لا يتجاوز أن يكون وحي (الإلهام)، على غرار ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ﴾ الآية. ثم بين كتاب الله كيف استجاب الحواريون لدعوة عيسى بن مريم، وكيف آمنوا وشهدوا

على أنفسهم بعقيدة الإسلام، التي جاء بها كافة الرسل من عند الله .

وانتقل بعد ذلك إلى تفصيل قصة المائدة، التي طلب الحواريون من عيسى بن مريم أن يسألها لهم من الله، وبها سميت هذه السورة (سورة المائدة).

وبينَ كتاب الله تخرج عيسى بن مريم من هذا الطلب، ثم إصرار الحواريين على رجائهم ﴿ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ .

وأمام إلحاح الحواريين لم يَسْعَ عيسى بن مريم إلا أن يسأل ربه إنزال المائدة ﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوْلَادِنَا وَعَآخِرِنَا وَعَآيَةً مِنْكَ، وَارزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ فاستجاب الله دعاء رسوله عيسى بن مريم ﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ ولكن الحق سبحانه وتعالى حذر من الكفر بعد ذلك، وأنذر من كفر بعد نزول المائدة بعذاب لا مثيل له ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ .

وبعد الانتهاء من تعداد النعم التي أنعم الله بها على عيسى ابن مريم ينتقل كتاب الله إلى محور الموضوع، وهو وصف الاستجواب الإلهي لعيسى بن مريم أمام مجمع الرسل يوم القيامة، ووصف جواب عيسى لربه عن نفس السؤال، ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى

ابن مريم ءآنت قُلتَ لِلنَّاسِ ائْتَحِدُونِي وَأَمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿١﴾
 فأجاب عيسى ربه منزهاً مقام الربوبية، ومبثراً من أتباعه المحرفين المغالين
 ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ، إِنْ كُنْتُ
 قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ، تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ، إِنَّكَ
 أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ، مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ
 رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾.

ثم يتفصى عيسى بن مريم أمام الحق سبحانه وتعالى من كل
 مسؤولية يمكن إلقاؤها عليه، من جراء ادعاءات المسيحيين الغلاة
 الذين أهوه من بعده، مؤكداً أنه لم يعلم من حال المسيحيين إلا ما
 شاهده عياناً وهو لا يزال بين أظهرهم. أما بعد أن توفاه الله ورفع
 إليه فإنه لم يعد يعرف عنهم شيئاً. نعم بقيت رقابة الله عليهم
 مبسوطه، فهو الذي يعلم حقيقة أحوالهم، وهو سبحانه الشهيد على
 جميع عبادته وعلى كل شيء من أعمالهم، ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا
 دُمْتُ فِيهِمْ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ
 شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

وأخيراً سجل كتاب الله إذعان عيسى بن مريم لمشية الله
 إذعاناً كلياً، ورضاه بحكمه الفاصل في شأن الأباطيل والضلالات
 التي روجها المسيحيون واعتقدوها من بعده، ولم يتجرأ على الشفاعة
 الصريحة فيهم لعظم جرمهم، واقتصر على مخاطبة الحق سبحانه
 وتعالى بقوله: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ، وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ
 الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

وبعدما تحدث كتاب الله عن الاستعراض الإلهي لموكب

الرسول واستفسارهم عامة، واستفسار عيسى بن مريم خاصة، عقب على ذلك بما يعتبر خلاصة الموقف والحكم النهائي، قائلاً: ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ، لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ، لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ومعنى ذلك أن يوم القيامة يوم مجموع له الناس، تجمع فيه كافة الخلائق، وتتكشف فيه كل الحقائق، فلا مكان فيه للتدجيل والتضليل، ولا مجال فيه للتزييف والتحريف، والفوز فيه إنما هو لمن صدق الله، والتزم طاعته ورضاه.

ومن هنا ننتقل إلى (سورة الأنعام) وهي في طبيعة سور القرآن الكريم التي نزلت بمكة قبل الهجرة، بل إن ما نزل من القرآن بمكة متأخراً عنها يعتبر مبنياً عليها في نظر المحققين من علماء الشريعة، نظير (سورة البقرة) التي يعتبر ما نزل من القرآن الكريم بالمدينة بعدها مبنياً عليها أيضاً.

وكما أن «سورة البقرة» هي الركيزة الأولى للشريعة الإسلامية، فإن «سورة الأنعام» هي الركيزة الأولى للعقيدة الإسلامية، ومنها استخرج العلماء قواعد التوحيد وأصول الدين، على حد ما قاله الشاطبي في «الموافقات».

وقد أطلق عليها اسم سورة (الأنعام) والله أعلم، لما ورد فيها من الآيات الكريمة التي تحدد موقف الإسلام من الأنعام، وتندد بموقف الشرك والمشركين منها، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا

لِشُرَكَائِنَا، فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ، وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ
يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١﴾ ومثل قوله تعالى: ﴿وَأَنْعَمَ
حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا، وَأَنْعَمَ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا، افْتِرَاءً عَلَيْهِ،
سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢﴾ ومثل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَمِ
حَمُولَةٌ وَفَرَشَاءُ، كُلُوا بِمَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ، وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ،
إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٣﴾.

وقد تناول كتاب الله في الثُّمَنِ الأول من سورة الأنعام - وهو
الذي يدخل في حصة اليوم - توضيح العقيدة الإسلامية فيما يخص
الكون والمكُون، والخلق والخالق، ﴿وَهُوَ اللَّهُ، فِي السَّمَوَاتِ وَفِي
الْأَرْضِ، يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿١﴾ كما تناول
الحديث فيه موقف المشركين والكافرين من عقيدة التوحيد،
وإصرارهم على الإعراض عنها والتكذيب بها ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ
مَنْ آيَتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٢﴾. ووصف كتاب الله في
هذا السياق أنواع العناد وأساليب الجدل التي لجأ إليها خصوم
العقيدة الإسلامية ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ
بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٣﴾ وأخيراً أكد
الحق سبحانه وتعالى ما ينتظرهم في النهاية من الوقوف بين يديه،
وما ينالهم من خسران ووبار ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ
فِيهِ، الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾.

الربع الأخير من الحزب الثالث عشر في المصحف الكريم

﴿١٧﴾ وَلَهُ

مَا سَكَنَ فِي الْيَلِّ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغْنَىٰ
 اللَّهُ أَمْتًا وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُهُ وَلَا
 يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ
 مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ
 يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ
 الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ
 إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾
 وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾
 قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ
 إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْنَكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنْ
 مَعَ اللَّهِ إِلَهٌ آخَرٌ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي

بِرَبِّهِمْ وَمِمَّا تَشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ
 أَبْنَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ
 مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾
 وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاءُ الَّذِينَ كُنتُمْ
 تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا
 مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
 يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً
 أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا
 حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ
 الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَهْمُونَ عَنْهُ وَيَنْنَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا
 أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا
 يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نَكَذَّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾
 بَلْ بَدَأَهُمَ مَا كَانُوا يَخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ
 وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ
 بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أليسَ هَذَا
 بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً
 قَالُوا بِمَحْسَرَتِنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ
 ظُهُورِهِمْ وَأَلْسَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ
 وَهْوٌ وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٧﴾ قَدْ
 نَعَلِمُ إِنَّهُ لِيُخْرِجَنَّكَ الذِّمَّةَ يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ
 الظَّالِمِينَ بَيَّاتِ اللَّهُ بِمُحَمَّدٍ ﴿٣٨﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ
 قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنبَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا
 مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٩﴾
 وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ بِسْطَطْتَ أَنْ
 تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سَلْمًا فِي السَّمَاءِ فَنَأْنِيهِمْ
 بِأَيِّهِمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٠﴾

الربع الأخير من الحزب الثالث عشر في المصحف الكريم

عباد الله

في حديث هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب الثالث عشر في المصحف الكريم، ويبتدىء هذا الربع بقوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وينتهي بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

في أول آية من هذا الربع يثبت الله عبودية المخلوقات كلها للإله الواحد الأحد، فله ما سكن وله ما تحرك في الليل والنهار، من كافة العوالم وجميع الأفلاك، ما علا منها وما سفل، وما نطق وما لم ينطق ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ السميع لديب أضعف الجرائم والحشرات، والعليم بأخفى الخفائيا من الهواجس والخطرات.

وفي ثاني آية منه يلقن كتاب الله للرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام ما يفحم به المشركين المعاندين، فيتساءل في لهجة الاستنكار والاستغراب كيف يتخذ الإنسان له ولياً غير الله، وكيف يستنصر بمن سواه، والله هو مبدع السماوات والأرض، الذي يرزق

الخلق ويطعمهم، وهو مع ذلك وفوق ذلك غني عنهم جميعاً، ثم يعلن إلى رسوله الأمين بشرى البشائر، بأنه المرشح الوحيد، لأن يكون المسلم الأول، وهو الرائد والقائد لقافلة المسلمين ﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَخْذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ، قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾.

وفي ثالث آية منه يضرب رسول الله المثل لغيره من المؤمنين، حيث يعبر عما يمتلىء به قلبه من الخوف الشديد من معصية الله، وما يرجوه بطاعته من رحمته ورضاه، وإذا كان الرسول - وهو من هو في القرب من ربه - متقلباً بين الخوف والرجاء، فما بالك بمن ينتسبون إلى الإسلام من العصاة الألداء، ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ، مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَجِمَهُ، وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُئِينُ﴾.

وفي رابع آية منه يقرر كتاب الله مبدأً جوهرياً في الإسلام، ألا وهو أن العبد في قبضة الله وبين يديه، بحيث لا يملك غيره له نفعاً ولا ضرراً، فلا يناله من الحظوظ - بعد اتخاذ الأسباب العادية - إلا ما سبق إليه قلم القدرة الإلهية، وقضت به الحكمة الربانية، ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ، وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾.

ثم ينتقل كتاب الله إلى مجادلة المشركين وتحديهم، حثاً لهم على الإيمان بالقرآن وبمنزّل القرآن، فيسألهم هل هناك شاهد يشهد

بالحق وينطق بالصدق، أكبر وأحق من الحق سبحانه وتعالى الذي هو خير الشاهدين؟

ولا شك أن مجرد الفكر السليم والفضيلة التي فطر الله الناس عليها يدفعان بالإنسان، مهما بلغ من الجحود والعناد، إلى الاعتراف والافتناع بأن شهادة الخالق هي فوق شهادة كل مخلوق كيفما كان ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ، شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَأَوْحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ بعد قوله ﴿لِأُنذِرْكُمْ بِهِ﴾ معناه أن القرآن الذي أوحى الله به إلى رسوله لم ينزل لإنذار المشركين وحدهم، ثم تنتهي مهمته ويصبح بعد ذلك مهجوراً، بل إنه نزل لإنذار مشركي العرب وكافة المشركين، ولإنذار الأولين والآخرين، السابقين واللاحقين، فهو نذير لكل من بلغه من الناس إلى يوم الدين. قال محمد بن كعب: «من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي ﷺ وكلمه». وروى قتادة في قوله تعالى: ﴿لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ أن رسول الله ﷺ قال: «بلغوا عن الله، فمن بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله».

وانتقل كتاب الله بعد ذلك إلى ما أعلنه أهل الكتاب من تجاهل للقرآن وتظاهر بإنكاره، بالرغم من أنهم يعرفون حقيقته معرفة اليقين دون الشك، فقد نقلت إليهم بشارات الأنبياء والرسل السابقين أخبار ظهور خاتم الأنبياء والمرسلين، وأخبار نزول خاتم الكتب المنزلة. وبذلك صح القول فيهم بأنهم يعرفونه كما يعرفون

أبناءهم، وذلك مضرب المثل في المعرفة، فالآباء لا يجهلون صور
 أبنائهم الذين يعايشونهم، ولا يغيب عنهم شيء من ملاحظهم
 وطباعهم، بل يعرفون أمرهم دون تردد ولا توقف، لكن ما استولى
 على «أهل الكتاب» من روح التعصب، وما سيطر عليهم من
 الأهواء والأغراض، وما أصابهم من الخيبة بانتقال الرسالة منهم إلى
 العرب من ذرية إسماعيل، أعمى أعينهم عن رؤية النور، فلم
 يهتدوا سبيلاً، ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ
 أَبْنَاءَهُمْ، الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ
 يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ، وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا،
 وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا ءَايَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا، حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ
 الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

ثم يصف كتاب الله حال خصوم الإسلام، وما يضعونه في
 طريق انتشار دعوته من العراقيل والمعوقات، فهم لا ينتفعون
 بالدعوة الإسلامية في أنفسهم، وهم لا يتركون غيرهم يقبل عليها
 وينتفع بها، بل إنهم ليصدون الناس عنها صدأً ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ
 وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ الأمر الذي لا يتفق ولا ينسجم مع ادعائهم أن دعوة
 الإسلام مجرد أسطورة من الأساطير، فالأسطورة المختلقة والقصة
 المكذوبة خير للناس أن يسمعوها ويقفوا على ما فيها من اختلاق
 وكذب، يُعرضوا عنها إلى الأبد. أما أن يقول خصوم الإسلام: إن
 الإسلام أسطورة، ثم يتخذوا جميع الوسائل لضرب الحصار من
 حوله، ومنع الناس وإلهائهم عن سماع دعوته، فذلك دليل ضمني
 على أن دعوة الإسلام حق وصدق، وأنها تدخل الأذان من غير

استيدان، فتستولي على المشاعر والقلوب.

ويعقب كتاب الله على ما يضعه خصوم الدعوة الإسلامية من معوقات في طريقها، مبيناً أن الخسارة كل الخسارة والهلاك كل الهلاك إنما هو لمن وقف في وجه دعوة الإسلام، فلم ينتفع بهدايتها، ولم يستر بنورها، وإلا فالإسلام غني عنه ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ - ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيُؤْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾.

وما دام الحديث جارياً عن كفر الكافرين، وتكذيب المشركين، وتعويق المعوقين، وعناد المعاندين، فإن السياق مناسب كل المناسبة لتسليّة الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام، ولتثبيت فؤاده على الحق، ولمواساته على ما يصيبه من أذى بالغ في سبيل الله، وهكذا يتجه الخطاب الإلهي إلى الرسول مباشرة فيقول ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزِنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ، فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ، وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ ويقول ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

وهكذا يكشف الحق سبحانه وتعالى عن حقيقة كبرى، ألا وهي أن خصوم الرسالة المحمدية لا يعتقدون أن الرسول كاذب غير صادق، ولا يعتقدون أن الرسالة كذب لا حق، بل إنهم ليؤمنون بصدق الرسالة وصدق الرسول في قرارة نفوسهم، ولكنهم يتظاهرون بتكذيبه وتكذيبها جحوداً وعناداً ﴿حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾.

ويتحدث كتاب الله في سياق المواساة لرسوله عما لحق الرسل من قبله في سبيل الرسالات التي أرسلوا بها من العنت والأذى، وما انتهى إليه أمر الله معهم من نصر مؤزر وفتح مبين، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَيْهِمْ نَصْرُنَا، وَلَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ، وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ﴾.

الربع الأول من الحزب الرابع عشر في المصحف الكريم

إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ
 يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ
 اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾
 وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٍ بِمِجَاحِيهِ إِلَّا أُمَّةٌ
 أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾
 وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ
 يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ
 إِنْ أَنَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَنتُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ
 كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلِ آيَاتُهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ
 إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ
 مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَنْضَرَعُونَ ﴿٤٢﴾

فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ
 وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَمَّا
 نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ
 إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٣﴾
 فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾
 قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ
 مَنِ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ إِنَّظِرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ
 يَصْدِفُونَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ آتَيْنَاكُمْ عَذَابَ اللَّهِ بَغْتَةً
 أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ
 إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ أَمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
 وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ
 بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي
 خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ
 إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوجَىٰ إِلَىٰ قُلُوبِهِمْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ
 أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ
 رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥٠﴾

وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ
 وَجْهَهُ وَمَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ
 عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾
 وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَن
 اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَن بَنِينَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٨﴾
 وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ
 كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ وَمَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا
 بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٩﴾
 وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٠﴾
 قُلِ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ
 لَأَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٦١﴾
 قُلِ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي
 مَا تَسْتَعْمِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ
 الْفَاصِلِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْمِلُونَ بِهِ لَقَضِيَ
 الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾

الربع الأول من الحزب الرابع عشر في المصحف الكريم

عباد الله

حصّة هذا اليوم تستوعب الربع الأول من الحزب الرابع عشر في المصحف الكريم، والآية الأولى منه هي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ، وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ، ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ والآية الأخيرة من هذا الربع قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾.

يبتدىء هذا الربع بتقرير حقيقة نفسية ثابتة، ألا وهي أنّ السبيل إلى تلقي الدعوة والاستجابة لها هو تفتح العقل لإدراك ما يُعرَض عليه واستيعابه، وتفتح الحواس للاحساس بما تتلقاه من المحسوسات والمشاهدات واستيعابها، فإذا تعطلت ملكة العقل في أي إنسان عن وظيفتها الأساسية، وإذا تعطلت الحواس الظاهرة والباطنة عن نشاطها العادي، لم يبقَ لدى الإنسان أية وسيلة أخرى للإدراك ولا للاحساس، وبالتالي يتعذر عليه أن يتلقى الدعوة ويتفهمها، فضلاً عن أن يستجيب لها ويتجاوب معها، فقد تعطل فكره وتعطلت حواسه، وهو بمنزلة من مات موتاً حقيقياً، وإن كان لا يزال معدوداً بين الأحياء حياة ظاهرة.

وإذن فأمام الدعوة الإسلامية صنفان من الناس: أحياء لا يزالون يتمتعون بملكاتهم وحواسهم، وعندهم استعداد للفهم والتفاهم، وهؤلاء معقد الأمل والرجاء في نصر الدعوة الإسلامية، ﴿لَيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ وهناك أموات أحاطت بهم الضلالات والأوهام من كل جانب، فدمرت فيهم جميع الملكات، وعطلت في أنفسهم جميع الطاقات، وضربت من حولهم حصاراً تاماً لا يبقى معه أي منفذ تصل إليهم عن طريقه هذه الدعوة، ولا أية نافذة يطلُّون منها على حقيقة الكون والمكون، وهؤلاء وإن كانوا لا يزالون في الدنيا فهم موتى معنوياً وروحياً، وسيظلون على موتهم المعنوي هذا إلى أن تتم موتتهم الجسمية الأولى، ولن يبعثوا من موتهم المعنوي ثم موتهم الجسدي إلا يوم يحل موعد البعث والنشر والحشر يوم القيامة، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أي الذين لا تزال ملكاتهم غير معطلة ﴿وَالْمُوتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ أي أن الذين تعطلت ملكاتهم لا يستجيبون للرسول، فهم موتى، والميت لا يجيب إلا عندما يبعث ويحشر أمام الله ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

ويواصل كتاب الله في هذه السورة عرض شبهات المشركين في سياق الحكاية عنهم بلفظ (قالوا) أي قال المشركون لرسول الله .

ثم يعرض بعد ذلك حقائق الإيمان التي يتلقاها الرسول عن ربه، ليبطل شبهات المشركين، مسبوقه بكلمة (قل) أي قل لهم يا محمد.

وها هنا يحكي كتاب الله ما يطالب به المشركون رسول

الله ﷻ من تنزيل الآيات عليهم، وهم يقصدون بذلك أن يأتيهم الرسول بخوارق العادات والمعجزات المادية، بدلاً من آيات الوحي المبين، إذ أن كثيراً منهم بلغوا من التحجر والتبلد والانحطاط الفكري ما جعلهم لا يكتفون بآيات الوحي المبين، التي تقنع العقول وتلج الصدور، فيجيبهم رسول الله ﷻ بأن الله قادر على أن يأتيهم بالخوارق والمعجزات المادية، كما أتى بها للأمم السالفة من قبل، إلا أن المنهاج الجديد الذي جاءت به الدعوة الإسلامية - وهي خاتمة الرسالات إلى الناس كافة - هو عرض الحقائق الإيمانية على الإنسانية جمعاء، وحث الإنسان أينما كان على تفهم هذه الحقائق، ومعرفة صدقها وأحقيتها عن طريق التفكير فيها، والنظر في دلائلها، والمقارنة بينها وبين بقية العقائد، فقد مضى العهد الذي كان فيه البشر لا يزالون أطفالاً أو أشباه أطفال، لا تقنعهم إلا المعجزات المادية وخوارق العادات التقليدية، وها قد أقبل مع ظهور الإسلام عهد جديد للبشرية، هو عهد إعدادها للنضج، وتهيتها للرشد، والأخذ بيدها في سبيل هدايتها إلى الحق، عن طريق الانتفاع بنفس الطاقات الكامنة فيها، وتسخير العقل والقلب والضمير والحواس الظاهرة والباطنة لإدراك حقائق الإيمان، إدراكاً منبثقاً من أعماق الإنسان، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى حكاية عن المشركين ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ وقوله تعالى في رد الرسول على طلبهم ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً ﴾ . ثم يأتي التعقيب بقوله تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

ويأخذ كتاب الله في التنبيه على بعض الحقائق الكونية التي

تساعد الإنسان على الوصول بنفسه إلى إدراك عقيدة التوحيد الأساسية، متى أحسن التأمل فيها، واستخلص العبرة منها.

- الحقيقة الأولى - أنه ما من جنس جنس، ونوع نوع، وصنف صنف من أجناس الأحياء وأنواعها وأصنافها إلا وله من الخصائص والصفات المشتركة، والنواميس الثابتة لسائر أطوار حياته ما يجعله «أمة واحدة» مشابهة لما في النوع الإنساني نفسه، من أمم مختلفة الألسنة ومختلفة الألوان. ولا تَقَلُّ حكمة الله في بقية خلقه، وعنايته بتدبير أمره، عن عنايته بالإنسان وتدبيره لأمره، وحكمته في خلقه.

- الحقيقة الثانية - أن كل ما خلق الله من عوالم الأحياء على تعدد أجناسها، وتنوع أنواعها، واختلاف أصنافها، هو في نهاية الأمر كما في بدايته شيء واحد متمائل، ونظام واحد متكامل، لأنه انبثق عن خالق واحد نفخ فيه الروح، له الخلق والأمر، وهو الحي القيوم.

- الحقيقة الثالثة - أن الحق سبحانه وتعالى الذي انفرد بخلق كل شيء قد انفرد أيضاً بتدبير كل شيء، فما من شيء صغر أو كبر، جلّ أو حقّر، إلا وهو محل العناية الإلهية، بحيث لا يلحقه أدنى تفريط ولا إهمال ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾. وما من جزء من أجزاء الكون إلا وهو يسير إلى مصيره المحتوم، وفق تدبير محكم ونظام مرسوم، لا يتخلف عنه قلامة ظفر، فمشيئة الله هي القانون الحتمي الأول، وتدبير الله هو القانون الحتمي الأخير.

وبديهي أن إدراك هذه الحقائق الثلاث كافٍ لأن يجعل من له أدنى مسكة من العقل، وأقل حظ من التفكير، وأبسط نصيب من الملاحظة، مؤمناً بالله من أعماق قلبه حق الإيمان، بعيداً كل البعد عن الشرك بالله وعبادة الأصنام والأوثان، ولا يصعب عليه أن يستخلص هذه الحقائق جميعاً من قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ، مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ يمكن أن يحمل على أنه وارد في سياق ما سبق من قوله تعالى: ﴿ وَالْمَوْقِ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ﴾ . وقوله تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فيكون مرده كسابقه إلى الأحياء بأجسامهم، الموق بقلوبهم، وهم المشركون الذين لا يستيقظون من سباتهم العميق إلا على أهوال النشر والحشر.

ويمكن أن يعود الضمير فيه إلى أقرب مذكور، ويحمل على معنى أن الأحياء من غير الإنسان ستحشر أيضاً كما يحشر الإنسان، على حد قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ وكلا المعنيين صحيح لغة وشرعاً.

الربع الثاني من الحزب الرابع عشر في المصحف الكريم

وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي
 الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي
 ظِلْمَةٍ إِلَّا رِضٌ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾
 وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ
 يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا
 كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ
 حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ
 لَا يُفْرِطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ
 أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَنْ يُنْحِكُمْ مِنَ ظَلْمِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
 لَدَّعُونَهُ وَتَضَرَّعًا وَخُفْيَةً لِّئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ
 الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنْحِكُمْ مَنَّا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾

قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ
 أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ
 كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمَكَ
 وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ
 تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيءِ آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ
 عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ
 الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾
 وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ
 ذِكْرِي لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ
 لَعِبًا وَلَهْوًا وَعَزَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرِ بِهِمْ أَن
 تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ
 وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلٌّ لِّعَدَلٍ لَّا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ
 الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ
 أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا
 لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا
 اللَّهُ كَالَّذِينَ اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ

أَصْحَبُ يَدْعُونَهُ وَإِلَى الْهُدَى آيَتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ
 الْهُدَى وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا
 الصَّلَاةَ وَاتَّقُوا وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ
 الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ
 كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي
 الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾
 وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَرْتَنِي أَصْنَامًا - إِلَهَةً
 إِنِّي أَبْرِيكَ وَقَوْمِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نُرِي
 إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ
 الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكُوكَبَاتِ قَالَ هَذَا
 رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْإِفْلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ
 بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي
 لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ
 هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ
 مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلذِّمَّةِ فَطَرْتُ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾

الربع الثاني من الحزب الرابع عشر في المصحف الكريم

عباد الله

في حديث هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب الرابع عشر في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ﴾ ونهايته قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

في أول آية من هذا الربع يتحدث كتاب الله عن «مَفَاتِحِ الْغَيْبِ» التي انفرد بعلمها الحق سبحانه وتعالى دون خلقه ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ والحديث عنها وارد في سياق الآيات التي مرت في الربع الماضي تعلن براءة الرسول عليه الصلاة والسلام من ادعاء العلم بالغيب، وتعرّف المشركين بأن النبوة والرسالة ليست نوعاً من أنواع الكهانة التي اعتادوها فيما بينهم، والتي قامت في أساسها على التضليل والتزييف وادعاء العلم بما كان وما سيكون ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ - ﴿قُلْ لَوْ أَن عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِي الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ - ﴿قُلْ لَأَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ، إِنِ اتَّبَعُوا إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾.

وقوله تعالى هنا: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ أصل من أصول العقائد الإسلامية، وركن من أركان الدين، كما قال القاضي أبو بكر (ابن العربي) المعافري.

و«الغيب» ما خفي أمره على العقول، ولم ينكشف كنهه للحواس، وحجبه الله عن البصائر والأبصار، وكما أن للبصر حداً لا يتجاوزه فكذلك للبصيرة حد لا تتعداه، و«مفتاح الغيب» ما يتوصل به إلى علم الغيب، وقد وقعت الإشارة إلى أمهات الغيب بكل وضوح في قوله تعالى في سورة لقمان: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ، وَيُنزِّلُ الْغَيْثَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

وجاء في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله» ثم تلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ إلى آخر الآية.

و«أم الغيب» الكبرى، على حد تعبير ابن العربي المعافري هي الساعة وما تضمنت من النشر والحشر والموقف والحساب، وما يؤول إليه أمر الخلق من العقاب والثواب، فلا أمانة على الساعة ولا علامة عليها إلا ما أخبر به الصادق المصدوق عن ربه من «أشراط الساعة وأماراتها» ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾.

و«أم الغيب الثانية» تنزيل الغيث، وما يترتب عليه من الأحياء والانبات، وما يسبقه من إنشاء الرياح وتسييرها، وتأليف

السحب وإلقاحها، وتوزيع قطراتها على بقاع الأرض ومن فيها. ﴿وَيُنزِّلُ الْغَيْثَ﴾ فهذه لا أمانة عليها ثابتة، ولا علامة قاطعة.

و«أم الغيب الثالثة» ما تنطوي عليه الأرحام، وما يجري تدبيره فيها بأمر الله من خلق النطفة وتدريبها في أطوار الخلقة طوراً بعد طور، حتى تستوي ذكراً أو أنثى، فرادى أو توائم، فهذه لا أمانة عليها، ولا علامة تهدي إليها مهما ادعى المدعون وتنبأ المتنبئون ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾.

و«أم الغيب الرابعة» ما أخفاه الله عن خلقه من كسب الغد المجهول بما فيه من عمل ورزق، و«الغد» هنا يصدق على الغد القريب والغد البعيد، فكم من غني ظن أنه تحصن بغناه من تقلبات الدهر، فافتقر إلى ما عند الناس، وكم من فقير ظن أنه لن يخرج من عالم البؤساء فأغناه الله وأعطاه، وكم من قوي معتر بقوته أصبح منهار الأعصاب مهدود القوى، وكم من ضعيف بات خائر العزيمة فاتر الهمة، فآتاه الله من حوله حولاً ومن قوته قوة، وهذا الأمر مغيب عن الإنسان بالرغم من حرصه الشديد على معرفة كل شيء يتعلق بعمله وكسبه ووسائل عيشه، وما يرتبط بذلك من سرور أو غم، وهلاك أو نجاة، وربح أو خسارة، وتوفيق أو خذلان، فكائنات الغد كلها تحت حجاب الله، ولا يعلم حقيقة أمرها سواه ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾.

و«أم الغيب الخامسة» ما أخفاه الله عن خلقه من عاقبة كل إنسان، إذ رب العزة وحده، هو الذي انفرد بعلم هذه العاقبة،

كيف تكون، ومتى تكون، وأين تكون، فلا أحد من الناس يعرف، لا بالضبط ولا بالتقريب أين يقبض الله روحه، هل سيموت ويدفن في المشرق أم في المغرب، هل سيموت في البر أم في البحر، أم في الجو، ولا أحد من الناس يعرف، لا بالضبط ولا بالتقريب، متى يَجَلُّ أجله، هل في هذا اليوم، أو في هذا الشهر، أو في هذا العام، أم في غيره من الأيام والشهور والأعوام. ولا أحد من الناس يعرف، لا بالضبط ولا بالتقريب، كيف يُخْتَم له عند الموت، هل يختم له بالخاتمة الحسنى أم بغيرها، وهل إذا كان مطيعاً سيختم عليه بنفس الطاعة والإيمان، أم أنه سيختم عليه - والعياذ بالله - بالكفر والعصيان، فلا أمانة ولا علامة في هذا الميدان، تهديء روع الإنسان أياً كان ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ .

فهذه مقامات الغيب وأمهاته الخمس التي استأثر الله بعلمها، ولم يجعل في طاقة المخلوق سبيلاً محققاً وقاطعاً للوصول إليها، بل خبأها تحت أستار الأقدار، لحكمته الباهرة، وقدرته الظاهرة ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظِلَّعَكُم عَلَى الْغَيْبِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ .

قال القاضي أبو بكر (ابن العربي) في كتابه (أحكام القرآن): «عند الله تعالى علم الغيب، ويده الطرق الموصلة إليه، ولا يكون ذلك من افاضته إلا على رسله، بدليل قوله سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظِلَّعَكُم عَلَى الْغَيْبِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ فكل من قال: إنه ينزل الغيث غداً - أي على جهة اليقين، لا مجرد

الاحتمال - فهو كافر. ومن قال: إنه يعلم ما في الأرحام وادعى ذلك واجباً في الخلقة فهو كافر. ومن ادعى علم ما يكسبه الإنسان في مستقبل العمر فهو كافر».

وهكذا كل ما فيه تظاهر بادعاء معرفة الغيب عن بيّنة ويقين، وتطاول على هتك حجبه وأستاره دون كتاب مبين.

وتمضي الآيات الكريمة في هذا الربع تلفت نظر الإنسان إلى عجائب البر والبحر، وما احتوى عليه كلُّ منهما من العوالم والآفاق، ما ظهر منها وما بطن، ما عرف منها وما لم يعرف.

كما تلفت نظره إلى عالم النبات وما يتعاوره من موت وإحياء، ونماء وفناء، وإلى البذور التي تنمو تحت الأرض في الظلمات، كما تنمو الأجنة في بطون الأمهات، منبهة إلى أن ذلك كله - على سعته وتنوعه - من مشمولات علم الله الذي أحاط بكل شيء علماً، وسجله في كتاب تخطيطه الأزلي اسماً ومسمى ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ، وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ﴾ أي يعلم ما اكتسبته جوارحكم ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ، وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً، حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ أي توفته الملائكة الموكلون بذلك ﴿ وَهُمْ لَا يُفْرطُونَ ﴾ أي ينزلون الأرواح في منازلها بأمر الله، فأرواح الأبرار في عليين، وأرواح الفجار في سجين ﴿ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلِيَهُمْ الْحَقُّ ﴾ أي ردوا إلى مولاهم الحقيقي الذي

يدينون له بنعمة الإيجاد وبنعمة الامداد، إذ أنشأهم من عدم، ونفخ فيهم من روحه كيف شاء، ثم قبض روحهم إليه متى شاء ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ، وَهُوَ أَسْرَعُ الْحُسْبِينِ﴾ فلا تعويق أمام الله ولا ممانعة ولا إبطاء، في اجراء المحاسبة وإصدار الحكم وإعلان الجزاء.

ثم يحذر كتاب الله الغافلين المتجاهلين لحكمه وحكمته، المتمردين على دينه وشريعته، بأنه قادر على أن يؤدبهم بسوط عذابه فجأة، ومن حيث لا ينتظرون.

فهذا «العذاب التأديبي» من الله لن يأتيهم من اليمين أو الشمال، حتى يُعدّوا له عدته، ويأخذوا له أهبتة، وإنما ينقضُّ عليهم كالصاعقة من فوق رؤوسهم، بحيث لا يستطيعون له قمعاً، أو ينفجر كالبركان من تحت أرجلهم بحيث لا يستطيعون له دفعاً، وإذا لم يأتيهم العذاب لا من فوقهم ولا من تحتهم، فإنه يأتيهم من بينهم، فيذوق بعضهم العذاب من نفس البعض الآخر وعلى أيديهم، وذلك هو عذاب الاختلاف والفرقة إلى شيع متعادية متباغضة، وأحزاب متخالفة متعارضة، يحارب بعضها بعضاً، ويفتن بعضها بعضاً، ويأكل بعضها بعضاً، إلى أن يُفني بعضها بعضاً.

وهذا التحذير الإلهي الخطير هو الذي يتضمنه بإيجاز وإعجاز قوله تعالى في هذا الربع ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾.

ومما جاء في نفس المعنى قوله تعالى في سورة الملك: ﴿عَامِنْتُمْ﴾

مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُخَسِّفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورٌ، أَمْ أَمِتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا، فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ ﴿١٣٣﴾ .

وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ ما يفيد أنه هو العذاب الذي يصيب صغار الناس على يد كبارهم، وفي تفسير قوله تعالى: ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ ما يفيد أنه هو العذاب الذي يصيب كبار الناس على يد صغارهم، ولم ينكر ابن جرير الطبري بعدما نقل هذا القول أن له وجهاً صحيحاً، إذ لا شك أن هذا نوع من العذاب الأليم الذي تبلى به الأمم، كلما انحرفت عن سبيل الله، ولا يرفع عنها إلا بالعودة إلى حدود الله: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ .

الربع الثالث من الحزب الرابع عشر
في المصحف الكريم

وَحَاجَّهُ وَقَوْمَهُ ۖ

قَالَ أَتُحْجُونَ فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدِينَا وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ
بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا
تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨١﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ
أَنْكُمْ وَأَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا
فَأَيُّ الْقَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٢﴾
الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ
الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ
عَلَى قَوْمِهِ تَرَفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ
عَلِيمٌ ﴿٨٤﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا
هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ
وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾

وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَىٰ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾
 وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى
 الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنَ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ
 وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِيهِ
 بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۗ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ
 فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا
 بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَبِهَدْيِهِمْ اِقْتَدِهْ قُلْ
 لَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾
 وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن
 شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى
 لِّلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبَدُّونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا وَعَلَّمْتُم
 مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ قُلْ إِنَّ اللَّهَ شَمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ
 يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ
 يَدَيْهِ وَلِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
 يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَن أَظْلَمُ مِمَّن

إِفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ
 قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ
 الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ وَأَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ
 تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ
 وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى
 كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ
 وَمَا نَبْرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ
 لَقَدْ نَقَطَعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿١٨﴾

الربع الثالث من الحزب الرابع عشر في المصحف الكريم

عباد الله

نتناول في حصة هذا اليوم الربع الثالث من الحزب الرابع عشر في المصحف الكريم، وأول آية منه قوله تعالى: ﴿وَحَاجُّهُ قَوْمُهُ، قَالَ أَتُحْجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَيْتَنِي، وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يُشَاءَ رَبِّي شَيْئًا، وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا، أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ وآخر آية فيه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ، وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ، لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

تناولت الآيات الكريمة الواردة في آخر الربع الماضي قصة إبراهيم الخليل عليه السلام وكيف هداه الله عن طريق الفطرة السليمة التي فطره عليها إلى الدلائل القاطعة على عقيدة الوحدانية، وبطلان الشرك والوثنية، وكيف أخذ يندد في قرارة نفسه بمعبودات قومه واحداً بعد الآخر، وكيف وجَّه وجهه للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾.

وفي بداية هذا الربع تشير الآيات الكريمة إلى المرحلة التالية التي تبعت تلك المرحلة الأولى، فمن مرحلة التفكير والتأمل والنظر المجرد، التي تحدثت عنها الآيات السابقة، ينتقل إبراهيم الخليل إلى مرحلة المناظرة والمجادلة عن الحق، فيما بينه وبين قومه، وهذه المرحلة هي موضوع الآيات الأولى من ربعا اليوم ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ، قَالَ أَتُنْحَبُونَ فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدِينِ﴾.

ونظراً لما أكرم الله به إبراهيم الخليل، إذ جعله ﴿مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ لا من الشاكين ولا من المترددين، فإن جوابه لقومه كان يحمل كل معاني الاستغراب من موقفهم، وكل علامات الرفض لدعاويهم، وهذا ما يفسر قوله الصادر عن إيمان كامل، واطمئنان تام ﴿أَتُنْحَبُونَ فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدِينِ﴾ فهل من العقل السليم أن يهتدي الإنسان، ثم يترك الهدى لينغمس في الضلال؟

وتمضي الآيات الكريمة في نفس السياق، لتشير إلى أن قوم إبراهيم أخذوا يخوفونه من غضب معبوداتهم ومن انتقامها، على غرار ما قالته عاد لنبيها هود ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرِكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ فما كان من إبراهيم الخليل إلا أن أعلن بلهجة المومن بربه، الواثق بحمايته من أذى الشيطان وحزبه، أنه لا يخاف معبوداتهم في قليل ولا كثير، لأن معبوداتهم لا تضر ولا تنفع، ولا تعي ولا تسمع، ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ على غرار ما قاله هود لقومه عاد ﴿فَكَيْدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾، وإنما يخاف إبراهيم ربه وحده دون سواه، فهو الذي لا يفلت من قبضته شيء، ولا

يغيب عن علمه شيء ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا، وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ .

ثم يوجه إبراهيم الخليل إلى قومه سؤالاً يفحمهم ولا يجدون عنه أي جواب مقنع ، إذ يتساءل أمامهم من هو الذي يجدر به الخوف والفرع؟ هل الذي يعبد هذه المعبودات السخيفة ويشركها بالله، وهي مثال العجز والضعف والجهل، أم الذي يعبد الله فاطر السماوات والأرض، القادر على كل شيء والعالم بكل شيء، دون أن يشرك به شيئاً؟

من الذي يلزمه أن يخاف ويتردد؟ هل الذي لا يملك أدنى حجة يستند إليها في عبادة الأوثان والأصنام، أم الذي يملك كل الحجج على وحدانية الله الواحد الأحد، وألوهية الفرد الصمد؟
 ﴿وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَّهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ الْوَاحِدُ
 ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ، وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ
 مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ .

ويستخلص إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام نتيجة حوارهِ لقومه وإفحامه لهم متسائلاً: أي الفريقين أحق بالأمن وأيهما أحق بالخوف؟ هل الفريق الذي يستند إلى ركن الإيمان الركين، وحصن اليقين الحصين، أم الفريق الذي يستند إلى الفراغ، ويملاً قلبه وعقله بالفراغ؟ هل الفريق الذي يسير في وثام وانسجام مع تعاليم الله وأوامره المطابقة لنواميسه الثابتة في الكون، فلا يصطدم معها في شيء، أم الفريق الذي يتنكر لنواميس الكون وتعاليم المكوّن، فيصطدم في طريقه وسلوكه بكل شيء وفي كل لحظة، ويعيش في

حرب مستعرة تدور رحاها فيما بينه وبين نفسه، وفيما بينه وبين ربه؟ فهو في صراع لا يفتر، واضطراب لا يقف، وحيرة لا تنتهي ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

ويأتي الجواب المنطقي الصريح والوحيد، مضمناً في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ فمن آمن بالله إيماناً كاملاً، وأسلم وجهه لله اسلاماً تاماً، ولم يشرك بالله غيره، لا في عبادته، ولا في محبته، ولا في رجائه وخوفه، واستند إلى ركن الإيمان بالله الركين، وحصن اليقين في الله الحصين، تعهد الله له بالأمن والهداية في الدنيا والآخرة، وجعله من الأمنين المهتدين، ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ ومن أشرك بالله غيره في عبادة، أو محبة، أو رجاء أو خوف، أو تعلق بأي وجه من الوجوه، كان قلق النفس، مضطرب البال، ولم يزل طيلة حياته متعثراً الخطى، أسيراً للوساوس، غريقاً في الأحوال.

جاء في الحديث الصحيح عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «لما نزلت هذه الآية: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذوا يستفسرونه قائلين: «وأينا لم يظلم نفسه؟» إذ فهموا من كلمة (ظلم) مجرد ظلم النفس ولو بارتكاب الصغائر، فنبههم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن معنى هذه الآية يوخذ من آية أخرى تفسرها أحسن تفسير، وهي قوله تعالى في سورة لقمان: ﴿يَسْتَجِيبُ لَا تُشْرِكُ بِاللَّهِ، إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ وبذلك يكون معنى

﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ : أي لم يخلطوا إيمانهم بشرك.

وبعدما أفحم إبراهيم الخليل قومه وغلبهم في معرض الحجاج عن عقيدة التوحيد التي لا عقيدة تعدلها قوة وصحة، ووضوحاً وبساطة، عقب كتاب الله على ذلك بقوله ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

ويتولى كتاب الله وصف الحالة الأليمة التي يكون عليها المشركون وهم في غمرات الموت وسكراتها، من الاضطراب والحيرة والخيبة والذعر والفرع، وما يسلطه عليهم الملائكة الموكلون بهم من ألوان التعذيب ساعة الاحتضار، وما يطالبونهم به من القيام بإخراج أرواحهم بأنفسهم، بعد أن تأبى أرواحهم مفارقة أجسادهم من تلقاء نفسها، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمْرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾، نظير قوله تعالى في سورة محمد ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبُرَهُمْ وَكِرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ الآية.

ثم ينطق كتاب الله بتقريع المشركين الظالمين، وتوبيخهم على ما ارتكبه في حق الله بشركهم، من الظلم العظيم، مبيناً أن إهانة الله لهم هي خير جزاء يجازيهم به على تكبرهم، وذلك قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾.

وأخيراً يتوجه الخطاب الإلهي إليهم، مسجلاً عليهم أنهم رغماً

عما كانوا يعتمدون عليه من الشفعاء والأنصار، فقد عادوا إلى الله كما خلقهم أول مرة، عزلاً وفرادى دون مال ولا متاع، ولا أهل ولا أولاد، ولا نفوذ ولا جاه، ولا رفقاء ولا شفعاء، فلا شفيع معهم من أولئك الشفعاء المرموقين الذين زعموا أن لهم فيهم حظاً مع الله، وإذن فهم في منتهى الفقر، وفي منتهى العزلة، وفي منتهى الخيبة، موكلون ألى أنفسهم، قد انقطع بينهم وبين الناس كل حبل، وانفصمت كل رابطة تربطهم بالآخرين، وليست أمامهم إلا حقيقة الحقائق، وهم وحدهم في مواجهة الحق الأكبر الذي لا حق دونه، ولا حق فوقه، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ، وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَوَا، لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

الربع الأخير من الحزب الرابع عشر
في المصحف الكريم

إِنَّ اللَّهَ فَلَقَ الْحَبَّ وَالنَّبْوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ
 مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ فَأَبَىٰ تَوَفَّكُونَ ﴿١٥﴾ قَالَ لِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلُ
 اللَّيْلُ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ
 الْعَلِيمِ ﴿١٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي
 ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾
 وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ
 قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿١٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ
 السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا
 نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ
 وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ
 مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ

لَايَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَجَعَلُوا إِلَهَهُ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ
وَخَرَ قُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا
يَصِفُونَ ﴿١٢﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أُنَى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ
وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَحِيبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٣﴾
ذَ الْكُرُّ اللهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ
وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٤﴾ لَا تُدْرِكُهُ الْآبْصَارُ وَهُوَ
يُدْرِكُ الْآبْصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٥﴾ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ
مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ
بِحَفِيفٍ ﴿١٦﴾ وَكَذَلِكَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسَتْ
وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٨﴾ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكُوا
وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٩﴾
وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدُوًّا
بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ
فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ
أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ آيَةٌ لِيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ

عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لِأَيُّمُنُونَ ﴿١٤٥﴾
وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ
أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٤٦﴾

الربع الأخير من الحزب الرابع عشر في المصحف الكريم

عباد الله

حديث هذا اليوم يستوعب الربع الأخير من الحزب الرابع عشر في المصحف الكريم، وابتدىء بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَلَقَ الْحَبَّ وَالنَّوَى، يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ، ذَلِكَمُ اللَّهُ، فَإِنِّي تُوفِّكُونَ﴾ وينتهي بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ، وَمَا يُشْعِرُكُمْ، أَنهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ، وَنُقَلِّبُ أَفئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

في هذا الربع تتناول مجموعة من الآيات الكريمة استعراض جملة من آيات القدرة الإلهية وآثار الحكمة الربانية في الخلق والإيجاد، والتدبير والإمداد، فمن فلق للحب والنوى، ومن إخراج للحَيِّ من المَيِّتِ والمَيِّتِ من الحَيِّ، ومن إبراز آية النور ومحورها لآية الظلام، ومن تسيير للشمس والقمر بحسبان، ومن تزيين للسماء بالنجوم، ونصبها علامات للإِهْتِدَاءِ بها في ظلمات البر والبحر، ومن إنشاء للنفس البشرية ولكل ما تفرع عنها من مختلف الأجناس والأنواع، ومن إنزال للماء وما ينبت به من مختلف الألوان والأشكال والطعوم. وتتناول مجموعة ثانية من آيات هذا الربع الحديث عن عقائد المشركين، وما نسبوه إلى الحق سبحانه وتعالى من بنين وبنات، وما

أشركوه به من الجن، وما أقسموا به من الأيمان الكاذبة، على أنهم مستعدون للإيمان بالله، إذا نزلت عليهم بالخصوص آية تكون من خوارق العادات، نظير ما سبق نزوله على الأمم السالفة في عهد الأنبياء السابقين، كما تتناول نفس الآيات ما ينبغي أن يكون عليه موقف المومنين والمشركين في المعاملة والمجادلة، وكيف ينبغي أن يكون موقف الرسول منهم بالأخص.

وتتناول مجموعة ثالثة من آيات هذا الربع عرض جزء مهم من صفات الله العليا وأسمائه الحسنى، تثبيتاً لحقيقة الألوهية في النفوس، وتركيزاً لها في القلوب.

فمن المجموعة الأولى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَلَقِ الْحَبَّ وَالنَّوَى﴾ وهو يتضمن الإشارة إلى سر الحياة الذي يسري في البذرة والنواة، والذي لا يعلم مصدره إلا الله، ولا يدرك كنهه سواه، على غرار قوله تعالى: ﴿وَعَايَةُ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ الآية. ومنها قوله تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعِلُ اللَّيْلِ سَكَنًا﴾ وهو يتضمن الإشارة إلى توزيع الحياة اليومية بين الليل البهيم المناسب للسكون، والنهار المشرق الملائم للحركة ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ كما يتضمن الإشارة إلى أسباب هذا التوزيع وحكمته، وإلى آثاره العميقة في حياة الإنسان والحيوان والنبات.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا﴾ وهو يتضمن الإشارة إلى ما تسير عليه الشمس ويسير عليه القمر في حركتهما وتنقلتهما ودورانها من نظام مرسوم، وحساب مقنن مقدر معلوم،

لَا يَتَغَيَّرُ وَلَا يَضْطَرِبُ ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ﴾ - ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ .

ومنها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ وهو يتضمن الإشارة إلى مواقع النجوم في السماء، وكيف يهتدي الناس بواسطتها في غمرات البحر وسط الغيوم المتلبدة، والسحب الكثيفة، وفي متاهات البر داخل الصحارى وفي جوف الأدغال، وسط الزوابع والأعاصير.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ وهو يتضمن الإشارة إلى نشأة النفس البشرية عن أصل واحد، ثم تفرعها إلى ذكر وأنثى، ثم إلى أجناس وألوان ولغات، «فمستقر» في أرحام النساء و«مستودع» في أصلاب الرجال، وما تشتمل عليه هذه النشأة من عجائب وحكم، في بدايتها وفي تسلسلها وفي تنوعها ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ، فَأرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ .

ومنها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وهو يتضمن الإشارة إلى أن ماء المطر، رغمًا عن كونه واحداً في طبيعته، متماثلاً في تركيبه وماهيته، ينشأ عنه، بإذن الله وتسخيره، ما لا يحصى عدداً من أصناف النباتات التي يعيش عليها الإنسان والحيوان، مع اختلاف الأحجام والطعوم والألوان، ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا، نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا، وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ، وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ، وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا

وَعَيْرٌ مُتَشَبِهٍ، انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ، إِنَّ فِي ذَلِكَُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ - ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ وفي هذا المعنى ورد أيضاً قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَةٌ وَجَنَّتْ مِنْ أَعْنَبٍ وَزَّرْعٍ وَنَخِيلٍ صِنَوَانٍ وَعَيْرٍ صِنَوَانٍ تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ، وَنُفَّضْلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكْلِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

وأقل تفكير في هذه العطايا الإلهية، والهبات الربانية المتوالية، يبعث الإنسان على الإيمان بالله والاعتراف بربوبيته، ويدفعه إلى محبته وطاقته، فالإنسان في كل حركة من حركاته، أو سكونه من سكوناته، إنما يتقلب في نعمة الله الوارفة، وفي رحمته الواسعة، ولو وُكِلَ إلى نفسه لحظة واحدة، بل لو حُرِمَ من إمداد الحق ثانية واحدة، لذهب في خبر كان، ولم يبق منه عين ولا أثر.

أما المجموعة الثانية في هذا الربع، وهي الآيات التي يدور الحديث فيها عن التنديد بالشرك والمشركين، فمنها قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾ وهو يتضمن الإشارة إلى ما كان شائعاً بين مشركي العرب من الاعتقاد في تأثير الجن، وفي أن لهم قدرة على الضر والنفع بواسطة الكهان والأصنام والأوثان، وهاهنا تستغرب الآية أن يكون الجن شركاء لله وأنداداً له، وهم لا يزيدون عن أن يكونوا من جملة عباده المخلوقين المقهورين، ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَحَرِّقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وهو يتضمن الإشارة إلى عقيدة وثنية أخرى اختلقها المشركون، وتابعهم

عليها بعض أهل الكتاب، ألا وهي نسبة البنين والبنات إلى الحق سبحانه وتعالى الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، كقول المشركين: «الملائكة بنات الله» وقول اليهود: «عزير ابن الله» وقول النصارى: «المسيح ابن الله» ﴿سُبْحٰنَهُ وَتَعَالٰى عَمَّا يَصِفُوْنَ، بَدِيعُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ، اَنۡىۤ اَيُّ يَكُوْنُ لَهٗ وَلَدٌ وَّلَمْ تَكُنْ لَهٗ صٰحِبَةً، وَخَلَقَ كُلُّ شَيْءٍ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيْمٌ﴾.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ الَّذِيْنَ يَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ فَيَسُبُّوا۟ اللّٰهَ عَدْوًاۙ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾. وهو يتضمن الإشارة إلى أدب الدعوة في الإسلام، وأن المشركين بالرغم من سفاهة عقولهم وفساد عقائدهم لا ينبغي للمسلمين أن يوجهوا السب واللعن إلى معبوداتهم الباطلة، إذ لها من الحرمة في نفوس المشركين والقداسة في معتقداتهم ما قد يحملهم على مقابلة السب بمثله، واللعنة بأختها، وبذلك يكون المسلمون قد تسببوا في تجرؤ المشركين على مقام الله الأقدس، وجنابه الأعلى.

قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «اتفق العلماء على أن معنى هذه الآية: لا تسبوا آلهة الكفار فیسبوا إلهكم، وكذلك هو. فإن السب في غير الحجة فعل الأذنياء، وقال النبي ﷺ: «لعن الله الرجل يسب أبويه. قيل يا رسول الله: وكيف يسب أبويه. قال: يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه». فمنع الله في كتابه أحداً أن يفعل فعلاً جائزاً يؤدي إلى محذور، ولأجل هذا تعلق علماؤنا بهذه الآية في «سد الذرائع»، وهو كل عقد جائز في الظاهر يؤول أو يمكن أن يتوصل به إلى محذور.

وأما المجموعة الثالثة في هذا الربع، وهي الآيات التي تتناول صفات الله العليا وأسماؤه الحسنى، فمنها قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي مبدعها على غير مثال، لا سابق ولا لاحق، وقوله تعالى ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَرَ، وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ أي أنه سبحانه وتعالى لا تحيط به أبصار الخلائق، وأن أكرم الصالحين من عباده بالنظر إليه، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾. لكنهم بمقتضى طبيعتهم أعجز من أن يحيطوا بحقيقة الخالق وعظمته وجلاله، فكم من المرثيات من جنس المخلوقات يراها الإنسان بعيني رأسه، ولكنه بالرغم من رؤيته لها يعجز عن إدراك حقيقتها وكنهها، ولا يحيط بها إحاطة تامة، فما بالك بالخالق سبحانه وتعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.

الربع الأول من الحزب الخامس عشر
في المصحف الكريم

وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلِئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا
عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا لِيَوْمِنَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِن
أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١٣١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا
شَاطِئِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ
غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٢﴾
وَلِنَصِّبْنِي إِلَيْهِ أَفِئْدَةَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ
وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُّقْتَرِفُونَ ﴿١٣٣﴾ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا
وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ
ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ
فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٣٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا
وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٥﴾

وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
 إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا بِخُرْصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ
 هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا
 مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾
 وَمَا لَكُمْ دُونَ الْآلَاءِ تَأْكُلُونَهَا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ
 مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ۖ وَإِلَّا مَا اضْطُرَّرْتُمْ إِلَيْهِ ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيَضِلُّونَ
 بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا
 ظَاهِرَ الْأَشْجِرِ وَبَاطِنَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْأَثْمَ سَجِبُونَ
 بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ
 وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُوحِيَ إِلَىٰ آوَالِيهِمْ لِجَدِّ لُوكُمْ
 وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ وَإِنَّمْ لَكُمْ لِمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا
 فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ
 مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ۚ كَذَلِكَ زُيِّنَ
 لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا
 فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ
 إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَ تَهُمُوءَ آيَةٌ

قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ۗ
 اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا
 صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٧٤﴾
 فَتَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ، وَيُشْرَحَ صَدْرَهُ، وَ لِلِاسْلَامِ وَمَنْ
 يُرِدَ أَنْ يُضِلَّهُ، وَيَجْعَلَ صَدْرَهُ ضَيْقًا حَرِجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ
 فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧٥﴾
 وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
 يَذَّكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾

الربع الأول من الحزب الخامس عشر في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأول من الحزب الخامس عشر في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قِبَلًا مَا كَانُوا لِيَوْمِنَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ ونهايته قوله تعالى: ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾.

بعدما عرض كتاب الله في الربع الماضي على أنظار المشركين والكافرين آيات الله في أنفسهم وفي الآفاق المحيطة بهم من حولهم، وما أنعم به على خلقه من النعم المتوالية والعطايا الدائمة، رحمة بهم وإحساناً إليهم. وبعدما تبين ما هم عليه من تحجر في الفكر، وقسوة في القلب، وإصرار على التمسك بالباطل، واستكبار عن قبول الحق، جاء كتاب الله في هذا الربع مبيناً أن من كان مثلهم تحجراً واستغلاقاً، وعناداً وإصراراً، لا تنفع فيه، لا آيات الوحي الناطقة، ولا آيات الكون الصامتة، بل إن إجراء خوارق العادات من أجل إقناعهم، وإقامة الحججة عليهم، لو وقع، تلبية لطلبهم، واستجابة لتحديهم، لما كان له إلا أثر سلبي في أنفسهم، فقد

عميت بصائرهم، وتحجرت عقولهم، إلى درجة أنه لم يبق أي منفذ ينفذ منه الحق أو الحقيقة إلى قلوبهم، وذلك ما يؤكد قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قِبَلًا﴾ أي عياناً ومشاهدة، ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا، وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ، وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ، اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتِهِ، سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾. وفي مثل هذا المعنى جاء قوله تعالى في سورة يونس: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ، وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

ثم انتقلت الآيات الكريمة إلى وصف ما تلاقيه دعوة الأنبياء والرسل من دعايات مضادة يقوم بها أعداء الرسالات الإلهية وخصوصاً المفسدون في الأرض، مبيّنة أن هؤلاء الأعداء المتحالفين على محاربة الرسل ورسالاتهم هم أشرار الخلق من الأنس والجن، فهم حلف واحد متمرد على الله، متعاون على حرب رسله، وما من فريق منهم إلا وهو يستوحي من الفريق الآخر كل ما يساعده على التفرير بضعفاء النفوس، وتضليل بسطاء العقول، ونهت نفس الآيات إلى أن الذين ينكرون الحياة الآخرة ولا يؤمنون بالبعث هم الضحايا الأولون، والزبناء المختارون لهذا الحلف الضال، من شياطين الإنس والجن، فهم الذين يتقبلون وحي هؤلاء الشياطين برضى واطمئنان، وهم الذين يقترفون - بإيحاء منهم - كل ما يأتونه

من المناكر والفواحش والضلالات، معرضين عن الله، متكرين لجميع الرسالات، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا، وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ، فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ، وَلِتَضَعِي إِلَيْهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَوْحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَدِّدُوا لَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾.

واتجه خطاب الله إلى الحديث عن موقف الرسول ﷺ من ضلالات المشركين ودعاويهم الباطلة، والتأكيد على أنه غير مستعد للتحاكم إلى أهوائهم وأوهامهم، وأنه لا يرتضي حكماً في النزاع القائم بينه وبين المشركين حول عقيدة التوحيد إلا الحق سبحانه وتعالى، فهو الحكم الوحيد الذي ترضى حكومته عند رسوله والمومنين، لا سيما وقد فصل في كتابه المبين الذي أنزله على رسوله الصادق الأمين بلسان عربي مبين، دلائل الحق الصراح الذي لا جدل فيه ولا مرأى، والذي فيه غاية الهدى وكل الشفاء، وذلك قوله تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ - ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾.

ثم نبه كتاب الله مرة أخرى إلى أن هذا الكتاب المنزل على محمد ﷺ ليس بدعاً من الكتب، بل هو من جنس الكتب الإلهية التي أنزلها على رسله السابقين، فهو حلقة من سلسلة النور الممدودة من السماء إلى الأرض، وهو وإن كان خاتم الكتب الإلهية والمهيمن

عليها فليس هو بأولها، بل إن هناك طائفة من أهل الأرض تُعرَف «بأهل الكتاب» تُعرَف الوحي وتعرف الرسالة، وعندها من بشارات الرسل السابقين بذلك ما يشفي ويكفي، وهي تعرف أن هذا القرآن الذي ختم الله به الوحي من عنده، جاء مصداقاً لما بين يديه من الكتب والرسالات، وجاء بالحق من العقائد، والحق من الشعائر، والحق من الشرائع، والحق من أخبار الخليقة، والحق من قصص الأنبياء والرسل، فلا يصح أن يكون بعد ذلك كله موضع شك ولا تردد عند أحد من الناس. وذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾. وقوله تعالى في نفس السياق: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَمَرِّينَ﴾ وورد على غرار قوله تعالى في سورة يونس: ﴿فَإِن كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ، لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَمَرِّينَ﴾. وتعليقاً على «حرف الشرط» ﴿فَإِن كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ﴾ أجاب رسول الله ﷺ قائلاً: «لا أشك ولا أسأل».

ومضى كتاب الله يوضح من خصائص القرآن ومميزاته ما يثلج صدور المومنين ويزيدهم يقيناً بالحق، واطمئناناً إلى الحقيقة، فنبه إلى أن كلمات الله التي يتضمنها كتابه العزيز هي المثل الأعلى في الصدق، فلا يوجد ما هو أصدق منها، لا خبراً ولا توجيهاً، لا فرق في ذلك بين خبرها عن الغيب، ولا خبرها عن الماضي، ولا خبرها عن أطوار البشرية في حالي شقائها وسعادتها، وحالي ضلالها وهدايتها، ولا فرق في ذلك بين توجيهها للفرد المسلم،

وتوجيهها للجماعة المسلمة، وتوجيهها للدولة الإسلامية، وتوجيهها للإنسانية جمعاء، فتوجيهاتها كلها حق وصدق، كما نبه كتاب الله إلى أن كلمات الله التي يتضمنها كتابه العزيز هي المثل الأعلى في العدل، فلا يوجد في أحكامها، ولا في تكاليفها، ولا في أوامرها، ولا في نواهيها، ولا في مبادئها التشريعية والأخلاقية، ما يناقض مبدأ العدل المطلق، الذي لا عدل فوقه ولا عدل سواه، إذ هو عدل الحَكَم العدل الذي هو أحكم الحاكمين ورب العالمين، فعده ليس عدل طبقة ضد طبقة، ولا عدل جنس ضد جنس، ولا عدل لون ضد لون، ولا عدل ملة ضد ملة. وهو فوق الأهواء والشهوات، لأنه عدل «الكامل» الذي لا يلحقه أي نقص، و«الغني» الذي لا تضطره أي حاجة، و«العادل» الذي لا يتصور منه أي ظلم.

ونبه كتاب الله في نفس هذا السياق إلى أن ما تحتوي عليه كلمات الله في كتابه المبين من صدق وعدل لا يمكن أن يلحقه نقض ولا إبطال، ولا تغيير ولا تبديل، ولا تحريف ولا تزوير، لأنها أحكام صادرة عن علم الله، وحكم منطوية على سر الله، وكلمات محفوظة بحفظ الله، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا، لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَتِهِ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ - ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾.

وانتقلت الآيات الكريمة إلى تقرير حقيقة اجتماعية وتاريخية كبرى، حتى لا يضل عنها المسلمون، ولا يختلط عليهم الحابل بالنابل، ألا وهي أن «معيار الحق» و«معيار الحقيقة» ليس هو كثرة القائلين بالقول، ولا كثرة المقلدين للرأي، فكم من الأكثريات

والأغلبية إنما تؤيد الباطل، دون الحق، وتسير وراء الأوهام، لا وراء الحقائق، وذلك في جميع عصور التاريخ، وبالنسبة لكافة الدعوات، بحيث كثيراً ما تكون القلة من الناس دون الكثرة هي المتمسكة بالحقيقة، والحريصة على الحق ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَإِن تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ولم يكتفِ كتاب الله بتقرير هذه الحقيقة، مجردة من الحججة الدالة على صدقها، بل عقب عليها بما يكشف السر فيها، فبين أن أكثرية الناس إنما يكتفون في أحكامهم وتصرفاتهم بمجرد الظنون والأوهام، ولا يجدون لا من سعة من الوقت، ولا من سعة الفكر، ما يساعدهم على أن يتبينوا وجوه الضعف فيما يقال لهم وما يعرض عليهم من الآراء الملتوية، والأهواء المستعصية، فينقادون بسهولة لمن يوحون إليهم بتلك الآراء المدخولة، والأفكار المعلولة، من شياطين الإنس والجن، ويسايرون تيار الضلال والتزوير على غير علم، ودون أن يكونوا على بينة، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ، وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

الربع الثاني من الحزب الخامس عشر
في المصحف الكريم

لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ
بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرَ
الْجِنَّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ
رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا
قَالَ النَّارُ مَثْوِيكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ
حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَكَذَلِكَ نُؤَيِّدُ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا
كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧٩﴾ يَمْعَشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ
رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ
يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَعَظَّمْتَهُمُ الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَأَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٨٠﴾
ذَلِكَ أَنْ لَّمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٨١﴾

وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ تَمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا
 يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنَّ
 يَشَاءُ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ
 كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ - آخِرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ
 مَا تُوْعَدُونَ لَأَتِي وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَا قَوْمِ
 اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْمَلُونَ
 مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٥﴾
 وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا
 فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا
 كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا
 كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ
 مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ
 مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ
 لِيُردُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ
 اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾
 وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حَجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ

نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَمُ حُرْمَتِ ظُهُورِهَا وَأُنْعَمُ
 لَأَيْدِكَرُونِ اسْمِ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَجَجْتُمْ
 بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ
 إِلَّا نَعْمٌ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ
 يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَجَجْتُمْ بِهِمْ وَصَفَرْتُمْ
 إِنَّهُ وَحَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾

الربع الثاني من الحزب الخامس عشر في المصحف الكريم

عباد الله

في حديث هذا اليوم نستعرض الربع الثاني من الحزب الخامس عشر في المصحف الكريم، وأول آية منه قوله تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وآخر آية فيه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا، وَإِن يَكُن مِّثَّةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ، سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ، إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

في هذا الربع جملة من الآيات الكريمة، يشمل الحديث فيها نوعين من المخلوقات، نوع الإنس الظاهر المعروف، ونوع الجن المستتر المجهول، والحديث هنا مسوق على أساس أن أشرار هذين النوعين من المخلوقات متصلون فيما بينهم اتصالاً وثيقاً، ومتعاونون تعاوناً مستمراً، وعلى أساس أن كلا النوعين تتوجه إليهما الرسالة من عند الله، ويتوجه إليهما التكليف على قدم المساواة، وعلى أساس أن مصير الأشرار من كلا النوعين واحد، وهو العذاب الأليم والخلود في النار.

وواضح أن أمر هذا النوع المستتر المجهول من المخلوقات مما

يسمى باسم «الجن» يعتبر جزءاً من «عالم الغيب» الذي لا يعلمه على حقيقته إلا الله، طبقاً للعقيدة الإسلامية، إلى أن يكشف الله أمره للناس إذا شاء ذلك، وفي هذا النوع وما شابهه يجب أن يقف المسلمون عند حدود ما تشير إليه نصوص القرآن الكريم ونصوص السنة الصحيحة، بدون زيادة ولا نقص، ولا توسع ولا تفصيل.

وغني عن البيان أن الإنسان رغماً عن تطاول العصور وتعاقب الأجيال لا يزال علمه بالحياة والأحياء في مجموع الكون واقفاً عند حد محدود، ولا يزال رواد البحث يحاولون اكتشاف ما هو مجهول في طبقات كوكبنا الأرضي نفسه الذي هو كوكب الإنسان، منذ أقدم الأزمان، علاوة على محاولاتهم لاستكشاف ما هو مجهول من حياة الكواكب الأخرى، ولم تصل هذه الأبحاث إلى نتيجة حاسمة حتى الآن ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾.

والآيات التي تشير إلى هذا الموضوع في حصتنا اليوم هي قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَمْعَشَرُ الْجَنُّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِّنَ الْإِنْسِ ﴾ أي استكثرت من أغواء الناس وتضليلهم، فأضللتهم منهم كثيراً ﴿ وَقَالَ أُولِيَاؤُهُمْ مِّنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ، وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا، قَالَ: النَّارُ مَثْوِيكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ يَمْعَشَرُ الْجَنُّ وَالْإِنْسُ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا، قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا، وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾.

ومما يتصل بهذا المعنى وهذا الموضوع قوله تعالى في سورة الأحقاف: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا، فَلَمَّا قُضِيَ وَلُوا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ، قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ، يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ، وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ، أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وهناك سورة خاصة يطلق عليها (سورة الجن)، وفيها جاء قوله تعالى: ﴿قُلْ أَوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا، يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ، فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾.

وفي هذا الربع جملة من الآيات الكريمة تعتبر تحذيراً صارخاً وإنذاراً بالغاً من الحق سبحانه وتعالى لمن يخالفون أمره في كل الأجيال وفي مختلف العصور ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

فمنها آية تنذر الظالمين الذين يعتدون على العباد ويضيعون حقوقهم، بأن الله سيسلط عليهم ظلمة آخرين يضربون على أيديهم، وينتقمون منهم شر انتقام، وذلك قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّدُ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ وكما يعم هذا الإنذار الأفراد والجماعات فإنه يعم الدول والحكومات سواء بسواء،

وهذا المعنى هو الذي اقتبسه أحد الشعراء فقال: «وما ظالم إلاَّ سَيَّبِلَى بظالم».

ومنها آية هي من قبيل «الإِندَار قبل الإِعْدَار» تشير إلى أن الحق سبحانه وتعالى لا يهلك الأمم ولا يبنيها تعسفاً واعتباطاً دون سابق هداية وإندار، بل إنه يَبْنِيهَا من غفلاتها المرة تلو المرة، ويذكرها بما آل إليه أمر الأمم السالفة التي تمردت على الله من خراب وتدمير، حتى إذا أصرت على إهمال دعوة الرسل، وهجرتها بالمرة، ورمت بها عرض الحائط، ولم تتعظ بالانذارات المتوالية، جاءها الهلاك الماحق، والعذاب الساحق من عند الله، وكان أمر الله قدراً مقدوراً، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا غَافِلُونَ ﴾ على غرار قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴾ وطبقاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾.

ومنها آية تنذر المتمردين على الله والمتعدين لحدوده، بالقضاء عليهم وإبادتهم، واستخلاف غيرهم بدلاً منهم، متى فقدوا مؤهلات الخلافة عن الله في الأرض، وأخلُّوا بشروطها الجوهرية، وأول هذه الشروط الإِصْلَاحُ دُونَ الإِفْسَاد، وثانيها التعمير دون التدمير، وثالثها حفظ التوازن التام، وضمان الانسجام الكامل، بين نواميس الطبيعة وقوانين الشريعة.

وما دامت قدرة الله هي التي يدين لها الإنسان بدءاً وختاماً بإيجاده وإمداده، فإن هذه القدرة لا يعجزها إبادة أمة أو أمم متعددة متى كانت فاسدة، وتعويضها بغيرها من الأمم الصالحة لعمارة

الأرض والاستخلاف فيها، وذلك قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ، إِنْ مَا تُوعِدُونَ لِآتٍ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ على غرار قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾.

ومنها آية تتضمن تقرير سنة من سنن الله في عباده، ألا وهي إهماله للظالم دون إهماله، واستدراجه بتمكينه من وسائل التصرف، واستعماله لها أسوأ استعمال، حتى ينتهي إلى نهايته المحتومة، وهي أخذه أخذاً وبيلاً، وذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَيَّ مَكَانَتِكُمْ إِنْني عَامِلٌ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ على غرار قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ، وَأُمْلِي لَهُمْ، إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ، أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾.

وفي هذا الربع جملة ثالثة من الآيات الكريمة تمس موضوع الحلال والحرام من الحرث والأنعام، فهذا الموضوع كانت الجاهلية قد استحدثت فيه بوحى من أهوائها الفاسدة، وخيالاتها المريضة، عدداً لا يحصى من البدع الوثنية، والضلالات الاعتقادية، مما تولى الإسلام الرد عليه، وإقامة الحجة على فساده وإبطاله، منذ نشأة الإسلام الأولى.

وبمناسبة ذكر «الأنعام» والحديث عنها عدة مرات في هذه الآيات أطلق على هذه السورة كلها ﴿سورة الأنعام﴾ كما أشرنا إلى ذلك في مفتتح هذه السورة الكريمة.

وهذه الآيات تشير في جملتها إلى أن المشركين لسخافة عقولهم كانوا قد خصصوا من الحرث نصيباً لله، كما خصصوا منه للأوثان نصيباً، بحيث إذا حرثوا حرثاً جعلوا منه لله جزءاً وللوثن جزءاً، غير أن نصيب الأوثان هو الذي كان يحظى عندهم بالأسبقية، بحيث إذا ضاع منه شيء عوضوه من النصيب الذي ينسبونه لله، وهكذا أسأؤوا في مبدأ القسم أولاً، لأن الحق سبحانه وتعالى غني عن خلقه، فهو مالك الملك والملكوت، ثم جاروا في قسمتهم الفاسدة ثانياً، إذ غلبوا جانب الأوثان، على جانب ما ينسبونه للرحمن، كما أن المشركين حرّموا على أنفسهم عدداً من الأنعام، ولا سيما البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، فجعلوها للأوثان، وزعموا أنهم بعملهم هذا إنما يتقربون إلى الله زلفى، افتراء عليه سبحانه في البداية والنهاية، وذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا، فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ، وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

ومن سخافات المشركين وافتراءاتهم على الله تقسيمهم للأنعام التي بأيديهم إلى عدة أقسام، فمنها ما يباح أكله وما لا يباح، ومنها ما يباح أكله للذكور دون الإناث، حتى إذا كان مَيْتَةً أكل منه الجميع، ومنها ما يباح الركوب عليه وما لا يباح، ومنها ما يجمع عند ذبحه بين ذكر الله وذكر الصنم، وما يقتصر فيه عند الذبح على ذكر الصنم وحده دون ذكر الله، وذلك ما حكاه عنهم كتاب الله، مستخفاً بعقولهم، مستنكراً لمزاعمهم، حيث قال: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ

أَنْعَمُ وَحَرْتُ حَجْرًا لَا يَطْعَمَهَا إِلَّا مَنْ نَشَأَ بِزَعْمِهِمْ، وَأَنْعَمُ حُرِّمَتْ
 ظُهُورُهَا وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ، سَيَجْزِيهِمْ
 بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ، وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَمِ خَالِصَةٌ لَّذُكُورِنَا
 وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا، وَإِنْ يَكُن مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ، سَيَجْزِيهِمْ
 وَصَفَهُمْ، إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٤٠﴾

الربع الثالث من الحزب الخامس عشر
في المصحف الكريم

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ
 سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى
 اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ وَهُوَ الَّذِي
 أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرِ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ
 مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ
 مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ وَ
 يَوْمَ حِسَابِهِ لَأَلَسْتُمْ بِأَشْرَفِيٍّ وَأَنْتُمْ كُفَرْتُمْ ﴿١٤١﴾
 وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ
 وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٢﴾
 ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ
 قُلْ - الذَّكْرَيْنِ حَرَّمَ أَمْرَ الْأُنثَيَيْنِ أَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ
 أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾

وَمِنَ الْإِبِلِ إِثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ إِثْنَيْنِ قُلْ - الذَّكَرَيْنِ
 حَرَّمَ أَمِ الْإِنثَيْنِ أَمَا أَشْتَمْتُ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْإِنثَيْنِ
 أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ
 مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ
 إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا
 أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً
 أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا
 أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ
 رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ
 ذِي ظُنْفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا
 إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ
 بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾
 فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ زُبُكُمُ ذُو رَحْمَةٍ وَسِعَتْهُ وَلَا يَرُدُّ بِأَسْفُهُ
 عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ
 اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءَ آبَائِنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ
 كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا

قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ
 إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٢٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ
 الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٩﴾ قُلْ هَلْ أَسْهَدُكُمْ
 الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا إِنْ شَهِدُوا فَلَا
 تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا
 وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٣٠﴾

الربع الثالث من الحزب الخامس عشر في المصحف الكريم

عباد الله

حصّة هذا اليوم تتناول الربع الثالث من الحزب الخامس عشر في المصحف الكريم، ويبتدىء هذا الربع بقوله تعالى ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ، افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ، قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

وينتهي بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

في هذا الربع يعيد كتاب الله الكرة على عقائد المشركين وسخافاتهم التي ما أنزل الله بها من سلطان، ليهدمها من أساسها، تمهيداً لمحوها وإبادة آثارها من المجتمع، وإحلال تقاليد الإسلام الخالدة محلها إلى الأبد، على هدى من وحي الله، وبيّنة من دينه الحق، وشريعته الفاضلة، وقد بين كتاب الله في هذا الربع حقيقة الأمر في الحرث والنبات، وحقيقة الأمر في الحلال والحرام من أمر الأنعام.

ففي الموضوع الأول وهو موضوع الحرث والنبات قال تعالى:

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ، وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ، وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ ﴾ .

وهذه الآية تتضمن الإشارة إلى ما خلقه الله من أنواع النبات المختلفة، ما ينبت منها دون تدخل ولا عناية خاصة من جانب الإنسان، وما ينبت منها متوقفاً على تجربة الإنسان التي هداه الله إليها، وعلى عنايته الخاصة ﴿ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ﴾، كما تتضمن نفس الآية الإشارة إلى ما أنشأه الله في النبات من مختلف الأنواع والأشكال والألوان والطعوم ﴿ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ ﴾ ﴿ مُتَشَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ ﴾ مما هو دليل القدرة الواسعة، والنعمة السابعة، ثم قال تعالى: ﴿ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ فدعا خلقه أولاً إلى تناول ما أنعم به عليهم من النبات والثمار لفائدتهم ولتغذيتهم، ولقضاء حاجاتهم المتنوعة، والمتفرعة على نجاح عملية الإنبات والإثمار، ودعا خلقه ثانياً إلى القيام بأداء حق الله في نفس تلك النباتات ونفس تلك الثمرات، و(حق الله) هو في الحقيقة حق الضعفاء من خلقه، من الفقراء والمساكين، وكافة المحتاجين، وإنما أطلق عليه (حق الله) ضمناً منه سبحانه وتعالى لحقوق الضعفاء والمحرومين، حتى يكون من ضييع حقهم إنما ضييع حق الله، ومن أهمل شأنهم إنما أهمل أمر الله، وهو سبحانه الذي يتولى حسابه العسير، على النقيض والقطمير ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ .

ثم قال تعالى: في نفس السياق ﴿ وَلَا تُسْرِفُوا، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ تنبيهاً إلى أمرين اثنين:

الأمر الأول هو الإرشاد إلى عدم الإسراف في الأكل من

الثمار والنباتات، وهذا يتضمن إرشاداً إلهياً صحياً متعلقاً بصحة المومن العامة، وسلامة جسمه، وثقوب ذهنه، فمن لم يسرف في الأكل وتوابعه، ولم يأخذ منه أكثر من حاجته تمتع بجسم سليم وعقل سليم، ومن أسرف في الأكل وتوابعه أسرع بخطاه إلى العطب والهلاك جسماً وعقلاً، وهذا المعنى يؤكد قوله تعالى في آية أخرى ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا، وَلَا تُسْرِفُوا، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ وقوله ﷺ في الحديث الصحيح «كلوا واشربوا والبسوا من غير إسراف ولا مخيلة».

والأمر الثاني هو الإرشاد إلى عدم الإسراف في الحقوق الاجتماعية التي جعلها الله للغير، وإلى عدم التوسع فيها أكثر من المطلوب، إذا كان ذلك على حساب الحقوق الأخرى التي جعلها الله للنفس والأهل والعيال، وهذا يتضمن إرشاداً إلهياً له مساس بحياة الفرد الاقتصادية. قال ابن جريج: «نزلت هذه الآية في ثابت بن قيس جذ نخلا له. فقال: لا يأتيني اليوم أحد إلا أطعمته، فأطعم حتى أمسى، وليست له ثمرة، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا تُسْرِفُوا، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ رواه عنه ابن جرير الطبري، وقال اياس بن معاوية: «ماجاوزت به أمر الله فهو سرف» وروى ابن جريج نفسه أيضاً عن عطاء قوله: «نُهِوا عن السرف في كل شيء». واختار ابن جرير الطبري قول عطاء: انه نهي عن الإسراف في كل شيء. قال ابن كثير معقباً عليه: «ولا شك أنه صحيح» ويشهد لهذا المعنى قوله ﷺ في الحديث الصحيح لسعد بن مالك الذي أراد أن يتصدق بثلثي ماله، فراجع رسول الله ﷺ حتى اقتصر على الثلث، ثم قال

له: «والثلث كثير، إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكفون الناس».

وفي الموضوع الثاني وهو موضوع الحلال والحرام من الانعام جاء قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسٌ، كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ، وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿ثَمَنِيَّةٌ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ، وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ، وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ، أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ، فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وكما تناولت سورة الأنعام المكية هذا الموضوع في الآيات التي أشرنا إليها، فقد تناولته أيضاً سورة البقرة وسورة المائدة المدنيتان، ومن مجموع هذه الآيات كلها وما تم فيها من تفصيل وبيان سابق ولاحق، يتبين من جهة: ما جاء به الإسلام من سماحة ورفع للحرج، بالنسبة إلى ما كانت عليه الوثنية الجاهلية وما كانت عليه اليهودية ولا تزال، كما يتبين من جهة أخرى ما دفع إليه الإسلام أتباعه من الإقبال على استثمار الثروة الحيوانية والانتفاع بها إلى أقصى الحدود في المآكل والملابس والمراكب والرياش والأثاث والمتاع.

وهكذا بين الله لعباده بصفته المنفرد وحده بالخلق، والمنفرد وحده بالأمر، أنه قد أنعم عليهم بما خلقه من بهيمة الأنعام بكافة أصنافها، لا فرق بين ذكراها وإناثها، فلا بحيرة ولا سائبة ولا

وصيلة ولا حام في الإسلام، بل إن الانعام كلها يعمها حكم الإباحة وهي حلال طيب، اللهم إلا إذا أُهِّلَ بها لغير الله، وذكر عليها اسم غير اسم الله، وكما أنعم الله بالأنعام على الإنسان ليتناول لحومها، فقد أنعم عليه بها ليركبها ويحمل أثقاله عليها، وليتخذ من أصوافها وأوبارها وشعورها وجلودها ملابس يلبسها ومفارش يفرشها ﴿وَمِنَ الْأَنْعَمِ حَمُولَةٌ وَفَرَشَاتٌ﴾ وفي هذا السياق حصر كتاب الله أنواع المأكولات المحرمة عند الاختيار وعدم الاضطرار في أربعة أشياء:

- أولها: الميتة التي كان المشركون يأكلونها ويفضلونها على الذبيحة، وتلحق بها المنخقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع مما سبق لنا تفسيره في سورة المائدة.
- وثانيها: الدم المسفوح المهرق الجاري، وبهذا يخرج اللحم الذي يخالطه الدم فهو حلال، ومثله الكبد والطحال فهما حلال، لأنهما دمان غير سائلين.
- وثالثها: لحم الخنزير، واللحم هنا يشمل بإطلاقه الشحم نفسه، فهو يدخل تحته دخولاً معنوياً وأولياً.
- ورابعها: ما ذبح شركاً ووثنية وفسقاً، مما أهل به لغير الله، ويلحق به ما ذبح على النصب، وما استقسم لحمه بالازلام.

فهذه هي خلاصة الأحكام الإلهية التي أوحى الله بها إلى رسوله في شأن بهيمة الأنعام من الحيوان، التي خلقها الله وسخرها لمصلحة الإنسان، وما عداها من الأضاليل والأغاليط والأوهام الوثنية في هذا المقام إنما هو مجرد زور ومحض بهتان.

وفي هذا المعنى جاء قوله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ، وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ، وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ، إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ، وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً، نَسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ، وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمَتَعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ وجميع هذه الآيات واردة في سورة النحل، وهي من سور القرآن المكية.

وبعدما أفحم كتاب الله المشركين بحججه البالغة، وسفّه معتقداتهم الباطلة في مجال الحلال والحرام، من الحرث والانعام، واصل تفرغهم بآياته البينات، وطالبهم بالحجة على ما يدعون - وهو يعلم أنهم لا يملكون حجة ولا علماً - وإنما يملكون جهلاً ووهماً - كما طالبهم بالشهود على ما يدعون من أن الله حرم ما يجرمون وأحل ما يحلون - وهو يعلم أنهم لا يملكون شاهداً واحداً يثبت دعواهم، اللهم إلا إذا كان من شهود الزور المبطلين - ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْكُمْ اللَّهُ بِهَذَا، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

وختم كتاب الله الجدل معهم في هذا الربع بختامة المنطقي الوحيد، فقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا، إِنْ

تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وَإِن أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ، قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ،
 فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ ، قُلْ هَلْ مِنْكُمْ شُهَدَاءُ كُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ
 حَرَّمَ هَذَا ، فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ ، وَلَا تَتَّبِعِ أَهْوَاءَ الَّذِينَ
 كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿٤٠﴾ .

الربع الأخير من الحزب الخامس عشر
في المصحف الكريم

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تَشْرِكُوا
بِهِ شَيْئًا ۖ وَالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ
مِمَّنْ أَمْلَقَ لَنَحْنُ نَرِزُقُكُمْ ۖ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ
مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَمَا بَطَنٌ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ
اللَّهُ ۖ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ ۖ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥٦﴾
وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ
أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ ۖ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا يُكَلِّفُ
نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ۖ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ
اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ ۖ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٧﴾ وَأَنْتَ
هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ
فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ۖ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ ۖ لَعَلَّكُمْ

تَتَّقُونَ ﴿١٥٢﴾ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي
أَحْسَنَ وَنَفَصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّعَلَّهُمْ بَلِقَاءَ
رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٣﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ
وَاتَّقُوا الْعَلَكَ تَرْحَمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى
طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٥﴾
أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ
فَقَدْ جَاءَكَ مِنْ رَبِّكَ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً فَمَنْ أَظْلَمُ
مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَجِرَ مِنَ الَّذِينَ
يَصْدِفُونَ عَنْ - آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٦﴾
هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ
آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ
- آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ لِنَنْظُرُوا إِنَّمَا
مُنظَرُونَ ﴿١٥٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَرُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَأَسْتَمْتُهُمْ
فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُمِيتُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٨﴾ مَنْ جَاءَ
بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا بُحْرَىٰ إِلَّا أَمْثَلُهَا
وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٥٩﴾ قُلْ إِنِّي هَدَيْتُهُ رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

دِينَاقِيَةً مَلَّةً إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦٦﴾ قُلْ إِنْ
 صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٧﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ
 وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٨﴾ قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ بِنِعْمَةِ رَبِّي
 وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ
 وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ
 فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٩﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْخَلِيفَةَ فِي الْأَرْضِ
 وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوكُمْ فِي
 مَاءِ آيَاتِكُمْ وَإِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٠﴾

الربع الأخير من الحزب الخامس عشر في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب الخامس عشر في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ ونهايته قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَايَكُمْ، إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

بهذا الربع ختمت ﴿ سورة الأنعام ﴾ التي تعتبر بمنزلة الأم لكل ما نزل بعدها بمكة من القرآن الكريم، جولتها الحاسمة ضد معتقدات المشركين وبدعهم الضالة، بعدما أصلتها ناراً حامية من حجج الله البالغة، فتناثرت أشلاؤها، وتبخرت أهواؤها، وبرزت عقائد الشرك على حقيقتها سفهاً لا يلحقه سفه، وبلهاً لا يعدله بله، على حد ما قاله ابن عباس رضي الله عنه، فجاء هذا الربع الأخير من سورة الأنعام بخلاصة الخلاصة ولب الباب، وبما يشبه فذلّة الحساب، يوضح خصائص الملة الإسلامية، ويجمع مبادئها النظرية والعملية، ويحدد معالمها الاعتقادية والأخلاقية، وذلك في شكل وصايا إلهية لقنها الحق سبحانه وتعالى لرسوله الأعظم ﷺ،

وأمره بتلقينها لأمته من بعده وتبليغها للناس كافة، حتى يهتدوا بهديها، ويُعوضوا ما هو شر وأذى من عقائد الشرك وبدعه، بما هو خير وأبقى من عقائد الإسلام وبدائعه، ﴿ذَلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ - ﴿ذَلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿ذَلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ .

ولهذا المعنى قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ﷺ التي عليها خاتمه، فليقرأ هؤلاء الآيات ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ .

ورعياً للتناسب مع السياق الذي كانت عليه الآيات الكريمة في الربعين الماضيين، وهو سياق ما حرّمته الجاهلية على نفسها من الحرث والانعام، مما سفّهه وأبطله الإسلام، ابتداءً هذا الربع بقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أي قل يا محمد للمشركين إذا أردتم أن تعرفوا ما هو حرام عليكم، عن علم وبيّنة، وعلى هدى من الوحي الإلهي الصحيح، فتعالوا لتسمعوا كلام الله الجامع المانع، وتعرفوا ما هو أساس الحرام وأصله، وما هو الحرام الذي لا حرام يعدله ولا حرام يفوقه، ألا وهو الشرك، وها هو الحق سبحانه وتعالى: يوصيكم قبل كل شيء ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ فالشرك هو أب الحرام، والشرك هو منبع الحرام، والشرك هو الكمامة التي يضعها الشيطان على عين الإنسان وعقله وقلبه، فيقتاده كالبهيمة العجماء، ويوسوس إليه بما يشاء، ويسخره لما يشاء، ولولا الشرك لما نشأ عند المشركين هذا النظام الفوضوي

الفاسد، ولا نشأت عندهم هذه التقاليد الاجتماعية السخيفة، ولا ثبتت في عقولهم هذه الأفكار الطفيلية الوضيعة، فالشرك هو علة العلل في الفساد الاعتقادي والأخلاقي والاجتماعي، ولا دواء له إلا عقيدة التوحيد الإسلامية، التي تحرر الفكر والعقل من سيطرة الخيالات والأحلام، وتحرر القلب والنفس من سيطرة الأهواء والأوهام، وتعرّف الإنسان بوضعه الطبيعي الصحيح بين سلسلة المخلوقات، وبعلاقته الطبيعية مع الكون والمكون، والخلق والخالق، فينطلق لأداء رسالته متحرراً من جميع العقد النفسية، واثقاً من نفسه وواثقاً بالعناية الإلهية ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾.

وبعدما حدد كتاب الله المحرمات وقصرها في هذا السياق على الشرك وحده، باعتبار أن الشرك هو أب المحرمات ومنبعها الأساسي، كما أن الخمر هي «أم الخبائث» ابتداءً يعرض جملة من الوصايا الإلهية التي لا يقوم الإسلام بدونها.

فأشار إلى حقوق الوالدين وما يجب على الأولاد لهما من معاملة كريمة و ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ كما أشار إلى حقوق الأولاد وما يجب على آباءهم من تضحية في سبيلهم، وبين كتاب الله أن نزول الفقر والإملاق بالوالدين لا ينبغي أن يكون مبرراً لقتل ما ولد لهم من الأولاد وسفك دمائهم، كما كان يفعل بعض المشركين بأولادهم عندما يصيبهم الفقر الإملاق ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ فالله تعالى يتكفل برزق الوالدين الفقراء كما يتكفل برزق أولادهم، وهذه الوصية الإلهية

مرتبطة بصالح الأسرة كل الارتباط، وهي دعوة صريحة إلى وجوب التكافل فيما بينها: تكافل الأولاد مع الوالدين، وتكافل الوالدين مع الأولاد، بحيث يكون كل من الطرفين في خدمة الآخر، مسرعاً في كل وقت إلى معونته، مستعداً للتضحية في سبيله ونجدته دائماً، وذلك قوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَقْتُمْ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾.

ومن لطائف التفسير في هذا المقام ما لاحظته ابن كثير رحمه الله من الفرق بين هذه الآية ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ بتقديم رزق الآباء على الأولاد، والآية الأخرى الواردة في سورة الإسراء ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ بتقديم رزق الأولاد على الآباء، وهو أن الآية الواردة في هذا الربع تتحدث عن الآباء الفقراء فعلاً، فجاء قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ بتقديم رزق الآباء على رزق الأولاد، لأنه هو الأهم هنا في السياق، بخلاف الآية الأخرى الواردة في سورة الإسراء، فقد جاء فيها ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾، مما يدل على أن الآباء غير فقراء فعلاً، وإنما يخشون الفقر بسبب الأولاد، فأمرُوا بأن لا يقتلوا أولادهم، خوفاً من الفقر الذي يمكن أن يحدث لهم في مستقبل الأيام، ثم جاء التعقيب عليها بقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي نحن نرزق أولئك الأولاد كما نرزقكم، وكان البدء هنا برزق الأولاد للاهتمام بهم، حيث إن رزقهم هو محور الحديث، أي لا نخافوا من فقركم بسبب رزقهم، فرزقهم على الله لا عليكم.

وانتقل كتاب الله من وصيته الخاصة بالأسرة المسلمة إلى

وصايا أخرى تتعلق بالمجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية على العموم.

ففيما يخص المجتمع الإسلامي أوصى الله المسلمين بالابتعاد عن الفواحش ما ظهر منها كالزنى وما بطن كالمخادنة، وذلك صيانة للأعراض، وبعداً عن الاختلاط المرذول، المؤدي إلى اختلاط الأنساب واختلاط الدماء، كما أوصى الله المسلمين بصيانة أموال يتاماهم الذين هم وديعة الله في أيديهم، ويحسن إدارة أموالهم وتنميتها، إعانة لهم، وسعيًا إلى تكوين مواطنين صالحين منهم، قادرين على مواجهة مسؤوليات الحياة عندما يبلغون رشدهم وأشدّهم، وأوصاهم أيضاً بأن لا يختلس بعضهم مال بعض، ولا يضيع بعضهم حق بعض، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ، وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾.

وفيما يخص الدولة الإسلامية أوصى الله المسلمين بالمحافظة على أرواحهم، وإقرار الأمن العام في حياتهم، وعدم التقاتل والتهارش فيما بينهم، وإقامة العدل على وجهه الكامل في أحكامهم وتصرفاتهم، والحرص على الوفاء بعهودهم فيما بينهم بعضهم مع بعض، وفيما بينهم وبين غيرهم من الأمم والملل الأخرى، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ، وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾.

وختم كتاب الله هذه الوصايا بوصية جامعة مانعة هي وجوب التزام المسلمين لدينهم، وضرورة تمسك المسلمين بوحدتهم، وذلك

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَأَنتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾.

ونوه كتاب الله مرة أخرى في ختام هذه السورة بملة الإسلام، وهداية رسوله والمومنين إليها ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، دِينًا قَبِيماً مِثْلَ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وضرب كتاب الله المثل للمسلمين كيف يتوجهون إليه في صلاتهم، وكيف يعبدون الله خاشعين مطيعين، وكيف يُسْحَرُونَ جميع طاقاتهم ومواهبهم في سبيله، وكيف يجب أن يحبوا ويموتوا من أجله وابتغاء مرضاته، فلَقِّنَ الحق سبحانه وتعالى نبيه قائلاً ليكون ذلك قدوة لأمته: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ، وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾.

قال القاضي أبو بكر (ابن العربي) تعليقاً على هذه الآية: «فإن قيل: أوليس إبراهيم قبله؟ قلنا: عنه أجوبة، أظهرها الآن انه أول المسلمين من أهل ملته». وقال الزنخشري: «هو أول المسلمين، لأن إسلام كل نبي متقدم لإسلام أمته». ونبه ابن العربي المعافري إلى أن من يستعمل هذا الابتغال عند افتتاح الصلاة ينبغي أن يقول في آخرها: «وأنا من المسلمين» ولا يقول «وأنا أول المسلمين»، إذ ليس أحد بأولهم إلا محمداً ﷺ.»

وفي هذا الربع آية كريمة ينبغي الوقوف عندها وقفة خاصة، ألا وهي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ

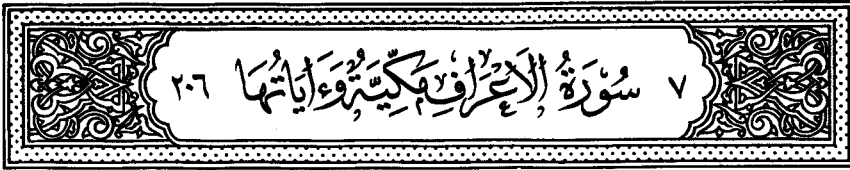
بَعْضُكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلِغُكُمْ فِي مَا آتَيْتُكُمْ، إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾، فقد حملها بعض المفسرين على استخلاف البشر عموماً، وحملها بعضهم على استخلاف المسلمين خصوصاً، وهي صالحة لكلا الوجهين عند التحقيق، إذ لا تعارض بينهما:

أما تفسيرها على الوجه الأول وهو أن الخطاب فيها موجه إلى عموم البشر، فمعناه أن الله تعالى قد اقتضت حكمته أن يتعاقب البشر على عمارة الأرض جيلاً بعد جيل، بحيث لا ينقرض منهم جيل حتى يكون جيل آخر قد خلفه في عمارتها، إلى أن يحين أجل الفناء، لكل من عليها من الأحياء، كما تنبه الآية في نفس الوقت إلى ما يوجد من تفاوت بين الناس في الدرجات والمقامات، تبعاً لتفاوتهم في الطباع والأخلاق، والطاقات والأرزاق، وتشير الآية بعد ذلك إلى ما يؤدي إليه هذا التفاوت من ابتلاء للبشر وامتحان، وسباق في الرهان، مما يتعرض معه الإنسان - إن أساء - للحساب والعقاب، وإن أحسن استحق المغفرة والرضوان، على غرار قوله تعالى في آية ثانية ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ أَبَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ - [يونس - ١٤] وقوله تعالى في آية ثالثة ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ، إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ - [هود - ٦١].

وأما تفسيرها على الوجه الثاني، وهو أن الخطاب فيها موجه إلى المسلمين قبل غيرهم، فمعناه أن الله تعالى محقق وعده للمسلمين بالنصر والتمكين، والاستخلاف في الأرض على عباده

المستضعفين، ان اهتدى المسلمون بهديه، ولم يخالفوا عن أمره ونهيه، ولم يتخلفوا عن الاستجابة لنداء الإيمان كلما دعاهم في السر والعلن، والإقامة والظعن، وإلاً استحقوا العقاب بدل الثواب، والنقمة بدل الرحمة، وهذا التفسير ينظر إلى قوله تعالى: في سورة النور الآية ٥٣ ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ، وَلِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ، وَلِيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا، يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا، وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ، وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ وقوله تعالى في سورة الحج الآية ٣٩ ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلِلَّهِ عَنقَبَةُ الْأُمُورِ ﴾ .

الربع الأول من الحزب السادس عشر
في المصحف الكريم



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 ١ كَتَبْنَا نَزْلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ
 بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ٢ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا
 تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ
 أَهْلَكْنَاهَا فِجَاءَ هَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ٤ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ
 إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ٥ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ
 أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا
 كُنَّا غَائِبِينَ ٧ وَالْوِزْنُ يُوَمِّدُ الْحَقَّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ
 هُمُ الْمُخْلَعُونَ ٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا

أَنفُسَهُمْ نَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَكَّاكُمْ فِي
 الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾
 وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا
 لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾
 قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن
 نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ
 فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ ﴿١٤﴾
 قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لَأَفْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ
 الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُمُ فِئْتَانٌ يَدْعُهُمْ وَمِن خَلْفِهِمْ
 وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ
 أَخْرُجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا لِّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ
 أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ
 شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَسَوَّسَ
 لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ
 مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا
 مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِحِينَ ﴿٢١﴾

فَدَلِيهِمَا يَغْرُورٌ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰنُهُمَا وَطَفِقَا
 يَخْتَصِمَنِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَّرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَيْتُهُمَا أَنْهَكُمَا عَنْ
 تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٧﴾
 فَلَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ
 الْخَاسِرِينَ ﴿٢٨﴾ قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي
 الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٩﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا
 تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٣٠﴾ يٰبَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ
 لِبَاسًا يُورِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسَ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ
 ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٣١﴾ يٰبَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ
 الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا
 لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَا إِنَّهُ يُرِيكُمُ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ
 وَإِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا فَعَلُوا
 فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهِمُ آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ
 اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾
 قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ
 وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٣٤﴾ فَرِيقًا

هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا
 الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنََّّهُم مُّتَّخَذُونَ
 يَبْنِيءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا
 وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣٦﴾

الربع الأول من الحزب السادس عشر في المصحف الكريم

في حصة هذا اليوم نشرع في تفسير الحزب السادس عشر من المصحف الكريم، وأول ربع فيه يبتدىء بقوله تعالى في فاتحة سورة الأعراف: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَمْ نَكْتُبْ أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وينتهي بقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا، وَلَا تُسْرِفُوا، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾.

وأحسن ما ينبغي تقديمه في مطلع هذا الحديث هو التعريف بسورة الأعراف قبل الشروع في تفسير آياتها على وجه التفصيل.

لقد كانت (سورة الأعراف) هي أطول سورة نزلت على رسول الله ﷺ وهو بمكة، وهي ثالث سورة مكية تقع في المصحف الكريم حسب ترتيبه المعهود، بالإضافة إلى سورة الفاتحة وسورة الأنعام المكييتين، وتعتبر أوفى سورة عالج فيها الوحي الإلهي بالشرح والتوضيح مجموع العقائد الأساسية للدعوة الإسلامية التي هي خاتمة الرسالات الإلهية. وهي في نفس الوقت أول سورة اعتنت عناية خاصة بعرض قصص الأنبياء السابقين مع أهمهم على أنظار الأمة

الإسلامية، وجميع الأجناس البشرية، إعانة لها على التبصر والاعتبار، وتجنب الموبقات والأخطار، فتحدثت عن آدم، ونوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى عليهم الصلاة والسلام، وقد خصصت سورة الأعراف التي نحن بصدد تفسيرها من بين هذه القصص قصة موسى وبني إسرائيل، بمزيد من الاستيعاب والتفصيل، مما يساعد على تفهم الأطوار الغريبة التي مر بها هذا العنصر المتمرد العليل، كقوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ، أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا، اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَاهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يُّسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ .

والطابع الغالب على هذه السورة هو طابع الإنذار، والوعيد بالهلاك والدمار، لكل من يكذب بآيات الله، ولا يشكر نعمة الله، ويستكبر عن طاعة الله، ويتولى غير الله، كقوله تعالى ﴿ وَكَمْ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾، وكقوله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ، أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ، أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ، فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ وقوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ

حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿١٠﴾ .

وأطلق على هذه السورة اسم ﴿سورة الأعراف﴾ أخذاً من قوله تعالى فيها ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ، وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْهِمْ﴾، وقوله تعالى فيها أيضاً: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ، قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تُسْتَكْبِرُونَ﴾ .

وسورة الأعراف هي إحدى السور التسع والعشرين في كتاب الله التي بدئت ببعض حروف التهجي، وكما بدئت بها سورة البقرة: ﴿الْم، ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ بدئت بها سورة الأعراف أيضاً ﴿الْمَصَّ، كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وكان في ذلك المطلع تنبيهاً إلى أن كتاب الله وإن كان مؤلفاً في ظاهره من جنس حروف التهجي التي هي في متناول كل من ينطق باللسان العربي من مختلف الأجناس، إلا أن البشر لا يستطيعون أن يؤلفوا من تلك الحروف إلا كلاماً عادياً وأوزاناً، بينما الحق سبحانه وتعالى ينزل بها على رسوله قرآناً معجزاً وفرقاناً، ويودع فيها من سر علمه وحكمته هدىً وتبياناً.

وكما تحدثت سورة الأعراف في بدايتها عن كتاب الله فكان براعة الاستهلال ﴿كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ تحدثت في نهايتها عن كتاب الله أيضاً، فكان مسك الختام وفصل المقال ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ .

والآن فلتتجول في هذا البستان الإلهي النضير، تجول المتبصر المستنير، ولنقف ولو وقفة قصيرة عند بعض زهراته، عسى أن نستمتع بعبير نفحاته.

يقول الله تعالى: في خطابه لنبهه خطاب القريب للقريب: ﴿الْمَصَّ، كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِيُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿فها هنا يمتن الحق سبحانه وتعالى على نبيه باختياره للنبوّة من بين سائر العرب، واصطفائه للرسالة من بين كافة البشر، ومعنى ذلك أنه قد وقع الاختيار عليه بدلاً من غيره لحكمة إلهية، وأنه مكلف في هذه الأرض بأداء رسالة سماوية سامية ﴿كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ إليك يا محمد، لا إلى غيرك من العرب والعجم، فانت خاتم الرسل إلى كافة الشعوب والأمم. والبشر بالنسبة إلى هذا الكتاب الإلهي الحكيم نوعان: (مؤمنون) يتوجه إليهم كتاب الله بالتذكير والوعد والبشارة، و(مكذبون) يتوجه إليهم بالتحذير والوعيد والندارة ﴿لِيُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ونظراً لما يفرضه القيام بأداء هذه الرسالة الثقيلة الأعباء، من صبر وجلد وتضحية، وكفاح متواصل الحلقات، مع ما يستتبعه ذلك من مواجهة الصدمات والأزمات، وَجَّه الحق سبحانه وتعالى خطابه الرقيق الرفيق إلى خاتم رسله، قائلاً له تثبيتاً لفؤاده، وتشجيعاً له على بلوغ مراده، ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ أي فلا تتحرج في إبلاغه والإنذار به، لأن الله تعالى قد تعهد في الأزل بأن يشرح صدرك ويعصمك من الناس ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ - ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ وإذن فما عليك أيها الرسول إلا أن تقوم

بأداء الأمانة وتبليغ الرسالة، ولا يضق صدرك بتكاليف الوحي المنزل، فإنك مؤيد معان، والله المستعان، على غرار قوله تعالى في آية أخرى ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾.

وبهذا التفسير الواضح يصبح وضع الآية في معناها المراد على النحو الآتي: ﴿كتاب أنزل إليك، لتندر به وذكرى للمؤمنين، فلا يكن في صدرك حرج منه﴾ والتقديم والتأخير أسلوب من أساليب البلاغة المعروفة عند العرب، فقد يقدمون اللفظ على موضعه الطبيعي من الجملة، تنبيهاً إلى أن معناه هو محور الحديث، وإلى أن السياق مرتبط به أكثر من غيره، حتى يلتفت إليه ذهن المخاطب التفاتاً خاصاً.

قال القاضي أبوبكر (ابن العربي): «إن كان «الحرج» هو الشك، فقد أنار الله فؤاده (أي النبي) باليقين، وإن كان هو التبرم، فقد حَبَّبَ الله إليه الدين وخَفَّفَ عليه ثقل العبادة، حتى جعلت قره عينه في الصلاة، وإن كان هو الضيق، فقد وسع الله قلبه بالعلوم وشرح صدره بالمعارف، وذلك مما فتح الله عليه من علوم القرآن».

وإذا كان الخطاب الإلهي قد توجه إلى رسوله الأعظم مباشرة بوجوب أداء الأمانة وتبليغ الرسالة، دون تهاون ولا تردد ولا اعتذار، فإن توجيه هذا الخطاب الإلهي عن طريقه إلى كافة ورثته من أمراء المومنين وعلماء المسلمين يكون من باب أولى وأحرى، إذ لا يبرر إهمال هذا الواجب أو التهاون فيه أي مبرر شرعي أو عقلي، قال القاضي عبد الجبار: «وإذا بعثه الله تعالى - أي بعث نبيه - على الأداء، وتوعده على تركه، فغيره بذلك أولى».

وبمجرد ما انتهى الخطاب الإلهي من التوجه إلى الرسول الأعظم ﷺ في شأن نزول القرآن عليه لندارة المكذبين، وبشارة المومنين، انتقل الخطاب الإلهي مباشرة إلى المومنين بالله ورسوله، ليحدثهم في شأن نزول القرآن عليهم، إذ كما أنزل عليه لتبليغه والإنذار به أنزل عليهم لاتباعه وطاعته في السراء والضراء، والسير في حياتهم على محجته البيضاء، فقال تعالى: ﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ، وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ تنبيهاً على أن كتاب الله نزل للعمل قبل التبرك، ونزل للأحياء قبل الأموات، وتقريراً لكونه الدستور المقدس والقانون الأعلى، الحاكم على غيره، والمهيمن على سواه في جميع المجالات.

وفي التعبير بقوله تعالى: ﴿ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ إشارة إلى عناية الله بخلقه، ورعايته لهم، وإلى تمهيد جميع الوسائل لتربيتهم والأخذ بيدهم، وتقويم سلوكهم، حتى يسلكوا طريق السعادة، وينالوا الحسنى وزيادة.

قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «قال علماؤنا معنى هذه الآية - اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم - أحلوا حلاله، وحرّموا حرامه، وامثلوا أمره، واجتنبوا نهيه، واستبيحوا مباحه، وأرجوا وعده، وخافوا وعيده، واقتضوا حكمه، وانشروا علمه، وفضوا خاتمه، وألحقوا به ملائمه».

وبعدما تناولت الآيات الكريمة مصرع الظالمين، وأكدت أن المرسل إليهم سيسألون يوم القيامة بمحضر الأنبياء والمرسلين، ووصفت ما تكون عليه موازين المفلحين وموازن الخاسرين، وبينت

ما خص الله به النوع الإنساني من تمكين وتكريم، وكيف خلقه في أحسن تقويم، وبعدهما عرض كتاب الله قصة آدم وإبليس التي تناولناها من قبل، بمناسبة عرضها في سورة البقرة، وعند الإشارة إليها في سورة آل عمران، وبعدهما لفت كتاب الله النظر إلى ما أثاره أمر الله للملائكة بالسجود لآدم، من حوار واستفسار، وجه الحق سبحانه وتعالى أربعة نداءات إلهية إلى الناس كافة، يصفهم فيها بوصفهم المشترك العام، وهو بنوتهم جميعاً لآدم عليه السلام، تذكيراً لهم بنعمة الوحدة، الوحدة الإنسانية المتمثلة في تناسلهم وتسلسلهم من أب واحد، واشتراكهم في رحم واحد، هو رحم الأدمية والإنسانية، ذلك الأمر الذي يجب أن يكون باعثاً لهم على التعاطف والتراحم، لا على التقاطع والتلاحم، وهذه النداءات الأربعة هي الوحيدة من نوعها الواردة في كتاب الله بهذا الوصف الجامع ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ﴾، أحدها سيرد في الربع القادم، وهو قوله تعالى: ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُّسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

والثلاثة الباقية منها واردة في هذا الربع:

﴿يَبْنِيْ عَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسَ التَّقْوَى، ذَلِكَ خَيْرٌ، ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

﴿يَبْنِيْ عَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا﴾ - الآية - .

﴿يَبْنِيْ عَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾.

الربع الثاني من الحزب السادس عشر
في المصحف الكريم

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ
الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ
وَإِلْتِمَاسَ الْبَغْيِ وَالتَّبَغْيِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا
وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا
جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَجِرُّونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٨﴾ يَبَيِّنُ
ءَادَمَ إِمَامًا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِهِ فَمَنِ اتَّقَى
وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٩﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٠﴾
فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ
أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكَيْدِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا

يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا
ضَلُّوا عَنْنَا وَشَهِدُوا عَلَيَّ أَنْفُسِهِمْ وَأَنْتُمْ كَانُوا بِفِرْيَانٍ ﴿٢٧﴾
قَالَ ادْخُلُوا فِيهِ فِي أُمَّمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي
الْبَارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ آخِنَهَا حَتَّىٰ إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا
قَالَتْ أَخْرِجْنَهُمْ لِأَوْلِيئِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَعَاتِبْهُمْ عَذَابًا
ضِعْفًا مِنَ الْبَارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾
وَقَالَتْ أَوْلِيئِهِمْ لِأَخْرِيئِهِمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا
العَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ
الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَأْتِيَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي
الْمُجْرِمِينَ ﴿٣٠﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ
وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِمُ مِنْ تَحْتِهِمُ
الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ
لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ

وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾
 وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا
 حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ
 بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ
 سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا
 حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا
 أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ لَمَّا دَخَلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾

الربع الثاني من الحزب السادس عشر في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب السادس عشر في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ إلى قوله تعالى في نهاية هذا الربع: ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْنَا، لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾.

وهذا الربع يتحدث أكبر عدد من آياته الكريمة، عن مشاهد يوم القيامة وأهوالها العظيمة، فيصف أحوال أصحاب الجنة وأصحاب النار، ويعرض ما يتبادلونه الفريقان من النداءات والأحاديث والحوار.

ولفهم الآيات الأولى في هذا الربع، وربطها بما سبقها، نرى من المناسب أن نعود إلى بعض آيات الربع الماضي، فقد رأينا فيه كيف امتن الحق سبحانه وتعالى على عباده بما مكّنه في الأرض من حياة واستقرار، إذ جعلها مسخرة لهم، ووضعها تحت تصرفهم، ولاءم بين طبيعتها وطبيعتهم، وآتاهم فيها من أسباب الكسب ووسائل العيش ما يطيب معه القرار، وإن كان شكرهم لله لا يتناسب مع واسع عطائه، وكثرة نعمه وآلائه ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ

فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْيِشَ، قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾. كما رأينا فيه كيف امتن سبحانه وتعالى على عباده بما خصهم به دون غيرهم من بقية المخلوقات، من نعمة الستر، وما آتاهم من المواد الصالحة لاستعمال اللباس الذي يوارى سواتهم، ويستر عوراتهم، وما أكرمهم به من الرياش والمتاع والأثاث زيادة في التوسعة عليهم، حتى يستوفوا حظهم، في العيش الكريم، من الضروريات والحاجيات والكماليات، ثم ما أعدّه لهم من لباس التقوى الذي هو أبهى لباس وأشرف حلة يتزين بها عباده المتقون ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْءَ نِيَّتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسَ التَّقْوَى، ذَلِكَ خَيْرٌ، ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ ﴿١١﴾ وإلى مثل هذا المعنى يشير قوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ، وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأُوبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمَتَعًا إِلَى حِينٍ﴾ ﴿١٢﴾. ودعا الحق سبحانه وتعالى عباده إلى أن يُظهروا نعمة الله عليهم فيتجملوا ويتزينوا، ولا سيما في مواطن الخير، كبيوت الله والمناسبات الدينية وما شابهها ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ ﴿١٣﴾، كما دعاهم سبحانه إلى أن يقبلوا على مائدته الكريمة، ليتناولوا منها ما لذ وطاب، لكن حذرهم في نفس الوقت من مَغَبَّةِ الإسراف في الأكل والشراب، حفظاً لصحتهم الغالية، وإعانة لهم على القيام بواجباتهم الدينية والدنيوية، ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا، وَلَا تُسْرِفُوا، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿١٤﴾ قال بعض السلف: جمع الله الطب كله في نصف آية ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ ﴿١٥﴾.

وبعدما لفت كتاب الله في الربع الماضي أنظار عباده إلى المنن التي امتن عليهم بها، ودعاهم إلى التمتع بها دون إسراف ولا إفراط، توجه الخطاب الإلهي في هذا الربع إلى الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام، داعياً إياه إلى التصدي بالرد على كل من يَدْعُونَ الناس إلى أن يعيشوا عيشاً غير كريم، والرد على كل من يَدْعُونَهُمْ إلى أن يظهروا في المجتمع بمظهر دميم، مبيناً لرسوله أن ذلك منهم مجرد تقوُّل على الله وادعاء، ومحض افتراء، فقال تعالى مخاطباً لنبيه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ أي أن الله تعالى أباحها، ودعا عباده إلى استعمالها، وما دام الحق سبحانه هو وحده المختص بالتحليل والتحريم وقد أحلها ولم يجرمها، فليست إذن بحرام.

ومما يستلفت النظر تعبير الآية الكريمة هنا بكلمة ﴿زِينَةَ اللَّهِ﴾ على حد التعبير الوارد في آية أخرى بكلمة ﴿فَطَرَتَ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾. ف ﴿فَطَرَتَ اللَّهُ﴾ وهي الإسلام تنسجم مع ﴿زِينَةَ اللَّهِ﴾ تمام الانسجام، والتزمت والرهبانية والحرمان إنما هي بدع ابتدعها المنحرفون عن الفطرة السليمة، من أتباع الملل والمذاهب السقيمة.

وقوله تعالى هنا: ﴿الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ تنبيه إلى أن الحكمة الإلهية فيما خلقه الله من زينة وطيبات إنما هي إكرام الإنسان بسد حاجاته الضرورية، والترفيه عليه بشتى المتع والهبات الكمالية، على حد قوله تعالى في آية أخرى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ يقتضي أن الحباث من الرزق حرام وغير حلال، ومن أجل ذلك وصف الله رسوله في كتابه بقوله: ﴿وَيَجِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ﴾ ومن الرزق الخبيث ما كان حاصلًا عن سرقة أو اختلاس أو غصب أو كسب غير مشروع.

ثم عقب كتاب الله على هذه الحقيقة الدينية بالتلويح إلى حقيقة كونية قائمة، ألا وهي أن زينة الله ورزقه يشترك في تناولها والانتفاع بهما في هذه الحياة الدنيا المومن والكافر، والبرُّ والفاجر، بمقتضى حكمته الإلهية، ورحمته الربانية، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ - ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾. لكن إذا كانت الشركة في زينة الله ورزقه قائمة في هذه الدنيا، فإن هذه الشركة ترتفع وتزول، ولا يبقى لها أي أثر في الدار الآخرة، إذ هناك ينفرد المؤمنون وحدهم دون الكافرين بزينة الله ورزقه الأعظم انفراداً تاماً، تمييزاً لهم وإكراماً، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا مخاطباً لنبيه ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «يعني أن الكفار يشاركون المومنين في استعمال الطيبات في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة خلصت للمومنين في النعيم، وكان للكفار العذاب الأليم».

ومن هنا انتقل كتاب الله إلى تفعيد قاعدة أساسية تستحق أن نقف عندها وقفة خاصة، إذ تعتبر هي المعيار الوحيد الذي حدده الشرع لتمييز الحلال من الحرام، وذلك قوله تعالى مخاطباً لنبيه ومُلقنًا

إياه: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ، وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وبموجب هذه الآية أعلن الحق سبحانه وتعالى أنه لم يحرم على خلقه شيئاً من الطيبات، فقد أحلها لهم جميعاً، وإنما حرّم عليهم الخبائث، الخبائث بطبيعتها، والخبائث بآثارها، ومنها الفواحش، و«الفاحشة» هي ما يشتد قبحه من الذنوب كما عرفها الإمام الزجاج، سواء كان الذنب عبارة عن عقيدة فاسدة، أو عن قول فاسد، أو عن عمل فاسد، فالعقيدة الفاسدة كأن يشرك الإنسان بالله غيره ﴿ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾، والقول الفاسد كأن يتقول على الله ما لم يقل، ﴿ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾، والعمل الفاسد كأن يصلي بالمسجد أو يطوف بالكعبة وهو عريان، وإلى هذا أشارت الآية الكريمة من قبل في هذه السورة ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا، قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ وكان يرتكب الإنسان فاحشة الزنى، أو فاحشة اللواط، أو يتزوج بزوجة أبيه، وإلى المثال الأول أشار قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾، وإلى المثال الثاني أشار قوله تعالى في سورة النمل: ﴿ وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾، وإلى المثال الثالث أشار قوله تعالى في سورة النساء ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ، إِنَّهُ أَنْ فَحِشَةً وَمَقْتًا، وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾.

ومن الثابت في الكتاب والسنة أن الطاعات التي يرضى عنها

الله ورسوله هي عبارة عن المعتقدات والأقوال والأعمال الصالحة، التي تتحقق عن طريقها سعادة الفرد، ورفاهية المجتمع، واستقرار الدولة، طبقاً للتخطيط الإلهي الذي لا يخل، والتوجيه السماوي الذي لا يضل، وبعكس ذلك المعاصي والذنوب التي يحذّر منها الله ورسوله، فهي تلتقي كلها في نقطة واحدة: فساد الفرد، وفساد المجتمع، وفساد الدولة، وما من معتقد أو قول أو فعل حرّمه الله ورسوله إلاّ ويتبين عند تحليله وتعيينه أنه عامل من عوامل الشقاء والفناء، ولو لم يتبين أثره إلاّ بعد مرور الأيام، إلاّ أن المعاصي والذنوب ليست على درجة واحدة، فمنها ما ضرره أقل، ومنها ما ضرره أكثر، ومنها ما ضرره قاصر على مرتكبه وحده، ومنها ما ضرره يقع على مرتكبه ويتعداه إلى الغير، ومن أجل ذلك كان في الذنوب ما هو من قبيل «الصغائر» وما هو من قبيل «الكبائر»، وقد أوضح الإمام الغزالي أنه ما من ذنب إلاّ وهو كبير بالإضافة إلى ما دونه، وصغير بالإضافة إلى ما فوقه. ومن اختيارات الإمام الحليني: أنه ما من ذنب إلاّ وفيه صغيرة وكبيرة، وقد تنقلب الصغيرة كبيرة بقريئة تُضمُّ إليها، وتنقلب الكبيرة فاحشة بقريئة تضم إليها، إلاّ الكفر بالله، فإنه أفحش الكبائر، وليس من نوعه صغيرة، مثال ذلك: القبلة يفعلها الرجل مع غير أهله تعتبر من الصغائر، لكن إذا فعلها مع زوجة جاره أصبحت من الكبائر، لمضاعفة ذنب القبلة بهتك حرمة الجوار، ومثال آخر: إذا زنى الرجل بامرأة يكون قد ارتكب كبيرة، فإن زنى بزوجة جاره كان قد ارتكب فاحشة، وهي أعلى درجات الكبيرة، لمضاعفة ذنب الزنى بالاعتداء

على عرض الجار، ورد في الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود أنه سأل رسول الله ﷺ أي الذنب أعظم، فقال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك. قلت ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك. قلت ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك. وهكذا يكون ترتيب الذنوب والمعاصي حسب التدرج من الأدنى إلى الأعلى، صغائر، ثم كبائر، ثم فواحش.

ويشهد لوجود هذه الأصناف الثلاثة من الذنوب عدة آيات وردت في كتاب الله، منها قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿وَيَقُولُونَ نَبْؤُنَا مَالٍ هَذَا الْكِتَابُ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أُحْصِيهَا، وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ وقوله تعالى في سورة النجم في وصف المومنين ﴿وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى، الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ قال ابن كثير: وهذا استثناء منقطع، لأن اللمم من صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال.

وقوله تعالى هنا: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾ بعد ذكر الفواحش وإعلان تحريمها بصفة عامة تنبيه إلى أن الإسلام لا يكتفي من معتنقيه بالشكليات والظواهر، ولا يرضى منهم بالنفاق، وإنما ينفذ إلى الأعماق والبواطن، فالنية الفاسدة والقصد السيء والخلق المرذول الذي ينطوي عليه الشخص باطناً، والعمل القبيح الذي يتستر به عن الأعين، كل ذلك يعتبره الإسلام ذنباً ومعصية وفاحشة يؤاخذ بها المكلف، مثل ما يؤاخذ بالفواحش الظاهرة، والإسلام حريص على أن يكون الظاهر عنوان الباطن بالنسبة

للمسلم، لا أن يكون ظاهره مجرد واجهة براءة تخلب الأبصار، وتخدع الأغرار، وفي نفس هذا المعنى سبق قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾ وقوله تعالى في نفس السورة: ﴿وَذَرُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾.

وقوله تعالى هنا: ﴿وَالِإِثْمِ وَالْبَغْيِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ نبه القاضي أبو بكر (ابن العربي) إلى أن ذكرهما بالاسم الخاص بعد دخولهما في الاسم العام - الفواحش - إنما هو لتأكيد أمرهما قصد الزجر عنها، نظير قوله تعالى في آية أخرى: ﴿فِيهِمَا فَكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ فذكر النخل والرمان بعد دخولهما في الاسم العام - الفاكهة - للتنويه بهما في نفس المقام، «والإثم» عبارة عن الذم الوارد في الفعل، أو عبارة عن نفس الوعيد الذي يتناول الفعل، «والبغي» تجاوز الحد والتعدي على الغير، فكل فعل ذمه الشرع واستقبحه، أو ورد في شأنه الوعيد بالعقاب على لسان الشارع يعتبر فعلاً محرماً، وفسر بعضهم «الإثم» بأنه الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه، و«البغي» بأنه الخطايا المتعدية منه إلى بقية الناس، وقوله تعالى هنا: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ تنبيه إلى أن معيار البغي والظلم الذي يميزه عن غيره هو أن يكون عملاً غير مستند إلى أيّ سند من الحق، لا أن البغي منه ما يكون بحق، ومنه ما يكون بغير حق، فذلك بعيد عن التصور. جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «لا أحد أغبر من الله، ولذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن». وروى الإمام أحمد بسنده إلى عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يقول: «يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب، فإن لها من الله طالباً» ورواه

النسائي وابن ماجه من طريق سعيد بن مسلم. وروى الطبراني بسنده إلى سعد بن جنادة قال: «لما فرغ رسول الله ﷺ من غزوة حُنَيْنِ نزلنا قفراً من الأرض ليس فيه شيء، فقال النبي ﷺ: اجمعوا، من وجد عوداً فليأت به، ومن وجد حطباً أو شيئاً فليأت به. قال: فما كان إلا ساعة حتى جعلناه - أي ذلك القفر من الأرض - ركاماً - أي متراكماً بعضه فوق بعض. فقال النبي ﷺ: «أترون هذا، فكذلك تجمع الذنوب على الرجل منكم كما جمعتم هذا، فليتنق الله رجل، ولا يذنب صغيرة ولا كبيرة، فإنها محصاة عليه».

الربع الثالث من الحزب السادس عشر
في المصحف الكريم

وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَرُهُمْ تَلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا
تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَى الْأَعْرَافُ رِجَالًا لَا
يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيْمِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ
تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ
أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ
النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ
اللَّهُ قَالُوا إِنَّا لَنَرِيكَ اللَّهُ حَرَمًا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا
دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِبُهُمْ
كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْدُونَ ﴿٥١﴾
وَلَقَدْ جِئْتَهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ وَيَقُولُ

الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ
شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ
قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ
رَبَّنَا اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ
اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ
تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً
إِنَّهُ وَلَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ
بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ
اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ
نُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا
سُقِنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ
الشَّجَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾
وَالْبَلَدِ الطَّيِّبِ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ وَيَأْتِي رِيحَهُ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ
إِلَّا نَجَسًا ۗ كَذَٰلِكَ نَصْرَفُ الْأَيَّاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾
لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ۗ فَقَالَ يٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ

مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
 عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَبْرِكُ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٦٠﴾
 قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ فِي ضَلَالَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾
 أَبْلِغْكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا
 تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ
 مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ
 فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا
 بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا
 قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ وَأَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾
 قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَبْرِكُ فِي
 سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَقَوْمِ
 لَيْسَ فِي سَفَاهَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾
 أَبْلِغْكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾

الربع الثالث من الحزب السادس عشر في المصحف الكريم

عباد الله

موضوع حصة هذا اليوم هو الربع الثالث من الحزب السادس عشر في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ إلى قوله تعالى في نهاية الربع ﴿قَالَ يَنْقُومِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ، أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾.

في أول هذا الربع يتحدث كتاب الله عن أصحاب الجنة وأصحاب النار، وحديثه عن هذين الفريقين دون ثالث لهما هو المعهود المتعارف من بداية القرآن الكريم إلى نهايته، لكنه يضيف إليهما في هذه السورة بالخصوص «أصحاب الأعراف» الذين باسمهم سميت هذه السورة ﴿سورة الأعراف﴾ فمن هم أصحاب الأعراف هؤلاء؟ وما المراد بكلمة الأعراف؟.

عندما نستفسر معاجم اللغة العربية نجد أن كلمة «أعراف» هي جمع لكلمة «عُرْف» ومن معاني كلمة «عُرْف» المكان المرتفع، وظهر الجبل وأعلاه، ومن معانيه السور الذي يحيط بمدينة أو قصر.

وبقريب من هذا المعنى جاءت كلمة «عَرَفَة» و«عَرَفَات»، الدّالة على الجبل المقدس الذي يقف فيه حجاج بيت الله الحرام قرب مكة المكرمة يوم تاسع ذي الحجة من كل عام. قال ابن جرير الطبري: «والأعراف جمع عرف، وكل مرتفع من الأرض عند العرب يسمى عرفاً».

«فالأعراف» يمكن حملها على أنها مواقع عالية في الدار الآخرة تشرف على الجنة والنار، وهي بمنزلة خط المرور المحروس الذي يمر عليه القادمون من سفر، لرقابتهم والتحقق من هويتهم، وتوزيعهم تبعاً لما معهم من سمات وعلامات، ويظهر من سياق الآيات الواردة في هذا الربع أن مهمة أصحاب الأعراف هي القيام بفرز أهل الجنة من أهل النار عند وصولهم إلى الدار الآخرة، وتوجيه كل من الفريقين إلى مقره الأخير، جنة أو ناراً، بناء على معرفتهم الخاصة بكلا الفريقين، وتمييزهم لهما، بموجب السمات والعلامات التي يحملها كل فريق، بدليل قوله تعالى في نهاية الربع الماضي: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمِيهِمْ، وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْنَا﴾ فهذا يدل على معرفتهم بأصحاب الجنة، وبدليل قوله تعالى في هذا الربع: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمِيهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ وهذا يدل على معرفتهم بأصحاب النار. وقال السدي: «إنما سمي الأعراف أعرافاً، لأن أصحابه يعرفون الناس».

وأصحاب الأعراف هم من أصحاب الجنة، لمكانتهم الخاصة

عند الله، تلك المكانة التي أهلتهم لرقابة الخلائق وفرزها وصرفها إلى مقرها الأخير، فهم يتقدمون إلى أصحاب الجنة بالتهنئة والتحية حيناً ﴿وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ﴾ ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ وهم يتقدمون إلى أصحاب النار بالتنكيت والتبكيك حيناً ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تُسْتَكْبِرُونَ﴾ وهم عندما تقع أبصارهم على أصحاب النار يتبرءون منهم ويبتهلون إلى الله أن لا يجعلهم معهم ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ يعود الضمير فيه على أصحاب الأعراف، وهو إشارة إلى ما يكونون عليه أثناء قيامهم برقابة الخلائق وفرزها، إذ يتأخر دخولهم إلى الجنة حتى ينتهوا من العمل الموكول إليهم، فتلك الفترة بالنسبة إليهم تكون فترة انتظار، وهم في حال فرزهم للناس وتوزيعهم لا يعرفون الوقت المحدد الذي يصل فيه دورهم لدخول الجنة، والنزول في دار القرار، فعلى هذا المعنى ينبغي أن يحمل قوله تعالى في شأنهم ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ كما حققه القاضي عبد الجبار في كتابه (تنزيه القرآن عن المطاعن). وعن الحسن أنه تلا هذه الآية ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ ثم قال: «والله ما جعل ذلك الطمع في قلوبهم إلا لكرامة يريدونها لهم» وقال ابن عباس: «هم يطمعون أن يدخلوها، وهم داخلوها إن شاء الله». وجاء في الأثر أن رسول الله ﷺ سئل

عن «أصحاب الأعراف» فقال: «هم آخر من يُفصل بينهم من العباد، فإذا فرغ رب العالمين من الفصل بين العباد قال: أنتم قوم أخرجتكم حسناتكم من النار، ولم تدخلوا الجنة، فأنتم عتقائي، فارعوا من الجنة حيث شئتم» قال ابن كثير في تفسيره: «وهذا مرسل حسن».

ومن الآيات الكريمة التي تستلقت النظر في هذا الربع ما جاء فيه على لسان أصحاب الجنة في معرض ردهم على أصحاب النار الذين طلبوا منهم أن يفيضوا عليهم من الماء وما رزقهم الله ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكٰفِرِينَ، الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ هَوًى وَلِعِبَاءَ وَاغْرَبْتَهُمُ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا﴾ فها هنا يحدد كتاب الله على لسان أصحاب الجنة تحديداً واضحاً الصفات الحقيقية والمميزة للكافرين، ومن سلك مسلكهم من العصاة الضالين، وهذه الصفات لا تعدو الاستغراق في اللعب واللهو، والمبالغة في الغرور والزهو، إلى أقصى الحدود، فعقائد الدين في نظرهم السخيف عبارة عن خرافات وأوهام، وشعائر الدين في سلوكهم المنحرف عبارة عن طقوس وشكليات، وشرائع الدين في شريعتهم الباطلة عبارة عن جمود وقيود، وحياتهم القصيرة على وجه الأرض هي بداية الحياة ونهايتها، فلا حياة قبلها ولا حياة بعدها. وأناس سخفاء كهؤلاء يحملون هذه الأفكار البليدة، منحرفين عن فطرة الله، متمردين على نواميسه الخلقية بدءاً ونهاية، لا جزاء لهم إلا الحرمان في الآخرة بعد الخسران في الدنيا ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكٰفِرِينَ﴾.

بينما المومنون الصادقون الذين أسلموا وجوههم لله، فأمّنوا

بدينه، وقاموا بممارسة شعائره، وتطبيق شرائعه، واستعدوا للآخرة بالعمل الصالح، دون أن ينسوا نصيبهم من الدنيا جازاهم الحق سبحانه وتعالى خير الجزاء، وخصَّهم دون غيرهم في الآخرة بالسعادة والهناء، مصداقاً لما سبق في الربع الماضي ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، والمراد أن الطيبات من الرزق يتمتع بها المومنون في الحال والمآل، أما من نال شهوته عاجلاً، وعاقبة النار آجلاً، فما ظنُّه «نعمة» ينقلب عليه «نقمة».

ثم عقب الحق سبحانه وتعالى على جواب أصحاب الجنة لأصحاب النار بما يؤيده ويؤكد، قائلاً في شأن أصحاب النار: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسِيهِمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِثَابِتِينَ يَجْحَدُونَ﴾ ومعنى هذه الآية الكريمة أن الكافرين جحدوا آيات الله من جميع الوجوه، وتجاهلوا لقاء يوم القيامة تجاهلاً تاماً، حتى كأنهم أصيبوا بالذهول والنسيان، فلم يستعدوا ليوم القيامة لا بإيمان ولا بإسلام ولا بإحسان، فعاملهم الله بالمثل، جزاء وفاقاً، إذ حرمهم من إحسانه وثوابه، وأعدَّ لهم شديد عقابه، وهذا هو المراد من لفظ النسيان، المسند مجازاً إلى الرحمن، في قوله تعالى هنا: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسِيهِمْ كَمَا نَسُوا﴾ وفي قوله تعالى في آية ثانية ﴿الْيَوْمَ نَنسِيكُمْ كَمَا نَسَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ وفي قوله تعالى في آية ثالثة ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ فهو من باب المقابلة، وعلى طريق المشاكلة، وإلّا فالحق سبحانه وتعالى قد أحاط بكل شيء علماً، بحيث لا يشدُّ عن علمه شيء، ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾. قال القاضي عبد الجبار: «ربما قيل في قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسِيهِمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ كيف

يصح؟ والنسيان على الله تعالى لا يصح. وجوابنا أن المراد: فالיום لا نجازيهم بالحسنى كما لم يحسنوا بالطاعة، وأهل اللغة يستعملون النسيان بمعنى الترك، وحقيقته ما ذكرناه».

وانتقلت الآيات الكريمة إلى وصف ما يكون عليه حال الكافرين ومن لَفَّ لَفَّهُم من المنحرفين الضالين، من استهتار بالتعاليم السماوية، رَغْمًا عن شدة وضوحها، وخروج على التوجيهات الإلهية، رَغْمًا عن دقة تفصيلها - نظراً لما يداخلهم من تردد في صدق محتوياتها، ومن شك في فعالية توصياتها - حتى إذا ظهرت آثار انحرافهم عنها في الوجود، وأصبحت على مرأى منهم ومسمع، في حيز الواقع وعالم الشهود، فوجئوا مفاجأة كبرى بأن ما كان مجرد «غيب» موعود به في القرآن، قد أصبح حقيقة قائمة ماثلة للعيان، وعندما يأتي ذلك اليوم لا يسعهم إلا أن يعودوا على أنفسهم باللوم، وذلك قوله تعالى في هذا الربع: ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ، هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ، هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ، يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ أي يوم يقع عياناً ومشاهدة ما أُنذروا به من العقاب والعذاب ﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ، فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ ثم يعلق كتاب الله على موقف أولئك المترددين الشاكين بالأمس، والمبهوتين المبلسين اليوم، قائلاً: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

وها هنا آيتان كريمتان لا بدَّ من لفت النظر إليهما لتعلقهما بأدب الدعاء والذكر، وهما قوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا

وَحُفْيَةً، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٠﴾، وقوله تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا، إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

ففي الآية الأولى يبين كتاب الله للمؤمنين كيف ينبغي أن يدعوا ربهم ويذكروا اسمه، وفي الآية الثانية يبين كتاب الله للمؤمنين كيف ينبغي أن يجمعوا في الدعاء بين الخوف والرجاء، قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «الأصل في الأعمال الفرضية الجهر، والأصل في الأعمال النفلية السر، وذلك لما يتطرق إلى النفل من الرياء والتظاهر والتفاخر، وقد جعل الباري سبحانه في العبادات ذكراً جهرًا، وذكرًا سرًا، لحكمة بالغة أنشأها بها، ورتبها عليها، وذلك لما عليه قلوب الخلق من الاختلاف بين الحالين». ثم زاد قائلاً «أما الذكر بالقراءة في الصلاة فانقسم حاله إلى سر وجهر، وأما الدعاء فلم يشرع منه شيء جهرًا، لا في حالة القيام، ولا في حالة الركوع، ولا في حالة السجود، لكن اختلف العلماء في قول قارئ الفاتحة (آمين) هل يُسرُّ بها أم يجهر». وقال ابن كثير في تفسيره: «قوله تعالى: (تَضَرُّعًا) معناه تذللًا واستكانة، وقوله (وَحُفْيَةً) كقوله: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ الآية». وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء، فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس اربعوا على أنفسكم - أي ارفقوا بها - فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إن الذين تدعون سميع قريب» الحديث.

ثم نقل ابن كثير عن عبد الله بن المبارك عن مبارك بن فضالة عن الحسن قال: «إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به

الناس، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزُّور - أي الزوار - وما يشعرون به، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت، وإن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ اذْعُوا رَبُّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ .

وفي القسم الأخير من هذا الربيع تناولت الآيات الكريمة قصة نوح عليه السلام وما وصفه به قومه من الضلالة، وقصة هود عليه السلام وما وصفه به قومه من السفاهة، وذكرت الرد المهذب الجميل الذي رد به كل منهما على ما وُجِّه إليه من قُدح وتجريح، صيانة للدعوة الإلهية أن تحمل على غير محلها الصحيح، إذ قال نوح لقومه ﴿ قَالَ يَتَقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ، وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ، أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأُنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . وقال هود لقومه: ﴿ قَالَ يَتَقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ، وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ، أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ .

قال القاضي عبد الجبار: «وهذه الجملة يعرف بها رفق الأنبياء وحسن دعائهم إلى الدين، وفيها إذا تأملها المرء ما يعتبر به ويُعرَّف آداب الأنبياء صلى الله عليهم وسلم في الدعاء إلى الدين، وصبرهم على ما نالهم من الأمم، فيقتدي بهم» .

الربع الأخير من الحزب السادس عشر
في المصحف الكريم

أَوْعَجِبْتُمْ

أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ
وَازْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ
وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَذُكِّرُوا آءَالَءَ اللَّهِ
لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴿٦٦﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ
وَنَدْرَ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ يَا أَبَاؤُنَا فَاتَّبِعْنَا تَعِدْنَا إِنْ كُنْتَ
مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦٧﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ
رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ
وَيَا أَبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا
إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنظِرِينَ ﴿٦٨﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ
بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا
مُؤْمِنِينَ ﴿٦٩﴾ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا

اللَّهُ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ عَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَ تَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّنْ
 رَبِّكُمْ ۖ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ ۖ فذَرُوهَا تَاكُلْ فِيهَا
 أَرْضَ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿٧٦﴾
 وَإِذْ كُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ
 فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ
 الْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَادْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي
 الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ
 قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا مِنْهُمْ آمِنَ مِنْهُمْ وَاتَّعَمُونَ أَلَّا
 صَالِحًا مَّرْسَلٌ مِّنْ رَبِّهِ ۖ قَالُوا إِنَّا بِنَاءٍ أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٨﴾
 قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٩﴾
 فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصَلِحُ
 بَيْنَنَا وَمَا نَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ
 الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٨١﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ
 وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولًا مِنْ رَبِّي وَنَصَحْتُ
 لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ ﴿٨٢﴾ وَلَوْ طَآ إِذْ
 قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَلْحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا

مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ إِنَّكُمْ لَتَاتُونَ الرِّجَالَ
 شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨٧﴾
 وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ۚ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ
 قَرْيَتِكُمْ ۖ وَإِنَّهُمْ وَأُنَاسٌ يَنْطَهَرُونَ ﴿٨٧﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ
 وَأَهْلَهُ ۚ وَإِلَّا بَأْمَرَاتِهِ ۖ وَكَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٨﴾ وَأَمْطَرْنَا
 عَلَيْهِمْ مَطَرًا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٩﴾
 وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا
 لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّنْ
 رَبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا
 النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ۖ وَلَا تفسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ
 إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٥﴾
 وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ
 عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنۢ - آمَنَ بِهِ ۖ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَذُكِّرُوا
 إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمُّ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ
 عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩٦﴾ وَإِنْ كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا
 بِأَلْحَمِّ أُرْسِلَتْ بِهِ ۖ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا

حَتَّىٰ يَمُوكُمْ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٢٧﴾

الربع الأخير من الحزب السادس عشر في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب السادس عشر في المصحف الكريم ابتداءً من قوله تعالى: ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

مما يستحق التنبيه في بداية هذا الربع أن الآيات الأولى منه استمرار في حكاية قصة هود مع قومه عاد، وتتمة لرده عليهم، وتذكيره إياهم. والذي يقرأ قصة نوح وقصة هود يتمعن وتأمل في نهاية الربع الماضي وبداية هذا الربع، ثم يقرأ ما سيرد في ثنايا هذه السورة الكريمة ﴿سورة الأعراف﴾ من قصص بَقِيَّةِ الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، يرى رأي العين أن كتاب الله أراد أن يكشف الستار عن جملة من الحقائق كلها تستحق النظر والاعتبار، فمن تصوير لوحدة العقيدة في الرسائل كلها أولاً، ومن تصوير لوحدة طبيعة الإيمان ووحدة طبيعة الكفر ثانياً، ومن تصوير للغفلة عن النذر وإهمال للشكر على نعمة الاستخلاف في الأرض ثالثاً، ومن تصوير لمصارع المكذبين وكونها تجري على سنة واحدة لا تتبدل ولا تتخلف رابعاً، وها هو كتاب الله يصف لنا دعوة نوح إلى قومه

فيقول: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، ثم يصف لنا دعوة هود إلى قومه بنفس المعنى والأسلوب فيقول ﴿وَأِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا، قَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

وهانحن نرى قوم هود يتعجبون ويستغربون من أن ينزل الوحي على رجل منهم لينذرهم، فيخاطبهم هود، كما في بداية هذا الربع قائلاً: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ على غرار ما قاله نوح مخاطباً لقومه ومستغرباً من استغرابهم كما في الربع الماضي ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

ونفس الشيء نلاحظه في موقف كبراء القوم وسادتهم من هود كما حكاه عنهم كتاب الله ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرِيكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾، وفي موقف كبراء القوم وسادتهم من نوح قبله، كما حكاه عنهم كتاب الله أيضاً ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرِيكَ فِي ضَلَلٍ مُّبِينٍ﴾ فالوقوفان متماثلان إن لم يكونا عبارة عن موقف واحد، ولفظ (الملأ) الوارد هنا وفي سورة سبأ ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ﴾ يطلق في اللغة على القادة والسادة، لما لهم من مكانة وهيبة (تملاً) الأبصار، وتستلقت الأنظار.

ثم يأتي جواب كل من هود ونوح قبله لقومهما على ما رموا به الأول من سفاهة، وما رموا به الثاني من ضلالة، على نمط متشابه ومتقارب، إن لم يكن واحداً، فيرد نوح على قومه: ﴿قَالَ يَنْقُومِ

لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ ويرد هود على قومه: ﴿ قَالَ يَتَقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

وكما تصف قصة نوح تكذيب قومه له، ومصرعهم بعد الإصرار والاستكبار، ونجاته ومن معه من المومنين، ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ، وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾ تصف قصة هود تكذيب قومه له، ومصرعهم بعد الإنذار الأعذار، ونجاته ومن معه من المومنين ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ﴾ - ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا، وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ .

وعندما تنتهي قصة هود مع قومه عاد، وتبتدىء قصة صالح مع قومه ثمود نجد نفس المواقف ونفس الانطباعات، فالتشابه تام، والوحدة قائمة، فهي هو صالح يدعو قومه بنفس الدعوة قائلاً: ﴿ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ وكما ذكر هود قومه بنعم الله عليهم، ولا سيما نعمة الاستخلاف في الأرض، عسى أن يشكروا النعم قائلاً: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ أُمَّةٍ بَعْدَ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصِطَةً، فَاذْكُرُوا آيَةَ الْآءِ اللَّهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴾ نجد صالحاً أيضاً يذكر قومه بنعم الله عليهم، طبقاً لنفس الأسلوب إذ يقول: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ أُمَّةٍ بَعْدَ عَادٍ وَبَوَّأْنَاكُمْ فِي الْأَرْضِ أَنْ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا، فَاذْكُرُوا آيَةَ الْآءِ اللَّهُ، وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ .

ونفس الموقف الذي وقفه الملائكة - وهم القادة والسادة - من نوح وهود، يقفه الملائكة من صالح أيضاً، كما حكى كتاب الله ذلك عنهم: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَلَاحاً مُرْسَلٌ مِّن رَّبِّيَ، قَالُوا - أي المومنون المستضعفون - إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ، قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا - وهم الملائكة - إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴾ .

وكما كان مصرع قوم نوح وقوم هود بعد الإنذار لهم والإنكار منهم جاء مصرع قوم صالح بنفس التدريج ونفس الترتيب ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ، وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ ﴾ - ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴾ . وترتيب هذه الآية كما في التلاوة جاء على أسلوب التقديم والتأخير، كما نبه على ذلك القاضي عبد الجبار، وهو مستعمل كثيراً في لسان العرب.

ومغضي الآيات الكريمة في هذا الربع وما بعده فتعرض علينا قصة لوط عليه السلام مع قومه، ولوط هو ابن أخ إبراهيم الخليل عليه السلام، كما تعرض علينا قصة شعيب مع قومه أيضاً، وفي كلتا القصتين نجد ملامح مشتركة مع ما في القصص السابقة لبقية الأنبياء، فعن موقف قوم لوط من نبيهم يقول كتاب الله: ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّن قَرْيَتِكُمْ، إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ ﴾ ، وعن موقف قوم شعيب من نبيهم يقول كتاب الله: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا ﴾ .

وعن مصرع قوم لوط ونجاته دونهم في نهاية الأمر، يقول كتاب الله: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا، فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾.

وعن مصرع قوم شعيب ونجاته دونهم بعد نفاذ الصبر، يقول كتاب الله: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَلْقَوْمٍ لَقَدْ أَبْلَغْتُمْ رِسَالَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ، فَكَيْفَ ءَأَسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ - ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِيمِينَ، الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا، الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾.

وتحدث كتاب الله في هذا الربع عن أكبر فاحشة ارتكبتها قوم لوط وانفردوا بها، تنفيراً منها وتحذيراً، ألا وهي فاحشة الشذوذ الجنسي المعروف باللواط التي لم يسبقهم بها أحد من الناس، والتي طالما أنكرها لوط عليهم وهم متمادون عليها ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِيهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ، إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾، وبنفس هذا المعنى جاءت آية ثانية في سورة العنكبوت: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِيهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ، أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾. وجاءت آية ثالثة في سورة الشعراء في سياق قوله تعالى ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. - أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ، وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾.

قال أبو بكر بن عياش عن أبي جعفر: «استغنت رجال قوم

لوط بوطء رجالهم، واستغنت نساؤهم بنسائهم» ونقله الإمام النووي في كتابه (تهذيب الأسماء واللغات).

وقال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «إن الله أخبر أن قوم لوط كانوا على معاص فأخذهم منها بهذه، وإنما أخذ الصغير والكبير، لسكوت الجملة عليه والجماهير، فكان منهم فاعل، وكان منهم راض، فعوقب الجميع، وبقي الأمر في العقوبة على الفاعلين مستمراً، وإنما ذكر الله هذه المعصية باسم الفاحشة ﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ﴾ ليعين أنها زنى، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنِ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً﴾ ففاحشة اللواط مساوية للزنى في الاسم وهو «الفاحشة»، ومشاركة له في المعنى، لأنه معنى محرم شرعاً، فجاز أن يتعلق به الحد، وذلك للزجر عن الموضع المشتبه، بل هذا أحرم وأفحش، فكان بالعقوبة أولى وأحرى» انتهى كلام ابن العربي.

وقد أحرق مرتكبي هذه المعصية خالد بن الوليد في خلافة أبي بكر الصديق، وأحرقهم عبدالله بن الزبير في زمانه، ثم أحرقهم هشام بن عبد الملك، ثم أحرقهم خالد القسري بالعراق.

ومذهب مالك وجماعة منهم سعيد بن المسيب والنخعي أن مرتكبها يرحم، أحصن أو لم يُحصن، وقد سأل مالك ابن شهاب عن الذي يعمل عمل قوم لوط، فقال ابن شهاب: «عليه الرجم أحصن أو لم يحصن»، ومذهب الشافعي وجماعة أنه يحد حد الزاني، إن كان محصناً فبجزائه وهو الرجم بالحجارة، وإن كان بكرراً فبجزائه

وهو الجلد مائة. قال ابن العربي: «والذي صار إليه مالك أحق، وهو أصح سنداً، وأقوى معتمداً».

أما أخف الأقوال في مرتكب هذه المعصية فهو أن «يعزّر» بدلاً من أن يحد، كما ذهب إليه أبو حنيفة، باعتبار أن هذه المعصية لم يرد فيها حد مخصوص، ولا كفارة معينة، و«التعزير» عقوبة تأديبية، بدنية أو مالية، موكولة لاجتهاد الحاكم. لكن هذا القول الخفيف، خفيف الوزن أمام ما ورد في الحديث الشريف، فقد روي أن رسول الله ﷺ قال: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به» رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه.

والسر في محاربة الدين والأخلاق لهذه الفاحشة النكراء، أنها تحدث انحرافاً في الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وتشويهاً لها بإخراجها عن طريقها، وتؤدي في النهاية إلى تهديد النوع الإنساني بالانقراض تدريجياً، وتعطيل النسل من أصله، حيث أن هذه الفاحشة تعطل طاقة الاخصاب عند صاحبها عن نشاطها الأصلي، وتضيع طاقته في غير جدوى ودون ثمرة، لا للفرد ولا للمجتمع، وذلك مؤدٍ بطبيعته إلى القضاء على أصل من الأصول الأساسية للملّة، وهو حفظ النسل الذي يصونه الشرع بكل الوسائل.

قال حجة الإسلام الغزالي في كتابه الأحياء: «لو اجتمع الناس على الاكتفاء بالذكر في قضاء الشهوات لا تقطع النسل، ورفع الوجود قريب من قطع الوجود» وبين الغزالي في نفس السياق «أن فاحشة اللواط أخطر من فاحشة الزنى بهذا الاعتبار، لأن الزنى

لا يفوت أصل الوجود كما يفوته اللواط، وإن كانت الشهوة داعية إلى الزنى من الجانبين الذكر والأنثى، وإن كان الزنى يشوش الأنساب ويخلطها، ويفوت على الناس تمييزها».

وهكذا منذ ظهر الدين وعرفت الأخلاق، ظلت الدعوة قائمة مستمرة لحماية المومنين من مظاهر الخزي والعار، وتطهير المجتمع من مثل هذه الأوساخ والأقذار، حتى يكون مجتمعاً فاضلاً، متمسكاً بالفطرة، نقياً من الموبقات والأوزار.

الربع الأول من الحزب السابع عشر في المصحف الكريم

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ
 ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُدُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا
 كَرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ
 بَعْدَ إِذْ بَخَّيْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ
 يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا
 افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ
 الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِيَنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا
 لَحَسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٩١﴾
 الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا
 كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ
 أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولًا مِنْ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَابَسِي

عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا
 أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا
 مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا
 الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾
 وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُبْرِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّن
 السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٩﴾
 أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُبْرِ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٢٠﴾
 وَأَمِنَ أَهْلُ الْقُبْرِ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٢١﴾
 أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ
 الْخَاسِرُونَ ﴿٢٢﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ
 أَهْلِهَا أَن لَّوْ شَاءَ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى
 قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ تِلْكَ الْقُبْرِ نَقْصُ
 عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ
 فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَلِكَ
 يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ
 مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ

بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ
 فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١١٣﴾
 وَقَالَ مُوسَىٰ يَفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٤﴾
 حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ
 مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١١٥﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ
 بِآيَاتٍ فَاتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا
 هِيَ تَدْبِيبُ مَبِينٌ ﴿١١٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ وَفِإِذَآ هِيَ بِضَاءٍ لِلنَّظِيرِينَ ﴿١١٨﴾
 قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَظِيمٌ ﴿١١٩﴾
 يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١٢٠﴾
 قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١٢١﴾
 يَا تُوكَ بِكُلِّ سِحْرِ عَظِيمٍ ﴿١٢٢﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا
 إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١٢٣﴾ قَالَ نَعَمْ
 وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا
 أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١٢٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ
 النَّاسِ وَاسْتَغْبُوهُمْ وَجَاءَ وَبِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿١٢٦﴾

الربع الأول من الحزب السابع عشر في المصحف الكريم

عباد الله

موضوع حصة هذا اليوم هو الربع الأول من الحزب السابع عشر في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا، قَالَ أُولَئِكَ كَفَرِينَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَتَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرَهُبُوهُمْ، وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴾.

في بداية هذا الربع تشير الآية الكريمة إلى الملأ من قوم شعيب وهم كبار قومه وسادتهم، وتلفت النظر إلى أن العامل الأساسي في إصرارهم على الباطل كغيرهم من المبطلين، وفي مقاومة ما جاء به نبيهم شعيب عليه السلام هو ما كانوا عليه من الأنفة والكبر والصلف، وما يتوقعونه من أن يصبحوا مجرد تابعين للنبي شعيب بعدما كانوا سادة متبوعين. والشأن في المتكبرين وذوي الرياسات الزائفة دائماً أن يركبوا رؤوسهم، وأن لا يفتحوا آذانهم لسماع كلمة الحق، ولا قلوبهم لتقبلها والرضى بها، ولو كانت لصالحهم ونفعهم عاجلاً وآجلاً ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ ﴾ ونلاحظ في نفس الآية نوع التهديد

الذي هددوا به شعيباً وصحبه، فهو التهديد بالنفي والابعاد عن الوطن، كما هدد قوم لوط لوطاً وأهله من قبل، ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ، إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ فهاهم قوم شعيب يقلدونهم ويهددونه بنفس الأمر ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا﴾ مما يدل على أن البشر قد عرفوا هذا النوع من العقوبات منذ عهد قديم، وذلك حرصاً منهم على أن تبقى دار لقمان على حالها، فتستمر رياستهم الزائفة قائمة، ويبقى استغلالهم الفاحش مستمراً، إذ مِنْ أَمِّهِمْ مَا أَخَذَهُمْ بِهِ نَبِيهِمْ شَعِيبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَطْفِيفُهُمْ فِي الْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ، وَأَكْلُهُمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، وَإِفْسَادُهُمْ فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا، أَلَمْ يَقُلْ لَهُمْ، كَمَا سَبَقَ فِي الرَّبْعِ الْمَاضِي مَنذِراً وَمَحذِراً ﴿فَاوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ، وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

وكتاب الله عندما عرض هذه القصة كشأنه في غيرها من القصص، إنما عرضها للاعتبار وضرب المثل بالنسبة لكافة المؤمنين، فليس الأمر بتوفية الكيل والميزان، وليس النهي عن بخس الناس أشياءهم واستغلالهم استغلالاً فاحشاً، وليس التحذير من الإفساد في الأرض بعد إصلاحها، مجرد تعليمات سماوية، وتوجيهات إلهية، قاصرة على قوم شعيب دون مَنْ دُونَهُمْ، بحيث يعتبر غيرهم في جِلِّهَا، بل هي تعليمات عامة وتوجيهات أبدية إلى كافة المؤمنين في جميع العصور والأجيال. ووصف «الإيمان» المشترك بين كافة المؤمنين يقتضيها ويتضمنها، ولا يسمح بما يضادها أو يناقضها،

﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ . والعقاب الذي عاقب الله به قوم شعيب على هذه المخالفات قائم إلى يوم الدين بالنسبة لغيرهم كما كان بالنسبة إليهم، وإنه لواقع، ماله من دافع، وإن كان نوع العقاب الإلهي لمن سلك مسلكهم في هذا الجيل من نوع آخر، فأنواع العقاب الإلهي لا تحصى عدداً. قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «إنما أذن الله سبحانه في الأموال بالأكل بالحق، والتعامل بالصدق، وطلب التجارة بذلك، فمتى خرج عن يد أحد شيء من ماله بعلمه لأخيه فقد أكل كل واحد منها ما يرضي الله ويرضيه» والعكس بالعكس.

وبعدما هدد كبار قوم شعيب نبيهم وصحبه بعقوبة النفي والابعاد من الوطن التي تمس أدق الأحاسيس في قلب المواطن، وتحرمه من أول أرض تنفس فيها ومس جلدته تراها، عادوا إليه وإلى المومنين من صحبه، ليساوموهم على التنازل عن عقيدتهم، ويدعوهم إلى مهادنتهم ومداهنتهم في عقائدهم الباطلة، وإلى غض الطرف عن تصرفاتهم الطائشة، وذلك ما يشير إليه قولهم فيما حكاه كتاب الله عنهم ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ وهذا الخطاب منهم موجه بالأصالة إلى أصحاب شعيب الذين كانوا فارقوا دين قومهم، وخرجوا عن ملّتهم، وآمنوا بشعيب، أما شعيب عليه السلام نفسه فلم يكن على ملّتهم حتى يعود إليها، إذ عصمه الله منها، وغاية ما يطلبون منه أن يكف عن دعوة الناس إلى الرسالة الجديدة التي جاء بها من عند الله، غير أن شعيباً رد عليهم بأن رجوع الذين آمنوا عن عقيدتهم الصحيحة إلى الملة الضالة التي فارقوها أمر متعذر،

مقررأ لهم حقيقة ذلك المبدأ الاعتقادي الأصيل الذي أنزله الله من فوق سبع سماوات، ألا وهو مبدأ (لا إكراه في الدين) المعبر عنه في لسان هذا العصر بحرية الاعتقاد، وهكذا أجابهم شعيب قائلاً: ﴿ قَالَ أُولُو كُنُفٍ كَرِهِينَ ﴾ أي أتعيدون المومنين برسالتي إلى ملئتكم الباطلة بعدما كرهوها ومقتوها وآمنوا بالله، إنه لا حق لأحد في أن يفرض معتقده على الغير بالقهر والإكراه، أتساوموني على أن أدع رسالة ربي لأقر ملئتكم الباطلة، إنه لا سبيل إلى ذلك، ولا سلطة تستطيع أن تفرض علينا التصديق بما هو كذب وافتراء، واتباع ما هو ضلال وباطل، ﴿ قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهُ مِنْهَا ﴾، وأخيراً قطع شعيب لكبراء قومه الضالين كل أمل في المساومات والتهديدات قائلاً: ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا ﴾.

وقوله هنا ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ ليس المراد به تجويز عودة أصحاب شعيب إلى الملة الضالة التي فارقوها، ولا احتمال تنازل شعيب عن الرسالة المأمور بتبليغها عن الله، وإنما المراد أحد أمرين، إما استبعاد ذلك بالمرّة عن طريق تعليقه بالمشيئة الإلهية، وشعيب يعلم علم يقين أن الله لا يرضى لعباده الكفر، وأنه يعصم رسله من الناس، وذلك على غرار قوله تعالى فيما سبق: ﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ إذ ليس معنى هذه الآية أن الجمال سيدخل في عين الإبرة وهي سم الخياط، وأن الذين كذبوا واستكبروا سيدخلون فعلاً الجنة عندما يدخل الجمال عين الإبرة، وإنما معناه قطع كل أمل لهم في دخول الجنة، بذلك الأسلوب

المدهش، الذي يفتح باب الطمع أولاً، ليقفله في وجوه الطامعين أخيراً، فتكون حسرتهم أعظم، وخسيتهم أشد.

وإما انه من باب الأدب مع الله تعالى في تعليق كل شيء بمشيئة الله، على غرار قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا، إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ جرياً مع العقيدة الإيمانية العامة والأصيلة في دين الله: (ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن).

ومضى شعيب والمؤمنون معه في طريقهم السوي معتمدين على الله، دون أن يعبأوا بما تعرضوا له من المساومة والتهديد والإكراه، متحمّلين في سبيل نشر الهداية، كل أذى من أهل الغواية، ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا، رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ، وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾.

ومما يلاحظ في هذا السياق أمران اثنان: أولهما ما قدح به كبار قوم شعيب في الذين آمنوا به من قومه، إذ واجهوهم، مؤكدين لهم بجميع وجوه التأكيد أنهم بسبب اتباع شعيب خاسرون ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِيِنَّ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخٰسِرُونَ﴾. وثانيهما ما رد به الحق سبحانه وتعالى عليهم رد صدق وحق، مثبتاً لهم ولمن بعدهم أن صفة «الخسران» التي وصفوا بها شعيباً وصحبه إنما كانت في الواقع من نصيب الملأ الكافرين لا من نصيب المؤمنين، وذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا، الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخٰسِرِينَ﴾ إذ كرر كتاب الله نفس الوصف فأطلقه عليهم وألصقه بهم، وفي مثل هذا المقام يصدق المثل العربي الذائع: «وافق شنُّ طبقة»؛ فما أوفق الكُفران بالخسران.

ولا بد أن نلفت النظر هنا إلى نقطة جوهرية وردت فيما حكاه كتاب الله عن شعيب عليه السلام: ﴿ وَقَالَ يَقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولِي وَنَصَحْتُ لَكُمْ، فَكَيْفَ ءَأَسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ فيها هنا يتحدث شعيب عن النصيحة الخالصة التي لم يزل يسديها إلى قومه، فلم يُعِرْ لها الملام منهم التفاتاً ولا اعتباراً، ونفس الشيء تحدث عنه نوح وهود وصالح من قبل شعيب، كما حكى الله ذلك عنهم جميعاً، فعلى لسان نوح جاء قوله: ﴿ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولِي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وعلى لسان هود جاء قوله: ﴿ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولِي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ وعلى لسان صالح جاء قوله: ﴿ يَقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولِي وَنَصَحْتُ لَكُمْ، وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ ﴾.

وهكذا نجد أن اسداء النصيح إلى الخلق كان شعار الأنبياء والمرسلين واحداً بعد الآخر، وأنهم بذلوا كل المستطاع، بل ما فوق المستطاع، في سبيل هداية الخلق إلى الله وإلى صراطه المستقيم، ولم تزل النصيحة ديناً متبعاً وسنة متوارثة، إلى أن أنزل الله الوحي على رسوله الكريم، فجدد الأمر بها، وأكدها الذكر الحكيم، وفرض الإسلام بمقتضى نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية تبادل النصيح والإرشاد في شؤون الدين والدنيا على الراعي والرعية. لكن النصيحة لا تعتبر نصيحة في الإسلام إلا إذا كانت خالية من كل غش أو تدليس أو خيانة، وخالصة من جميع الأغراض الشخصية.

ورد في الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ قال: «الدين النصيحة، قلنا لمن يا رسول الله. قال: لله ولرسوله ولأئمة المسلمين

وعامتهم». وفي الحديث الشريف أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث لا يَغْلُ عليهن قلبُ مسلم، إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين، فإنَّ دعوتهم تحيط من ورائهم - رواه أصحاب السنن. وفي الحديث الشريف أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «ما من عبد استرعه الله رعية فلم يَحْطُها بنصيحته إلا لم يجد رائحة الجنة - رواه البخاري في صحيحه في (باب من استرعى رعية فلم ينصح) قال الحافظ ابن حجر: «لم يَحْطُها أي لم يصنها، والاسم الحياطة» ثم زاد قائلاً: «ويحصل ذلك - أي عَدَمُ حياطتهم - بظلمه لهم بأخذ أموالهم، أو سفك دماهم، أو انتهاك أعراضهم، أو حبس حقوقهم، وبترك تعريفهم ما يجب عليهم في أمر دينهم ودنياهم، وبإهمال إقامة الحدود فيهم، وإهمال ردع المفسدين منهم، وترك حمايتهم، ونحو ذلك».

وقال حجة الإسلام الغزالي مبيناً أدب النصيحة: «ينبغي أن يكون ذلك في سر لا يطلع عليه أحد، فما كان على الملأ فهو توبيخ وفضيحة، وما كان في السرف هو شفقة ونصيحة». ثم نقل عن الإمام الشافعي أنه قال: «من وعظ أخاه سراً فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه» وختم كلامه قائلاً: «فالفرق بين التوبيخ والنصيحة بالإسرار والإعلان».

وقول شعيب هنا كما حكى عنه كتاب الله ﴿ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كُفِّرِينَ ﴾ بعد قوله: ﴿ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ يتفق معناه تمام الاتفاق مع قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ، لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلَّ

إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴿﴾ بمعنى أن المومنين إذا استقاموا على الطريقة المثلى كما أمروا، وأدّوا ما عليهم من حقوق الله وحقوق العباد، وفي طليعتها حق إسداء النصح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، ثم أصرّ العصاة على الاسترسال في المعاصي والفواحش دون أن يستجيبوا لنصيحة ولا لإرشاد، فإن أولئك الناصحين لهم بعد أن أدّوا ما عليهم، واستنفدوا وسائل الدعوة والإصلاح التي يملكونها تصبح ذمهم خالية من المسؤولية، ويصدق عليهم وقتئذ قوله تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلَّىٰ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَنبَغِي لِنَفْسِهِ، وَمَنْ ضَلَّىٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾، وقوله تعالى مخاطباً لنبيه: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾.

وبعدما تحدثت الآيات الكريمة عن جملة من قصص الأنبياء وأممهم امتن الحق سبحانه وتعالى على خاتم رسله بما قصه عليه وعلى أمته من أنباء الأمم السالفة وموافقها من أنبيائها السابقين، إذ أن الحكمة في ذلك هي تمكين رسوله وأمته من وسائل التدبير والاعتبار، حتى يكون الرسول وأمته على بصيرة من سنن الله الثابتة في خلقه، التي مهما اختلفت الأعصار والأمصار، فهي تنتج نفس النتائج وتحدث نفس الآثار، ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا﴾ - ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾.

ثم أجمل كتاب الله معركة الحق مع الباطل، وصراع الخير مع الشر، خلال العصور الغابرة، فقال تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِّنْ عَهْدٍ، وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ وواضح أن هذه الآية

تنطبق على كثير من الأمم والشعوب في هذا العصر.
وبين كتاب الله في ثنايا هذا العرض ما أدت إليه خيانة
الحائنين وفسق الفاسقين من قضاء عليهم، وإبادة لأممهم، فقال
تعالى ﴿وَلَكِنَّ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

الربع الثاني من الحزب السابع عشر
في المصحف الكريم

وَأَوْحَيْنَا

إِلَى مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١٣٦﴾
فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٧﴾ فَغُلِبُوا
هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١٣٨﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ
قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٩﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٤٠﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ
ءَا مَننْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ أَدْنَى لَكُمْ لِكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرْتُمْوهُ فِي
الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ نَعْمُونَ ﴿١٤١﴾ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ
وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأَضِلِّبَنَّكُمْ وَأَجْمَعِينَ ﴿١٤٢﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ
رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا نَنقِمُ مِنْآءِ إِلَّا أَنْ- آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا
جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ
مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ
وَيَذَرُكَ وَأَهْلَكَ قَالَ سَنَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ

وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٣٦﴾ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اِسْتَعِينُوا
 بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ
 عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٧﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ
 أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ وَ
 أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ
 فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ
 بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الشَّجَرِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٩﴾
 فَإِذَا جَاءَ تَهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ
 سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ وَأَلَّا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ
 عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ
 أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٤٠﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ
 لِيَتَسَحَّرْنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٤١﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ
 وَالْجُرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالِدَّمَاءَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ
 فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا وَقَعَ
 عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ
 عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ
 وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٤٣﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ

الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَلَغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٣٦﴾
 فَاَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
 وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا
 يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمغربَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا
 وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا
 مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾
 وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ
 عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا آلِهًا كَالَّذِينَ
 كَفَرُوا بِآيَاتِنَا إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ
 فِيهِ وَبَطَلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٨﴾ قَالَ أَغْيِرَ اللَّهُ أْبْعِيكُمْ
 إِلَهُهَا وَهُوَ فَضْلُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ
 فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ
 وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ
 رَبِّكُمْ عَظِيمٌ

الربع الثاني من الحزب السابع عشر في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب السابع عشر في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ، فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكَ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ، وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾.

هذا الربع كله متعلق بقصة موسى وبني إسرائيل من جهة، وفرعون وقومه من جهة أخرى، وهو استمرار لقصة موسى التي ابتدأت في الربع الماضي من قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا، فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾.

وقد استغرقت قصة موسى أكثر من ثلاثة أرباع هذا الحزب السابع عشر، مما يؤكد ما نبهنا إليه في مطلع سورة الأعراف، من أن قصة موسى وفرعون هي أطول قصة وردت في هذه السورة من بين قصص الأنبياء السابقين، ولعل الحكمة في ذلك - والله أعلم -

أن للأمة الإسلامية، وغيرها من الأمم حساباً طويلاً وعسيراً مع بني إسرائيل - علاوة على حساب نبيهم موسى نفسه معهم - بدأ منذ ظهور الرسالة المحمدية، ولم ينته ذلك الحساب حتى الآن، فالله تعالى يريد أن يكون المسلمون أولاً، وغيرهم بالتبع، على بيّنة من أمر بني إسرائيل والأطوار التي تقلبوا فيها جملة وتفصيلاً، حتى يُعدوا العدة لمواجهة دسائسهم، والوقوف في وجه مطامعهم جيلاً فجيلاً، وبديهي أن كتاب الله لا يورد القصص على أنها نوادر وأسمار، وإنما يوردها تنويراً للبصائر والأبصار.

وفي بداية هذا الربع يشير كتاب الله إلى باطل فرعون وسحرته، وما جاؤوا به من سحر عظيم، طمعاً في مال فرعون وزلقى إليه، وإلى أن باطلهم قد زهق أمام الحق الذي أبرزه الله على يد موسى وعصاه ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَيَبْطُلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، فَغَلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ، وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ، قَالُوا ءَأَمْنَا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

ويحكى كتاب الله هول المفاجأة الكبرى التي فوجيء بها فرعون وملاؤه عندما سجد السحرة لله، أمام معجزة موسى، وآمنوا برسالته، فاستنكر عليهم فرعون أن يؤمنوا بموسى دون إذن منه، كأن الإيمان عملية مادية يستطيع الضمير لها دعماً، وكان مفاتيح القلوب في أيدي الطغاة والجبابة يفتحونها متى شاؤوا ويقفلونها متى شاؤوا ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ - اذْنَكُمْ﴾.

واتهم فرعون سحرته بعد إيمانهم بأنهم دبّروا مع موسى مؤامرة لقلب نظام الدولة، وإخراج السلطة من يده ويد أعوانه، كما

حكى عنه كتاب الله قائلاً: ﴿ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ﴾ .

ثم هددهم بعقاب صارم هو عقاب الصّلب بعد قطع الأيدي والأرجل، فقال مخاطباً لهم ﴿ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفِ ثُمَّ لأَصْلَبُنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «هذا يدل على أن الصلب وقطع اليد والرجل من خلاف عقوبة متصلة عند الخلق، تلقفوها من شرع متقدم، فحرفوها، حتى أوضحها الله في ملة الإسلام، وجعلها أعظم العقوبات لأعظم الأجرام، يعني جريمة «الجرابة»، وهي جريمة العبث بالأمن العام، والمساس بأمن الدولة الداخلي، التي عاجلها كتاب الله في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفِ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ، ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

غير أن سحرة فرعون الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم وأدركوا البون الشاسع بين ما كانوا عليه من معتقدات الشرك والوثنية، وعقيدة الإيمان والتوحيد التي تلقوها عن موسى غضة طرية، لم يفتّ في عضدهم تهديد ولا وعيد، ولا صلب ولا تشريد، فأعلنوها صحيحة مدوّية، أمام فرعون الطاغية ﴿ قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ، وَمَا نَنْفَعُ مَنَا إِلَّا أَنْ - أَمَّا بِثَأْنِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا ﴾ كأنهم يلوحون بذلك إلى بطلان التهمة المزورة التي اتهمهم بها زوراً وبهتاناً، لمجرد القضاء عليهم، والتخلص منهم، باسم حماية الدولة من المتآمرين عليها والكائدين لها.

ثم اتجهوا إلى الحق سبحانه وتعالى الذي أشرق نور الإيمان به في قلوبهم ضارعين خاشعين ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ أي صبراً عظيماً نتحمل به عدوان فرعون وملائته، وما يهددنا به من قطع وصلب. ﴿ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ وكأنهم في هذا المقام لم يعد يهمهم من الحياة إلا أمر واحد، هو أن يختم الله لهم بالخاتمة الحسنى، وهي الوفاة على ملة الإسلام، التي هي ملة جميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وهكذا بعدما كانوا في أول النهار سحرة كفرة، أصبحوا في آخره شهداء برة، كما صرح بذلك جماعة من مفسري السلف.

وقول كتاب الله هنا على لسان موسى عليه السلام: ﴿ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا، إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ الآية، يمثل حقيقة دينية، وحقيقة كونية، وسنة إلهية، فالتضحية والصبر، كانا دائماً ولا يزالان مفتاح الغلبة والنصر، والاستعانة بالله والاعتماد عليه بعد اتخاذ الأسباب، هما الوسيلة الفعالة للنجاح والتغلب على الصعاب، والأرض ملك لله إنما يعيرها لخلقها للارتفاق والانتفاع، وإنما يستخلف فيها - أعزاء كرماء - أولئك الذين يتقون ولا يفسقون، فإن فسقوا وظلموا وأفسدوا استبدل بهم قوماً آخرين ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.

ثم يعرض علينا كتاب الله صورة من صور التذبذب والتمللمل والتردد والقلق، التي عرف بها بنو إسرائيل عبر القرون والأجيال، فرغماً عن أن موسى عليه السلام نصره الله نصراً مؤزراً على فرعون وسحرته، ورجماً عن أنه طالب فرعون بأن يرسل معه

بني إسرائيل كما حكى الله عنه، إذ خاطب فرعون قائلاً: ﴿ فَأَرْسِلْ
مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ نجد بني إسرائيل يستثقلون ظل موسى
ويتضايقون منه، ولا ينجلون أن يخاطبوه دون أدب ولا لياقة، كما
حكى كتاب الله عنهم قائلين: ﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا
وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾، لكن موسى يكظم غيظه ويرد عليهم رداً
هادئاً، منبهاً إلى أن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يمتحنهم
ويختبرهم، ويظهرهم للناس على حقيقتهم، وذلك بمقتضى سننه
الثابتة في هذا الكون، فإن أصلحوا كانوا أهلاً للاستخلاف بين
الناس، وإن أفسدوا أصدر الحق سبحانه وتعالى في شأنهم حكمه
العادل بالحجر والإفلاس ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ
وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾.

ويصف لنا كتاب الله نماذج مثيرة من عذابه الأليم الذي ينزله
بالأمم، متى أصرت على الضلال والعدوان هي وقادتها في مختلف
العصور، من أية سلالة كانت، وإلى أية ملة انتسبت، فيحدثنا عما
أنزله الله بفرعون وقومه من أنواع المصائب والمتاعب، التي توالى
عليهم دون انقطاع، بحيث لا يكادون يفرغون من واحدة منها حتى
يستقبلوا أخرى تكون أدهى وأمر ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ
وَنَقْصِ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ - ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ
وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفْصَلَاتٍ، فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا
قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ وتعني كلمة «السنين» في هذه الآية سني الجذب
والقحط والجوع، وهذا أمر يستغربه كل من يعرف «نيل مصر» حتى
قيل فيها إنها «هبة النيل»، وإنما ليست بلد الماء المحدود والزرع القليل.

ومعنى كلمة «الطوفان» في هذه الآية فيضان النيل وكثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار، و«الجراد» معروف بأضراره الفادحة وأخطاره البالغة على الزرع والضرع، ومن اللطائف أن شريحاً القاضي الشهير سئل عن الجراد فقال: «قبح الله الجرادة، فيها خلقة سبعة جبابرة، رأسها رأس فرس، وعنقها عنق ثور، وصدرها صدر أسد، وجناحها جناح نسر، ورجلاها رجلا جمل، وذنبها ذنب حية، وبطنها بطن عقرب». وروى ابن ماجه أن رسول الله ﷺ كان إذا دعا على الجراد قال: «اللهم أهلك كباره، واقتل صغاره، وأفسد بيضه، واقطع دابره، وخذ بأفواهه عن معاشنا وأرزاقنا، إنك سميع الدعاء».

وتعني كلمة «القُمَّل» الواردة في الآية السوس الذي يخرج من الحنطة وينخرها، وفي عدة تفاسير أنه بسبب ذلك السوس كانت عشرة أجربة لا يبقى منها بعد طحنها إلا ثلاثة أقفزة، إذ لا يبقى فيها من الحنطة إلا أقل القليل، و«الضفادع» معروفة ومشهورة بقفزها ووثبها. وورد في عدة تفاسير أن تلك الضفادع كانت قد ملأت البيوت والأواني والأطعمة. وتعني كلمة «الدم» الدم الرعاف كما قال زيد بن أسلم، ورواه ابن أبي حاتم.

فهذه جملة المصائب التي نزلت بفرعون وقومه على التابع والتوالي دون أن يتوبوا من شركهم وكفرهم، ولا أن يتراجعوا عن عتوهم وكبرهم، ثم جاءت القاصمة - قاصمة ظهر فرعون وقومه - فأغرق الله فرعون وجنده، ونصر عبده، وهذه المصائب لا تزال

تنزل بمختلف الأمم حتى الآن، ولا يجمي منها إلا التقوى والاستقامة والإيمان.

لكن بني إسرائيل ما كادوا يفلتون من قبضة فرعون، ببركة موسى الذي جدد عقيدة التوحيد على ملّة إبراهيم الخليل عليهما السلام، حتى نفخ فيهم الشيطان من روحه، وأخذوا يلحون على موسى أن يعرضهم عن دين التوحيد الذي دعاهم إليه وأنقذهم باسمه، بدين وثني خاص من نوع الأديان القائمة إذ ذاك في عموم المنطقة، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ، قَالُوا يَمْوَسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ فما كان من موسى إلا أن رد عليهم مستنكراً ومحدراً، قال: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ وكلمة «تجهلون» في هذا السياق إما من الجهل ضد العلم، وإما من الجهاز بمعنى السفه، على حد قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾. ثم أخذ يؤكد لهم ما ينتظر المشركين من هلاك وما هم عليه من باطل قائلاً: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ، وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وأخيراً ذكّرهم موسى بالرسالة التي حملها إليهم إذ جاءهم برسالة التوحيد، وذكّرهم بتفضيلهم إن عملوا بها على فرعون وآله، لما كان عليه هو وقومه من الشرك والوثنية، وعدم الاتعاظ بنذر الله المتوالية، وذلك ما أشار إليه موسى عليه السلام بقوله إذ خاطبهم من جديد: ﴿قَالَ أَعْيَرَ اللَّهُ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضْلُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ، وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾

الآية. لكن مواظب موسى عليه السلام لم تترك في نفوس بني إسرائيل أثرها المرغوب، لا في حياته ولا بعد مماته، ولم يلبثوا إلا قليلاً حتى فقدوا الرشد والصواب، وتوعدهم الحق سبحانه وتعالى:

﴿ لَيُعَذِّبُنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ .

الربع الثالث من الحزب السابع عشر
في المصحف الكريم

﴿١٤١﴾ وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً
وَأَتَمَّمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمَ مِثْقَتِ رَبِّهِ ۖ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ
مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ
سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ
رَبُّهُ وَقَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرَ إِلَيْكَ قَالَ لَنَبَرِّنَكَ وَلَٰكِن
أَنْظُرِ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ وَفَسَّخَ بَرِّنَكَ فَلَمَّا
تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا
أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾
قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي إِصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمَةٍ
فَخُذْ مَاءَ آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا
لَهُ فِي آلِ لُؤْلُؤٍ مِّن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا

لِكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمْرَ قَوْمِكَ يَاخُذُوا بِأَحْسَنِهَا
سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ الَّذِينَ
يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ
لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا
وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيْ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ
عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا
يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سَقَطَ
فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا
رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾
وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِسْمَا خَلَفْتُمُونِي
مِنْ بَعْدِي أَعْلِمْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقُوا الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ
بِمِجْرُوهٍ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا
يَقْتُلُونَنِي فَلَا تَشْمِتْ بِنِ الْأَعْدَاءِ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ

الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلَاخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ
 وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيِّئًا لَهُمْ
 غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي
 الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا
 وَعَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ
 عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُحُوحِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ
 لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْتَدُّونَ ﴿١٥٤﴾ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ
 رَجُلًا رَّاسِيَةً فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ
 أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّيَّ أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ
 مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ
 أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾

الربع الثالث من الحزب السابع عشر في المصحف الكريم

عباد الله

موضوع حصة هذا اليوم الربع الثالث من الحزب السابع عشر في المصحف الكريم ابتداءً من قوله تعالى : ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ أَنْتَ وَلِيِّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ .

تتحدث الآيات الكريمة في بداية هذا الربع عن الأجل المحدود واليوم الموعود الذي ضربه الله لحضور موسى إلى جبل الطور، وهذا الأجل الذي يمتد أربعين ليلة سيتلقى موسى بعده عن الله كلامه ورسالته، ليصبح بعده «كليم الله» .

ولعل السر في ضرب هذا الأجل، واستغراقه لهذه المدة التي ليست بقصيرة، هو تمكين موسى من التفرغ عن جميع الشواغل، التي تستغرق نشاطه ليل نهار، ولا سيما الشواغل الجديدة التي طرأت عليه منذ جواز بني إسرائيل معه، وإفلاتهم من قبضة فرعون وملائته، وذلك على عهد الأسرة التاسعة عشرة، التي هي آخر أسرة مصرية صميمة كانت على عرش مصر في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، والتي منها انتقل الحكم إلى دول أجنبية صرفة تعاقبت على

الحكم فيها، الواحدة بعد الأخرى، إلى أن قامت دولة الإسلام الكبرى. فهذا الأجل ضربه الله لموسى، حتى إذا حلَّ «مِقات ربه» كان موسى مقبلاً على الله بكليته، منقطعاً إليه وإلى عبادته، واقفاً على عتبة بابه، منتظراً لاستمطار سحابه.

وسحاب الخير لها مطر فإذا جاء الابان نجي
وفي طليعة ما جرى في فترة انتظار موسى لميقات ربه ما قام
به من تنظيم مؤقت لشؤون بني إسرائيل، واستخلاف أخيه هارون
عليهم، لتسيير شؤونهم مدة غيبته عنهم، كما حكاه عنه كتاب الله
قائلاً: ﴿ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا
تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾.

ومن لطائف التفسير المتعلقة بهذا السياق ما علق به القاضي أبو بكر (ابن العربي) على هذه الآية إذ قال: «ضُرِبَ الأجل للمواعيد سنة ماضية، ومعنى قديم أسسه الله في القضايا، وحكم به للأمم، وعرفهم به مقادير التاني في الأعمال، وان أول أجل ضربه الله الأيام الستة التي مدها لجميع الخليقة فيها، وقد كان قادراً على أن يجعل ذلك لهم في لحظة واحدة، لأن قوله لشيء إذا أراد ان يقول له: كن فيكون، يبد أنه أراد تعليم الخلق التاني وتقسيم الأوقات، ليكون لكل عمل وقت».

ونضيف إلى ما قاله التنبيه إلى سنة الاستخلاف الواردة في نفس السياق، فقد سنّها موسى عندما استخلف أخاه هارون عنه أثناء غيبته، فبقيت سنة متبعة من بعده، وبرزت أثناء عهد الرسالة المحمدية، في عدة مناسبات، منها مناسبة غزوة تبوك، حيث فارق

رسول الله ﷺ المدينة على رأس جيش قوامه ثلاثون ألف مسلم معهم عشرة آلاف من الخيل، وترك على المدينة خليفة من قبله محمد بن مسلمة الأنصاري، كما حققه الامام ابن قيم الجوزية في كتابه (زاد المعاد).

ولما جاء موسى لميقات ربه، وتلقى كلامه ورسالته، استشرفت نفسه، بدافع الشوق وحافز الرجاء، وفي غمرة الذهول والدهشة، إلى تجلي الذات الإلهية، فما كان من الحق سبحانه وتعالى إلا أن ألقى إليه جواباً يستطيع أن يتأكد من خلاله أن الكيان البشري الضعيف لا يقوى على استقبال النور الإلهي وجهاً لوجه ولا سيما في هذه الدنيا، وإذا كان تجلي الذات الإلهية لجبل الطور يجعل الجبل على شموخه وصلابته خاشعاً متصدعاً، ويدكه دكاً في طرفة عين حتى يسيخ في أعماق الأرض، من جلال الله وهيبته، فما بالك بوقع ذلك التجلي على الإنسان الضعيف البنية، والقوي الخشية، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ، قَالَ لَنَآ تَرِيْنِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِيْنِي، فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾.

وما كاد موسى يرى ما أصاب الجبل الشامخ من تصدع وانهيار حتى أغمي عليه في الحين، من شدة فزع المنظر وهول الموقف، وذلك قوله تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا، فَلَمَّا أَفَاقَ - أَي من الاغماء الذي أصابه - قَالَ سُبْحٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

غير أن هذه الحادثة الكبرى لم يمر عليها وقت طويل حتى أصبحت لها ذبول في حياة بني إسرائيل، ذلك أن بني إسرائيل لم

يزل الشك يراودهم فيما تلقاه موسى من كلام الله ورسالته، فأخذوا يلحون عليه أن يسأل لهم من الله ميقاتاً خاصاً يحضرونه بأنفسهم، ويشاهدونه إلى جانبه عياناً، فاضطر موسى إلى النزول على رغبتهم، وطلب من الله توقيت ميقات لهم، واختار من بينهم، بوحي من الله، وفداً مؤلفاً من سبعين عضواً يعتبرون من خيار خيارهم، لكن لما حلَّ الميقات المعين الذي كانوا ينتظرون فيه بكل إلحاح وعناد أن يروا الله جهرة - حسب تعبيرهم الخاص - أخذهم الحق سبحانه وتعالى أخذاً وبيلا، فأخذتهم الرجفة وُصِعُوا في الحين، وكان ذلك عبرة للناس أجمعين، ولم ينبج إلا موسى وحده، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في نهاية هذا الربع: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا مِمِّيَّتِنَا، فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ الآية. وفي نفس هذا المعنى ورد في سورة البقرة المدنية: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾.

وها هنا فائدة لا بد من التنبيه إليها. وهي أن التعبير هنا في كتاب الله بهذا النوع من العدد (ثلاثين ليلة) و(أربعين ليلة) في سياق قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِمَّقْتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ موافق لطريقة التاريخ المتعارف عند العرب قبل الإسلام وبعده. قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «التاريخ إنما يكون بالليالي دون الأيام، لأن الليالي أوائل الشهور، وبها كانت الصحابة تحبر عن الأيام، حتى روي عنها أنها كانت تقول: (صمنا خمسا مع رسول الله ﷺ)، والعجم تخالفنا في ذلك،

فتحسب بالأيام، لأن معولها على الشمس، وحساب الشمس للمنافع، وحساب القمر للمناسك».

ووصف كتاب الله ما ألقاه الحق سبحانه وتعالى على رسوله موسى، وأشار إلى ما أنزله الله عليه، وما أوصاه به هو وقومه، وما حذرهم منه من العذاب والهلاك إن خالفوا أمره: ﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَالَمِي، فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ، وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ، فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا، سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ، سَأَصْرَفُ عَنْ - آيَتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا، وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا، وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغِيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ إشارة إلى الألواح التشريعية الموسوية، وجرباً على هذه السابقة يبدو أن الرومان بعد مرور أكثر من تسعة قرون على ألواح موسى قد بلغهم صداها، فاستعملوا نفس الاصطلاح، وأخذوا اسم «الألواح» وأطلقوه على أول محاولة حاولوها لوضع قانونهم الوضعي في بداية نشأته سنة ٤٥١ قبل الميلاد، وهو القانون المعروف عندهم باسم «قانون الألواح الاثني عشر».

وقوله تعالى هنا أمراً لنبيه موسى: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ هو من نوع الأوامر الإلهية العامة، الموجهة لجميع المومنين، إلى يوم الدين، و«الأخذ بالقوة» معناه امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه بعزم

وحزم، وحماس وحمية، أي بدون تردد ولا تهاون، وبكل اندفاع واعتزاز، شأن أهل الإيمان الصحيح، والعقيدة الصادقة.

وقوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَاخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ وورد مورد الأمر الأول، لموسى ومن معه، ولكل من جاء بعده، وكلمة الأحسن في قوله ﴿بأحسنها﴾ يحملها البعض على كل ما كان أرفق وأيسر، بناء على أن كل ما كان أرفق في الدين فهو أحسن، ويحملها البعض على كل ما كان أحوط وأحذر، بناء على أن كل ما كان أحوط للعبادة فهو أحسن، و«لكل وجهة هو موليها» و«لكل مقام مقال».

وقوله تعالى: ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ تهديد ووعيد لكل من تحدى أوامر الله من العباد، أو وقف في وجهها وتصدى لها بالمعارضة والعناد.

وما يتضمنه هذا التهديد الإلهي الخطير خذلان الله للمتكبرين الفاسقين، وحرمانهم من التوفيق والهداية إلى الحق المبين، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾.

ومن المفارقات العجيبة في شأن بني إسرائيل ما حكاه كتاب الله عنهم من أنهم بمجرد ما فارقههم موسى واستخلف عليهم أخاه هارون، وذهب ليخلو بنفسه، ويتمكن من حضور ميقات ربه في الوقت الموعد، عاد إليهم الشيطان بهمزاته ووساوسه، فأعادوا

الكرة للعمل من جديد، في غيبة موسى، على إقامة صنم يعبدونه كما يعبد غيرهم من المشركين مختلف الأصنام والأوثان.

ونظراً لما تعودوا عليه في مصر الفرعونية التي كانوا فارقوها منذ عهد قريب من مشاهدة وعبادة المعبودات الوثنية، وفي طبيعتها «العجل أبيس» الذي كان عند قدماء المصريين أهم معبوداتهم الحيوانية، باعتباره ممثلاً لإلههم «فتاح» على سطح الأرض، فقد فكر بنو إسرائيل في تقليدهم، واتخذوا لهم صنماً من الذهب على صورة العجل الذي طالما رأوه يُعبد من دون الله. وليعطوه مظهر العجل الحقيقي حتى يتم التشابه بين عجلهم وعجل قدماء المصريين، صنعوه على هيئة خاصة تجعل له خواراً كخوار العجول الطبيعية، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ، أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً، اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ، وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ويتصل بهذا المعنى قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾، وقوله فيها أيضاً: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ الآية.

وتذكر كتب التاريخ القديم أن قدماء المصريين كانوا يختارون لعبادتهم عجلاً أسود الجلد، بشرط أن تكون على جبهته غرةً مثلثة الشكل، وأن اليوم الذي كانوا يجدون فيه عجلاً بهذه الأوصاف

يعتبر يوم عيد عام، كما أن يوم موته يكون يوم حداد عام، ثم يستمر حدادهم إلى أن يجدوا عجباً آخر على هيئته، وكانوا يحتفلون بدفنه احتفالاً عظيماً، وهذه العجول مقبرة ضخمة بسقارة تعرف باسم السرايوم.

وكم كان غضب موسى عليه السلام بالغا، وأسفه شديداً، بعد عودته من طور سيناء، إذ وجد بني إسرائيل قد تنكروا لكل ما نالهم من عفو وإحسان، وانزلقوا إلى عبادة الأوثان: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي، أَعْجَلْتُمُ أَمْرَ رَبِّكُمْ، وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ لكن أخاه هارون لم يسعه إلا أن يهدى روعه، مسترحماً ومستعطفاً، إذ خاطبه كما حكى عنه كتاب الله قائلاً: ﴿قَالَ ابْنُ أُمِّ﴾ أي يا ابن أُمِّي، والغرض من هذا التعبير إثارة عطف أخيه موسى عليه وتسكين غضبه، وليس المراد أنه أخوه من أمه لا غير، فموسى وهارون أخوان شقيقان: ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي، فَلَا تُشِمْتُ بِي الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

وفي هذا الخطاب المؤثر وَصَفَ هَارُونَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِوَصْفَيْنِ اثْنَيْنِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أخطر من الآخر، وصف «الاعداء» ووصف «الظالمين» ومن كان عدواً لله ظالماً لربه، إذ أشرك به ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ وعدواً لرسوله ظالماً له، إذ خان رسوله وحاول قتل خليفته عند تغيبه، ماذا يرجى منه من استقامة وصلاح، وماذا يرجى له من فوز وفلاح. على أن موسى نفسه وصفهم أيضاً بوصف «السفهاء» إذ خاطب ربه قائلاً في معرض توبيخهم،

والتبروء من مخالفتهم: ﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ﴾ ومن كان ذا
 سفاهة بشهادة نبيه على سفهه كيف يتأق منه الرشد، ويزول عنه
 الطيش، ويتصرف تصرف العقلاء؟ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ
 سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَكَذَلِكَ نَجْزِي
 الْمُفْتَرِينَ ﴾ .

الربع الأخير من الحزب السابع عشر
في المصحف الكريم

وَكَتُبْنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا
هُدُنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ
كُلَّ شَيْءٍ فَسَاكِنُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ
هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ
الَّذِي جَاءَ بِالْبَيِّنَاتِ وَحِجْرٍ مَعَ الْفُلْجِ وَالْأَنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ
عَنَّهُمْ وِإِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ
فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا
النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ؕ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾
قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا

الذِّمَّةَ لَهُ وَمُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
 يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ
 الَّذِي يَوْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾
 وَمِن قَوْمٍ مُّوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾
 وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ
 مُّوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ وَآلٍ إِضْرِبَ بِعَصَاكَ الْجَبْرُ
 فَأَنْجَسْتَ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ
 مَّشْرِبَهُمْ وَظَلَلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ
 الْمَنَّٰنَ وَالسَّلَٰبِيَّ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ
 وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾
 وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا
 حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا
 تُغْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَأَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾
 فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ
 لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا
 يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسَأَلَهُمُ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ

حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ
 حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ
 لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٢٧﴾
 وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ
 مُعَدِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ
 يَتَّقُونَ ﴿١٢٨﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ
 السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَیْسٍ بِمَا كَانُوا
 يَفْسُقُونَ ﴿١٢٩﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً
 خَاسِيَةً ﴿١٣٠﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْنَا وَمَا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ
 يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ
 رَّحِيمٌ ﴿١٣١﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمْ الصَّالِحِينَ وَمِنْهُمْ
 دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٣٢﴾
 فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَا خُدُونَ عَرَضَ
 هَذَا الْأَدْبَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفِرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ
 مِّثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا
 عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالذَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ

لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٦﴾ وَالَّذِينَ يُسَيِّئُونَ
 بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصَلِّينَ ﴿١٧٠﴾

الربع الأخير من الحزب السابع عشر في المصحف الكريم

عباد الله

في حديث هذا اليوم تناول الربع الأخير من الحزب السابع عشر في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُسَيِّئُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾.

قوله تعالى في بداية هذا الربع: ﴿وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ﴾ جزء من دعاء موسى عليه السلام، وهو تمة لدعائه الوارد في نهاية الربع الماضي: ﴿أَنْتَ وَلِيْنَا فَاعْفِرْ لَنَا وارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ العَافِرِينَ﴾ وهذا الدعاء من حق كل مومن يومن بالله ورسله وكتبه أن يدعو به لنفسه ولكافة المومنين.

وبعد الانتهاء من هذا الدعاء الشامل لخير الدنيا وخير الآخرة، يبدأ خطاب إلهي عام في موضوع العذاب والثواب، والنعمة والنقمة، ومضمون هذا الخطاب أن رحمة الله العامة تسع كل شيء مما يشاء، وأن عذابه يصيب به من يشاء، وإذا كانت الرحمة شاملة للنبات والحيوان والإنسان وكافة المخلوقات، فإن العذاب إنما يكون بالمرصاد لأعداء الله المتمردين على أوامره، من

خصوص النبوات والرسالات، وذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ولا يفهم أحد من هذه الآية أن الله يعذب من يشاء من عباده دون مبرر للعذاب، فإرادة الله المطلقة إرادة حكيمة، ومشيتته الحرة من كل قيد مشيئة عادلة، بمقتضى قوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾، وقوله في آية أخرى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ وأخرج الإمام مسلم في صحيحه من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل مائة رحمة، فمنها رحمة يتراحم بها الخلق، وبها تعطف الوحوش على أولادها، وأخر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة».

ثم نبه كتاب الله إلى أن هناك رحمة خاصة زائدة على الرحمة العامة التي تشمل البر والفاجر، والمومن والكافر، والنبات والحيوان، وجميع المخلوقات المنتشرة في الأكوان، وهذه الرحمة الخاصة اقتضت حكمته واستوجب عدله أن تكون قاصرة على خير أمة أخرجت للناس، متى حافظت على «خيريتها» ولم تتنازل عن هويتها، وذلك ما وعدنا به الحق سبحانه وتعالى وعد حق وصدق إذ قال تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ أي الرحمة الخاصة، وتندرج تحتها عدة نعم جليلة ودقيقة، في الدنيا والآخرة: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ، فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

وهذه الآيات الكريمة تتناول صفات الرسول التي يشترك فيها مع غيره من الأنبياء والرسل السابقين: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ كما تبرز أهم الصفات، التي ميزته أولاً ﴿النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ والتي ميزت رسالته عن بقية الرسالات ثانياً: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ أي يضع عنهم التكاليف الثقيلة التي كانت شائعة قبل الإسلام، بمعنى أنه جاء بدين طبعه الله بطابع السماحة واليسر، كما قال ﷺ: «بعثت بالحنيفية السمحة» وقال ﷺ: «رفع عن أمي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» وقال ﷺ: «ان الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل».

وتتناول نفس الآيات صفات أتباع الرسول عليه السلام من صالحى المؤمنين، فهم أهل إيمان وإحسان، وتقوى وأتباع، وهم أهل وفاء وثبات على العهد الذي عاهدوا الله عليه، من نصره رسوله، وبذل الأرواح في سبيله في كافة الظروف وجميع البقاع: ﴿فَسَاكُتُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِثَابِتِينَ يُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ﴾ - ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

ومما ينبغي ملاحظته هنا ما كررته الآية الكريمة هنا من صفة (الاتباع) التي هي شارة التكريم والتشريف، وموضع الأفضلية والخيرية للاتباع، فقد كررتها الآية مرتين، بصيغة المضارع الدالة على تجدد العمل حيناً بعد حين: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّءَ الْأُمِّيِّ﴾ وبصيغة الماضي الدالة على وقوع الاتباع فعلاً، لا قولاً،

وعملاً ، لا ادعاءً ﴿ وَاتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ﴾ وكان مسك الختام في هذا المقام، تلك الإشارة الكريمة ذات المغزى البعيد، والطارح السعيد، ﴿ أَوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أي هم الفائزون لا غيرهم، وغيرهم خاسرون حتماً، دنيا وأخرى.

وفي قوله تعالى: ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزُّكُوتَ ﴾ نقطة مهمة يجب الوقوف عندها، ذلك أن سورة الاعراف سورة «مكية» و«الزكاة» بالمعنى الذي تعرف به بين المسلمين الآن فريضة «مدنية»، فما معنى «الزكاة» إذن في سورة الأعراف وما مائلها من السور المكية، مثل سورة فصلت التي ورد فيها في سياق ذم المشركين قوله تعالى: ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ، الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزُّكُوتَ ﴾؟.

والجواب الذي أجاب به المحققون عن مثل هذا السؤال هو أن اسم «الزكاة» أطلق أولاً بصفة اجمالية لم يكن فيها تقرير لمقادير خاصة، ولا تعيين لأنصبة معينة، ولما كثر عدد المسلمين بمكة نوعاً ما فرض الله على أهل الأموال أن يعطوا للمحتاجين صدقة من زرعهم ونخلهم وثمارهم، بقوله تعالى في سورة الانعام المكية، وهي من آخر ما نزل بمكة: ﴿ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾. وعندما تألفت جماعة المسلمين بالمدينة من المهاجرين والانصار قام الانصار بمواساة المهاجرين، وآثروهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، وكانوا يعتبرون تلك العطايا واجبة عليهم، لأن القرآن كرر الأمر بها، وسماها «زكاة»، وقرنها بالصلاة، وهكذا كانت الزكاة في أول الإسلام مفروضة على المسلمين بوجه إجمالي غير

مفصل، وكانت مقاديرها ومواقيتها موكولة إلى أريحية المومنين أنفسهم وتقديرهم للظروف دون أي تحديد، اعتماداً على الوازع الديني المجرد، الذي يحث على التقرب إلى الله بكل ما فيه رضاه. وإنما فرضت الزكاة المعينة المحددة الأنواع والأنصبة والمواقيت في سنة اثنتين أو ثلاث بعد الهجرة إلى المدينة، فكان منها زكاة الانعام، وزكاة الثمار، وزكاة النقدين، وقد بين رسول الله ﷺ وجوبها والحكمة في فرضها في غير ما حديث، ومن ذلك قوله لمعاذ وهو يودعه حين بعثه إلى اليمن: «فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم زكاة أموالهم، تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم». وهكذا مرّت الزكاة بعدة مراحل، ممّن فصل القول فيها الشيخ محمد الطاهر (ابن عاشور) في كتابه (أصول النظام الاجتماعي في الإسلام)، وهو في ذلك متفق معني وروحاً مع ما قرره الامام أبو اسحاق الشاطبي في كتابه (الموافقات) حول التشريع المكي والتشريع المدني وما بينهما من علاقة وتدرج. ثم خاطب الحق سبحانه وتعالى خاتم أنبيائه ورسله مكلفاً إياه أن يبلغ الرسالة التي تلقاها من عند الله إلى جميع الناس، فهو رسول الله إلى كافة السلالات والأجناس، وهو رسول الله إلى من عاصره وإلى كل من يأتي بعده إلى يوم الدين: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾. كما كلفه بأن يدعوهم جميعاً إلى الإيمان بالله ورسوله، وأن يأمرهم باتباعه إن أرادوا الهدى والبعد عن الضلال: ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ، وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ فالسر كله في الاتباع «اتباع الهدى المحمدي» والشر كله في الابتداء «ابتداء الضلالات والبدع».

ومن هنا انتقل كتاب الله مرة أخرى إلى الحديث عن بني إسرائيل، وكان ذلك عوداً على بدأ، فأشارت الآيات الكريمة إلى معجزة جديدة أبرزها الله على يد موسى وعصاه: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ، فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا، قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ، وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّٰنَ وَالسَّلْوَىٰ، كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ وفي نفس الموضوع ورد قوله تعالى في سورة البقرة المدنية: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ، فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ الآية، ثم عقب كتاب الله على ذلك قائلاً: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا، وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

وجاء دور بني إسرائيل في الانحراف من جديد، ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ، فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ و«الرجز» إما العذاب أو الغضب أو الطاعون، وورد في سورة البقرة المدنية قوله تعالى في نفس الموضوع: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَىٰ الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

وجاء دور بني إسرائيل في التحايل على التخلص من أوامر الله والتحلل من نواهيه، وبذلك وضعوا سابقة (الحيل) في الشريعة والدين: ﴿وَسَأَلْتَهُم عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ، إِذْ تَأْتِيهِمْ حَيَاتُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا﴾ أي ظاهرة على الماء من كل مكان: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْتَوُونَ لَا تَأْتِيهِمْ، كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

وأعلن كتاب الله نوع العقاب الصارم الذي عاقبهم به جزاء تحايلهم على أوامره، وتحللهم من نواهيه، إذ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ، وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ وفي قوة هذه الصيغة ما يفيد معنى القسم، و«تأذن» بمعنى أمر أو أعلم، وقال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُممًا﴾ على غرار ما سبق في سورة البقرة المدنية: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ، فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

وأخيراً كشف كتاب الله النقاب عن الحكمة الإلهية فيما تقلب فيه بنو اسرائيل-ولا يزالون يتقلبون- من أطوار، بين الشدة والرخاء، والسراء والضراء، والنعمة والنقمة، فقال تعالى: ﴿وَبَلَّوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. لكنهم استمروا على خيانة العهد كلما عاهدوا، وعلى نقض الميثاق كلما واثقوا: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ إلا أنهم ما لبثوا أن جعلوا كتابهم بضاعة للبيع والشراء، حسب مقتضيات الأغراض والأهواء: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا، وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلَهُ يَأْخُذُوهُ، أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ، وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾؟.

وختم هذا الربع مؤكداً أن الدار الآخرة هي أحق من الدنيا بالعمل من أجلها والرجاء فيها، وهي خير للمتقين من كل الوجوه: ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ ومنوهاً بالأجر العظيم الذي

ادخره الله للمصلحين المصلحين من عباده، الذين يصلحون في الارض
ولا يفسدون، وللمتمسكين بكتابه، الذين لا يكتمون ما أنزل الله ولا
يشترون به ثمناً قليلاً: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾.

الربع الأول من الحزب الثامن عشر
في المصحف الكريم

وَإِذْ نَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ
خُذُوا مَاءَ آتَيْنِكُمْ يَقْوَةً وَادْكُرُوا مَآفِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٦﴾
وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى
نَفْسِهِمْ ۗ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ
إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٧﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا
مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ ۗ أَفَنُكَلِّبُكُمْ إِنَّمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٨﴾
وَكَذَٰلِكَ نَقُصُّ لَكَ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٩﴾ وَآتَىٰ عَلَيْهِمْ
نَبَأَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ
فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٨٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ
أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوِيَهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ
الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلُ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ

ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ
 الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ
 كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظُنُّونَ ﴿١٧٧﴾ مَنْ يَهْدِ
 اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾
 وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا
 وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أذانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ
 كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ
 الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ
 مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ
 يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ
 لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِ لَهُمْ وَإِنْ كَيْدٌ مِّنِّي ﴿١٨٣﴾ أَوْ لَمْ يَنْفَكِرُوا
 مَا بَصَحِبِهِمْ مِّنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مِّنِّي ﴿١٨٤﴾ أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا
 فِي مَلَكَوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَإِنْ
 عَبَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدْ إِقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فِإِيَّايَ حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾
 مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾
 يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِيهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ

رَبِّيَ لَا مَجْلِيهَا لَوْ قَنِيهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
لَا تَأْتِيكُمْ مَوْءَا إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا
قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّا كُثْرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨٧﴾

الربع الأول من الحزب الثامن عشر في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأول من الحزب الثامن عشر في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ، خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أول آية في هذا الربع هي آخر آية من قصة بني إسرائيل وردت في سورة الأعراف، وسبق في نهاية الربع الماضي الحديث عن ﴿مِيثَاقِ الْكِتَابِ﴾ الذي أخذه الله عليهم كما أخذه من بعد على غيرهم: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾.

وفي بداية هذا الربع أشار كتاب الله على سبيل التذكير إلى الظرف الذي أخذ عليهم فيه ذلك الميثاق، وهو ظرف لا يُنسى، إذ تمت فيه إحدى معجزات موسى عليه السلام، ذلك أن الله أوحى إلى الجبل، فانقلع وارتفع في السماء، حتى كأنه مظلة تظلهم من فوق رؤوسهم، فلما رأوا الجبل على تلك الحالة قال لهم موسى عليه

السلام ألا ترون ما يقول ربي عز وجل: «لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها لأرمينكم بهذا الجبل»، وذلك ليقروا بميثاق الكتاب، ويحسبوا له كل حساب، فلم يسعهم حينئذ إلا القبول بعد التردد، والاقرار بعد التقاوس، نزولاً على حكم هذه المعجزة الخارقة للعادة، وإلى المعنى الرئيسي الذي هو محور هذه القصة تشير الآية الكريمة بإيجاز: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ أي رفعناه فوق رؤوسهم ﴿كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ﴾ من الظل، وجمعها ظلل ﴿وَوَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ أي ساقط عليهم ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ، وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

وقوله تعالى هنا: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ الآية، أمر إلهي موجه رأساً لبني إسرائيل، على غرار الأمر الإلهي الموجه إلى موسى نفسه، ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾، وقد سبق في الربع الثالث من الحزب الماضي، والمراد به أن يأخذوا ميثاق الكتاب بجد وحزم وعزم وامثال كامل، وقد تناول كتاب الله نفس القصة أيضاً في سورة البقرة المدنية، حيث قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ، ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ الآية. كما تناولها في سورة النساء المدنية أيضاً، حيث قال: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾. ولفظ «الطور» الوارد في سورة البقرة والنساء المدنيتين المراد به «الجبل»، كما ورد هنا في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ إذ القرآن يفسر بعضه بعضاً، وقد نص على هذا التفسير ابن عباس ومجاهد وعطاء وعكرمة والحسن والضحاك والربيع بن أنس وغيرهم من مفسري السلف كما نقله ابن كثير.

ثم انتقلت الآيات الكريمة في هذا الزرع إلى الحديث عن أقدم وأول ميثاق أخذه الله على كافة العباد، وهم لا يزالون في أصلاب آبائهم سرّاً مكنوناً في عالم الغيب، وهذا الميثاق هو ميثاق فطرة الله التي فطر الناس عليها، وهو يتضمن في جوهره الإقرار بربوبية الله وعبودية الإنسان، على أساس من التوحيد والإيمان. فمامن إنسان إنسان وِكَل إلى فطرته الأولى، ولم تتعرض فطرته لعوامل التشويه والإفساد، إلا وهو مقر بالوهية الله وربوبيته للعباد، ومعترف من أعماق قلبه بهذا الميثاق، وملتمزم بجميع نتائجه وآثاره على الإطلاق، دون معارضة ولا جحود، وبدون أي قيد من القيود، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾، حتى إذا ما وقع الإنسان بين أيدي غير أمينة، فعملت على تشويه فطرته وإفسادها، انحرف عن الفطرة السليمة، واختلطت عليه العقيدة الصحيحة بالمعتقدات السقيمة، ونسي الميثاق الأزلي المعقود بين فطرته وبين ربه، ووقع في شرك الشيطان وحزبه.

وقد أشار كتاب الله في هذا السياق، إلى أن الحكمة الإلهية في المبادرة بأخذ هذا الميثاق هي قطع كل عذر لمن نكث بعد ذلك بالعهد، وإسقاط كل حجة لمن لم يبر بالوعد، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَيْلًا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾. وإلى هذه المعاني مجتمعة يشير قوله تعالى هنا في إيجاز وإعجاز: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ، سَهِدْنَا﴾ وكشف كتاب الله عما قد ينتحلونه من الأعذار

لشركهم وكفرهم: ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ، أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِمَّنْ بَعْدِهِمْ، أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

ثم عقب كتاب الله على ذلك كله، مبيِّناً انه إنما يفصل الآيات تفصيلاً، لتتضح حقيقة الايمان الكبرى، وليعود السفهاء الضالون إلى طريق الرشد والهدى، والمبطلون المنحرفون إلى جادة الحق والصواب: ﴿وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ، وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

روى الإمام مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين، فاجتالتهم عن دينهم - أي صرفتهم عنه - وحرمت عليهم ما أحللت لهم». وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه» الحديث.

وانتقلت الآيات الكريمة لوصف صورة من صور الانحراف، الذي طالما تعرضت له فطرة الإنسان في مختلف العصور، فضربت المثل بحالة المكذبين بآيات الله بعد معرفتها، أولئك الذين ينزلون بانحرافهم من أعلى الدرجات إلى أسفل الدركات. وتشمل هذه الصورة بالخصوص من يكرمه الله بمعرفة آياته ليؤدي حقها في نفسه، ولبليغ رسالتها إلى الناس، ثم يستحوذ عليه الشيطان، فلا يلبث أن ينقلب به الحال، ويصيبه الخبال، ويستبدل بالعطاء سلباً، وبالهدى ضلالاً، فيعرض عن النظر في آيات الله، ويعلن الحرب على الله، وينسلخ من دينه وعهده، كما ينسلخ الحيوان الذبيح من

جلده، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ أي استحوذ عليه وجعله تابعاً ومطيعاً له طاعة عمياء ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ أي من الحائرين الهالكين: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي أنه بدلاً من أن يرتفع إلى أعلى الدرجات، بما أكرمه الله به من الآيات، تنكب طريق الرفعة، واختار لنفسه السقوط إلى الحضيض، والنزول إلى أسفل الدرجات، وقوله تعالى هنا: ﴿وَاتَّبَعَ هَوِيَّهٗ﴾ على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اخْتَدَ إِلَهَهُ هَوِيَّهٗ﴾ فهواه عنده هو الدين المتبع: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ وما أهون على الله وعلى الناس من يصفه كتاب الله بهذا الوصف المشين: ﴿إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ أي أنه إذا زجر لم ينزجر، وإذا أهمل لم يعتبر، وهذا المعنى قريب من قوله تعالى في آية أخرى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

ثم عقب كتاب الله على ما وصف به المذبذبين الذين تعرضوا للسلب بعد العطاء من وصف مشير، فقال تعالى: ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِثَايِتِنَا، فَاقْضُصِ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾. وبين كتاب الله ان هذا النوع من الخلق هم أقبح مثل بين الناس، لأن الأفكار الخبيثة التي ينشرونها، والطرائق الفاسدة التي يسلكونها، تفعل باتباعهم المخدوعين، ما لا تفعله الأوبئة والطواعين: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِثَايِتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي، وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ﴾ معناه أن من رضي لنفسه أن يهتدي بهدي

الله، واستعمل ما وهبه الله من ملكات ومواهب استعمالاً رشيداً، واتجه بها كلها اتجاه خير وتقوى وصلاح كان مهتدياً وفائزاً حقاً وصدقاً، مصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى، فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ ومن أعرض عن ذكر ربه واستعمل ما وهبه الله من ملكات ومواهب استعمالاً سفيهاً، واتجه بها كلها اتجاه شر وفسق وفساد كان ضالاً وخاسراً، أولاً وآخراً، مصداقاً لقوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى، فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ وعلى مثل هذا الصنف يصدق قوله تعالى في أواخر هذا الربع: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

وبه كتاب الله في سياق حديثه عن كثرة أهل النار من أين تتكون، إلى أن الحكمة الإلهية فيما آتاه الله للإنسان من حواس لطيفة متنوعة، وأجهزة دقيقة مختلفة، هي أن تكون نوافذ له يطل منها على الحقائق التي تحيط به من حوله، فإن لم يستعملها للملاحظة والتجربة، وإن لم ينتفع بها في التدبر والاعتبار، واستقصاء حقائق الأشياء القريبة والبعيدة، الحاضرة والغائبة، لم يختلف عن الحيوانات العجماء في شيء، بل انه ليكون أقل منها درجة وأصل سبيلاً، إذ أن الحيوانات العجماء - بحكم ما غرز الله فيها من غرائز بسيطة - تؤدي جميع المهام الموكولة إليها في حدود إحساسها الغريزي على أحسن وجه، وهي لا تعرف أي انحراف عنها أو انصراف، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ، لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا، وَهُمْ

أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا، وَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا، أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ، أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠﴾.

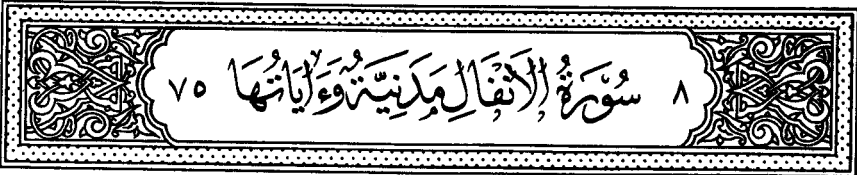
ونوه كتاب الله بالهادين المهتدين من أهل الحق والعدل، كما أنذر الضالين المضلّين من أهل الباطل والظلم، وأعلن عن استدراجه إياهم، وإمهاله لهم، في انتظار أخذهم على بغتة أخذاً وبيلاً: ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ، وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ، وَأُمْلِي لَهُمْ، إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ ومن هدده بالكيد له رب العالمين، كان من غير شك أخسر الخاسرين، في الدنيا والدين.

الربع الثاني من الحزب الثامن عشر
في المصحف الكريم

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ
 أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا
 إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ
 نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا
 تَغَشَّيْهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَامَّا آثَقَتْ دَعْوَا
 اللَّهِ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحًا لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا
 آءَانِيَهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آءَانِيَهُمَا فَنَعَلَى اللَّهِ
 عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾
 وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِنْ
 تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ
 أَمْ أَنْتُمْ صَالِمُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ

أَمْثَالِكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩١﴾
 أَلْهُمُّوْا رِجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا
 أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ
 بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾
 إِنَّ وَرَثَةَ اللَّهِ الَّذِينَ نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾
 وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا
 أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا
 وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ
 بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِنَّمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ
 نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ
 اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَافٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا
 هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يُمُدُّونَهُمْ فِي الْغِيِّ ثُمَّ
 لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا
 قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّي وَهُدًى
 وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا
 لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي

نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ
وَالْأَصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ
رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَجِونَهُ وَلَهُ يُسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾ هـ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْاَنْفَالِ قُلِ الْاَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَإِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا
الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلَيَّتْ
عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ وَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ
يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ
حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

الربع الثاني من الحزب الثامن عشر في المصحف الكريم

عباد الله

حديث هذا اليوم نتناول فيه الربع الثاني من الحزب الثامن عشر في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة الأعراف المكية: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ إلى قوله تعالى في سورة الأنفال المدنية: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا، لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

في بداية هذا الربع يتلقى خاتم الأنبياء والمرسلين من رب العالمين، أمراً إلهياً بقصد التعليم والتلقين لجميع المومنين، وهذا الأمر يرمي إلى إزالة كل شك أو ريب، في أن الله وحده هو النافع الضار، والمنفرد بالتصرف المطلق في خلقه دون غيره، ولو كان هذا الغير نبياً أو رسولاً، ولو كان هذا الغير خاتم الأنبياء والمرسلين، ويتضمن هذا الأمر تعريف الناس أجمعين بأن الرسول لا يملك حتى لنفسه نفعاً ولا ضرراً، رغماً عن كونه يحمل شارة الرسالة، المؤذنة باصطفائه واختياره على جميع الخلق، ورغماً عن كونه في أعلى درجات القرب من الله والحصول على رضاه، وإذا كان الرسول الكريم في منطق القرآن السليم، يعلن عن نفسه، بأمر من ربه،

أنه لا يستطيع لنفسه نفعاً ولا ضرراً، فمن باب أولى وأحرى أن يكون إعلاناً عن هذه الحقيقة شاملاً لغيره من بقية الناس. وهذه تربية من الله لعباده، وإرشاد لهم بهذا الأسلوب المباشر، حتى لا تختلط في أذهانهم ولا في عقائدهم خصائص الألوهية بخصائص النبوة.

وتأكيداً لنفس المعنى مضى الخطاب الإلهي يلقي الرسول الأعظم ﷺ ماذا ينبغي أن يعلم لأمته حتى لا تضل سواء السبيل، فأثبت بأسلوبه الخاص أن علم الغيب بالأصالة إنما هو من اختصاص علام الغيوب وحده: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ لكن يحدث أحياناً أن يتكرم الحق سبحانه وتعالى، ويُظهر على شيء من غيبه بعضاً من خواص خلقه، وذلك لحكمة إلهية، وهذا لا يعدو أن يكون «منحة ربانية» لهم في بعض الظروف، مصداقاً لقوله تعالى في سورة الجن المكية: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا، إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ﴾.

وأوضح كتاب الله هنا فيما لقنه لرسوله الأعظم أن الرسول لو كان يعلم الغيب فعلاً لانتفع بعلم الغيب فيما يتناوله من شؤون، ولتفادى بفضله كثيراً من الأحداث والمفاجآت، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى على لسان رسوله ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتَ مِنَ الْخَيْرِ، وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾.

ومن التفاسير التي أوردها ابن جرير الطبري لهذه الآية: «لو كنت أعلم الغيب لأعددت للسنة المجدبة من السنة المخصبة،

ولوقت الغلاء من وقت الرُّخص، ولاجتنبت ما يكون من الشر قبل أن يكون». وقال القاضي عبد الجبار: «المراد لو كنت أعلم الغيب وقت خروجي من الدنيا لاستكثرت من الخير والطاعة، فقد كان ﷺ لا يعرف قدر أجله، ولو عرفه لزاد في الطاعات أضعافاً، وليس المراد لاستكثرت من الخير فيما يتصل بلذات الدنيا، وقد يحتمل: لاستكثرت من الخير في دفع المضار عن نفسي والمومنين».

ثم أكد كتاب الله على لسان رسوله الأعظم أن اختصاص الرسالة على وجه الأصالة لا يتجاوز البشارة والندارة، فهو «بشير ونذير» للناس أجمعين، ولا سيما للمومنين الذين هم ثلثة من الاولين وقليل من الآخرين، وذلك قوله تعالى بصيغة الحصر: ﴿إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ، وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

وانتقل كتاب الله إلى وصف حالة يختلط فيها الإيمان بالشرك عند كثير من الناس، ذلك أن الله تعالى طبع الانسان، ذكراً وأنثى، على حب الذرية والرغبة في إنجاب الأولاد، ومن أجل تحقيق هذه الرغبة يستعمل بعض الناس لجهلهم كل الوسائل الممكنة، حتى الوسائل غير المشروعة، لا سيما إذا طال على بعضهم الانتظار وامتد به الأمد، وهكذا يصبح الزوج والزوجة في قلق واضطراب، تارة يستجيبان لفطرة الله فيتوجهان بدعائهما ورجائهما في إنجاب الولد إلى الله، وتارة ينحرفان عن الفطرة فيعقدان الأمل والرجاء على غير الله، ويظهر أثر ذلك فيما يقدمه الأب أو الأم من نذر إلى غير الله، ومن اعتقاد بأن ذلك الغير كان له تأثير مباشر في تحقيق مناه، أي كان ذلك الغير، صنماً أو إنساناً، حياً أو ميتاً.

وإلى وصف هذه الحالة وما ماثلها يشير قوله تعالى هنا: ﴿هُوَ
الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا،
فَلَمَّا تَغَشَّيْهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيئاً فَمَرَّتْ بِهِ﴾. والتغشي هنا كناية عن
المباشرة، وهو تعبير منسجم مع قوله تعالى في آية أخرى: ﴿هُنَّ لِيَاسٌ لَكُمْ
وَأَنْتُمْ لِيَاسٌ لَهُنَّ﴾ ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ أي صارت ذات ثقل بحملها:
﴿دَعَوْا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ أي الزوج والزوجة ﴿لَيْتَنَ - آتَيْنَا صَلَاحاً﴾ أي
لئن أعطيتنا بشراً سويّاً ووليداً غير مشوه ﴿لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ،
فَلَمَّا آتَاهُمَا صَلَاحاً﴾ أي أعطاهما الله مولوداً سليماً كما طلبا ﴿جَعَلَا
لَهُ شِرْكَاً فِيمَا آتَاهُمَا﴾ أي نسيا الله تعالى، ونسبا نجاح الحمل ونجاح
الولادة إلى غير الله من الأصنام والأوثان، أو إلى غير الله من أهل
الصلاح المشهورين بين أهل الملل والأديان: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا
يُشْرِكُونَ، أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾. ويتصل بهذا
الموضوع قوله تعالى في هذه السورة: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ، تَبَرَّكَ
اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، وقوله تعالى في سورة لقمان: ﴿هَذَا خَلْقُ
اللَّهِ، فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ، بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ
مُبِينٍ﴾.

وبعدما لقن كتاب الله خاتم أنبيائه ورسله حججه البالغة
ليقارع بها الشرك وأهله، ويبطل بها أباطيلهم وأضاليلهم من
أساسها، عاد إلى رسوله بالمواساة والتوجيه، ليثبت فؤاده على الحق،
وليسلك به مسالك الأناة والصبر، وليمدد بروحي جديد
يستعين به على تحمل الأذى، ومواجهة الجفاء، فقال تعالى مخاطباً
لنبيه: ﴿خُذِ الْعَفْوَ، وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ، وَإِمَّا

يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾.

قال قتادة: «هذه أخلاق أمر الله بها نبيه ﷺ ودله عليها». وقال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «قال علماؤنا هذه الآية من ثلاث كلمات، قد تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات، حتى لم يبقَ فيها حسنة إلا أوضحتها، ولا فضيلة إلا شرحتها، ولا أكرومة إلا افتتحتها، وأخذت الكلمات الثلاث أقسام الإسلام الثلاثة. فقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ تولى بالبيان جانب اللين ونفي الحرج في الأخذ والإعطاء والتكليف، وقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ تناول جانب المأمورات والمنهيات؛ وأنها ما عُرف حكمه، واستقر في الشريعة موضعه، واتفقت القلوب على علمه. وقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ تناول جانب الصفح بالصبر، الذي به يتأق للعبد كل مراد في نفسه وغيره. ولو شرحنا ذلك على التفصيل لكان أسفاراً».

وعلى عكس ما فهم بعض المتأخرين من كلمة «العرف» الواردة هنا، فحملها على الأعراف والعادات، نبه القاضي أبو بكر (ابن العربي) وغيره من المفسرين والفقهاء إلى أن المراد بالعرف في هذا السياق هو «المعروف من الدين، المعلوم من مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، المتفق عليه في كل شريعة». وقد امثل رسول الله ﷺ أوامر ربه حق الامثال، وطبقها في حياته وسلوكه على التمام والكمال، ثم بسط القاضي أبو بكر (ابن العربي) القول في تفسير هذه الآية وتحليلها فقال: «أما العفو فانه عام في متناولاته، ويصح أن يراد به: خذ ما خف وسهل مما تُعطى، فقد كان رسول الله ﷺ يقبل من الصدقة التمرة والقبضة والحبة والدرهم والسَّمَل

(الثوب البالي) ولا يلمز شيئاً من ذلك ولا يعيبه، ولقد كان يُسْقِط من الحقوق ما يقبل الإسقاط، حتى قالت عائشة في الحديث الصحيح: «ما انتقم رسول الله لنفسه قط».

«وأما الاحتمال، فلقد كان (ص) يصبر على الأذى ويحتمل الجفاء، حتى قال ﷺ: «يرحم الله موسى، لقد أوزي بأكثر من هذا فصبر».

«وأما مخالفة الناس وملاطفتهم فقد كان أقدر الخلق عليها وأولاهم بها: فإنه كان ﷺ يلقي كل أحد بما يليق به، من شيخ وعجوز، وصغير وكبير، وبدوي وحضري، وعالم وجاهل، ولقد كانت المرأة توقفه في السكة من سكك المدينة فيقف لها، ولقد كان يقول لأخ صغير لأنس: يا أبا عُمَيْرٍ ما فَعَلَ النُّغَيْرُ، متلطفاً ومؤنساً (والنُّغَيْرُ تصغير النُّغْر) وهو طائر يشبه العصفور أحمر المنقار. ولقد كان يكلم الناس بلغاتهم (أي بلهجاتهم) تأنيساً لهم وتطبيهاً لخواطريهم» انتهى كلام ابن العربي.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ورد معناه في كتاب الله في آيتين أخريين، إحداهما في سورة «قد أفلح المومنون» وهي قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ، وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ وثانيتها في سورة «حم السجدة» وهي قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ قال ابن كثير: «ولا رابع لمن في كتاب الله».

وأصل «النزغ» الفساد، أما بالغضب أو غيره، و«العياذ بالله»

هو الاستجارة به من الشر، والالتجاء والاستناد إلى حمايته سبحانه، قال ابن جرير في تفسير هذه الآية: ﴿وَأَمَّا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ﴾ أي واما يغضبنيك من الشيطان غضب يصدك عن الإعراض عن الجاهل، أو يملكك على مجازاته ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أي فاستجر بالله من نزعه: ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي «سميع» لجهل الجاهل عليك والاستعاذة به من نزعه، وسميع لغير ذلك من كلام خلقه، إذ لا يخفى عليه شيء، و«عليم» بما يُذهب عنك نزع الشيطان، وعليم بغير ذلك من أمور خلقه.

وقال القاضي عبد الجبار: «معنى قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ﴾ التحرز من وسوسة الشيطان، لأن الشيطان لا يتمكن من الرسول ﷺ، وربما كان الخطاب هنا بذكر الرسول ﷺ، والمراد غيره»، أي أن يكون الخطاب الموجه ظاهراً في هذه الآية إلى الرسول، موجهاً في الحقيقة عن طريقه إلى أمته، فهي المقصودة به بالذات، حتى تتغلب على ما للشيطان من وساوس وهمزات.

وختمت سورة الأعراف بالتنويه بكتاب الله وهديه، ودعوة كل مومن إلى سماع القرآن والإنصات إليه من كل قلبه، وبتعريف المومنين أجمعين بما يلزمهم من أدب الدعاء وحسن العبادة، حتى يحظوا بالقبول عند الله ويندرجوا في سلك أهل السعادة، وذلك قوله تعالى في ختام سورة الاعراف: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ، وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ، وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ، إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾.

الربع الثالث من الحزب الثامن عشر
في المصحف الكريم

كَمَا

أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴿٥﴾
يَجِدُ لَوْلَاكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ
وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّاغُوتَيْنِ
أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ
وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾
لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾
إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ وَأَنَّهُ مُدْرِكُ الْآلِفِ
مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدَفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى
وَلِنَطْمِئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ
إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ
وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ

عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ
 بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ مَعَكُمْ
 فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا
 الرَّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾
 ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ
 وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَلِكَمُ فَذُوقُوهُ
 وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا
 لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْآدْبَرَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُؤَلِّمِهِمْ
 يُؤَمِّدِ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ
 بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوِيهٖ جَهَنَّمُ وَيَبِسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾
 فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ
 وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ
 سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَلِكَمُ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾
 إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَ كُرُوفُ الْفَتْحِ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ
 لَّكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدَّ وَلَنْ تُغْنِي عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا
 وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا

أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾
وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾

الربع الثالث من الحزب الثامن عشر في المصحف الكريم

عباد الله

تناول حصة هذا اليوم الربع الثالث من الحزب الثامن عشر في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُوا لَكَرْهُوْنَ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

في حديثنا الماضي ختمنا بعون الله وتوفيقه سورة الأعراف المكية، وكانت ثالث سورة مكية في ترتيب المصحف الكريم، علاوة على سورة الفاتحة وسورة الانعام المكييتين أيضاً، وانتقلنا من سورة الأعراف إلى سورة الأنفال المدنية التي نحن بصدد تفسيرها الآن، وهي خامس سورة مدنية في ترتيب المصحف الكريم، بالإضافة إلى سور: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، التي هي سور مدنية أيضاً.

وسورة الأنفال نزلت بمناسبة غزوة بدر الكبرى، وكانت كما قال الإمام مالك «في سبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان» وذلك في السنة الثانية للهجرة، وغزوة بدر في الإسلام تمثل الجولة الأولى

من جولات الكفاح الإسلامي المظفر، لصد العدوان ورد الطغيان، وإنقاذ المستضعفين الذين كانوا يضطهدون بمكة من الرجال والنساء والولدان.

ومن أجل ذلك أطلق بعض الصحابة على سورة الأنفال اسم (سورة بدر). قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «إن السورة هي سورة بدر كلها، وكلها مدنية إلا سبع آيات، فإنها نزلت بمكة، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينِ﴾ إلى آخر الآيات السبع».

وقد تضمنت سورة الأنفال أهم المبادئ الأساسية التي جاء بها الإسلام لتنظيم شؤون السلم والحرب، وتحديد عوامل النصر وأسباب الهزيمة، وتعيين واجبات المجاهدين في سبيل الله من جهة الإعداد والاستعداد، وتوضيح حقوقهم على الدولة الإسلامية التي يدافعون عن كيانها، وتبيين الطريقة التي يعامل بها أسرى الحرب، والطريقة التي تتبع في الغنائم. وبالإجمال فإن هذه السورة الكريمة وضعت الحجر الأساسي للسياسة الحربية العامة التي يجب أن يطبقها الإسلام كلما اضطر المسلمون إلى خوض غمار الحرب للدفاع عن أنفسهم، ولم يجدوا من خصومهم عدلاً ولا استعداداً للسلام.

وسميت هذه السورة (سورة الأنفال) أخذاً من مطلعها الخاص، حيث ابتدأت بقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْآنْفَالِ، قُلِ الْآنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾.

وكلمة (الانفال) هنا تعني بالخصوص الغنائم التي غنمها المجاهدون في غزوة بدر، فقد كانت أول شيء من نوعه بالنسبة لكثير منهم، فبادر الوحي الإلهي إلى التصريح بما يرفع في شأنها كل غموض، ويرفع في أمرها كل نزاع، وأعلن كتاب الله أن الحكم الخاص بها موكول إلى الله ورسوله رأساً، لَأَنَّ حُكْمَهُمَا لَا يَلْحَقُهُ مِيلٌ وَلَا حَيْفٌ وَلَا جَوْرٌ، ولم يكن الحكم فيها موكولاً إلى اجتهاد المجاهدين أنفسهم، حذراً من أن يكون في حكمهم دخل لاعتبارات لا علاقة لها بالجهاد، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ، قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ ثم جاء الحكم في شأنها مفصلاً كما سيأتي في قوله تعالى في نفس السورة: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ الآية.

ونبهت الآيات الكريمة إلى أن الحكمة الإلهية في جعل الحكم في الغنائم موكولاً إلى الله ورسوله هو تنقية الجو من كل ما يؤدي إلى فساد ذات البين بين الإخوة المجاهدين، وحمائتهم من عوامل الشقاق والنزاع، إذ متى كان الحكم في أمر من الأمور صادراً عن الله ورسوله، فلن يسع المؤمنين أجمعين إلا طاعة حكمهما، والالتزام بأمرهما، ومن شأن المومن إذا ذكر الله أمامه أن يخشع ويلين، ويخضع لحكمه ويستكين، وذلك ما أشار إليه قوله تعالى بعد مطلع سورة الأنفال - آخر الربع الماضي -: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ، إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ -

أي زادتهم تصديقاً - ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ وردت في أوله كاف التشبيه: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ﴾ وقد اختلف المفسرون في السبب الجالب لهذه الكاف من ناحية الإعراب.

ومن أحسن ما ورد في ذلك ما قاله القاضي عبد الجبار: «هذا الجنس من الحذف ربما يعد في كمال الفصاحة، فبشر الله نبيه بالنصرة التامة وجميل العاقبة يوم بدر، كما سهل له الخروج من بيته» إلى آخر كلامه، وذلك رغماً عن تناقل بعض المومنين وتردهم في الخروج، طبقاً لقوله تعالى في نفس السياق: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ﴾ وإنما ثقل الخروج عليهم لقتال المشركين، لما فيه من المشقة الزائدة، على حد قوله تعالى في آية أخرى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ، وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ، وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ، وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾. وليس المراد أنهم كرهوا الخروج مع رسول الله ﷺ، فذلك لا يتصور في شأن المومنين، خصوصاً السابقين الأولين.

وقد نقلت دواوين السيرة وكتب الحديث أن النبي ﷺ عندما بلغه خروج قريش لقتال المسلمين أخبر الناس واستشارهم، فكان مما قاله المقداد بن عمرو من المهاجرين - وهو الذي اشتهر بالمقداد بن الأسود: «يا رسول الله امض لما أمرك الله به فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون».

ولم يزل رسول الله ﷺ يقول: «أشيروا عليَّ أيها الناس» وكان يريد أن يعرف رأي الأنصار بعدما عرف رأي المهاجرين، ويتخوف أن يكون رأيهم هو التعهد بنصرته ممن ذمه بالمدينة، لا بنصرته ممن هاجمه خارجها، فقال له سعد بن معاذ: «والله لكأنك تريدنا يا رسول الله. قال: أجل. فقال سعد باسم الأنصار: «فوالذي بعثك بالحق ان استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما يتخلف منا رجل واحد، انا لُصْبُرُ عند الحرب، (جمع صبور) صُدُقُ عند اللقاء (جمع صدوق) فَسِرُّ على بركة الله». فَسَّرُ رسول الله ﷺ بقول سعد وقال للمسلمين: «سيروا على بركة الله وأبشروا. والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم».

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ المراد بغير ذات الشوكة «طائفة العير» التي انتظر البعض أن تقع في أيديهم دون قتال، و«ذات الشوكة» هي طائفة النفير من مشركي قريش، التي استنفرها أبو سفيان فجاءت لقتال المسلمين، وكان عددها يتجاوز ألف مقاتل، بينما كان عدد المجاهدين «البدرين» ثلاثة عشر مقاتلاً وثلاثمائة مقاتل لا غير، كما حققه القاضي أبو بكر (ابن العربي)، وبسبب ذلك تخوف بعض المسلمين أن ترجح عليهم كفة المشركين.

ثم بين كتاب الله أن الحكمة من وراء غزوة بدر ليست هي القيام بمناوشة عادية، أو تحقيق مكسب رخيص، وإنما هي مقدمة كبرى لأمر كبير، وشأن خطير، هو انتصار الإسلام على الشرك داخل جزيرة العرب، وظهوره على الملل الباطلة والأديان المنحرفة في

جميع أطراف العالم: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ، لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ الآية، إشارة إلى ما قام به النبي ﷺ يوم بدر عندما نظر إلى أصحابه في المعركة وهم قلة قليلة، ونظر إلى المشركين الذين جاؤوا بعصبة كبيرة، فاستقبل ﷺ القبلة وعليه رداؤه وإزاره، ثم أخذ يقول: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تُعبُد في الأرض أبداً». فما زال ﷺ يستغيث ربه ويدعوه دعاء المضطر حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر وناوله رداءه فارتداه، ثم التزمه أبو بكر من ورائه وقال: «يا نبي الله: كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك وعدك». فلم يلبث ﷺ إلا قليلاً حتى أمد الله المسلمين بمدد من عنده، ونزلت السكينة في قلوب المؤمنين، وحلت البشرية وجاء النصر السريع من عند الله؛ وبذلك تحققت الاستجابة، بعد الإجابة.

وهذا تنبيه من كتاب الله إلى أن الرجوع إلى الله واستمداد عونهِ ونصرهِ في مثل هذه المواقف - مواقف الدفاع عن الإسلام والتضحية في سبيله بالنفس والنفيس - أمر لا غنى عنه في كسب المعارك لمن يريد النصر ويسعى إليه. ومن أجل ذلك سنَّ لنا رسول الله ﷺ هذه السنَّة: سنَّة الاستغاثة بالله والاستنصار بقوته، رجاء إمداده وإعانتته، إذ لا غنى عنها في سلم أو حرب، لقوي أو ضعيف.

وإلى هذه المعاني يشير قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي

مُدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَأِكَةِ مُرْدَفِينَ ﴿١٠٠﴾ - أي متتابعين - : ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ، إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا، سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾. وقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ، وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ، وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾ أي ليعرف المومنين نعمته عليهم بإظهارهم على عدوهم، رغماً عن كثرته وقلتهم: ﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ﴾.

ونبه كتاب الله إلى أن سر النجاح في مثل هذه المواقف، أو مفتاح النصر فيها ليس في كثرة العدد والعدد بقدر ما هو كامن في الإيمان الصادق، والتضحية المثالية، وروح الفداء الخالصة لوجه الله التي يتشبع بها المسلمون، فالعبرة في نظر الإسلام بالكيف قبل الكم، وذلك ما يقتضيه قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾.

وقوله تعالى عقب ذلك: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تعهد من الله تعالى بإعانة أهل الإيمان الحق، وبنصرتهم على غيرهم ولو كانوا ثلثة قليلة، ما تمسكوا بإيمانهم وثبتوا على دينهم، وكانت صلتهم بالله موصولة غير مقطوعة.

واهتمت الآيات الكريمة اهتماماً خاصاً بجريمة الفرار من الصف، مما يمكن أن يحدث في مثل هذه الظروف، وهي الجريمة

التي يطلق عليها في الشريعة اسم «الفرار من الزحف» فمن ارتكبها وقع في الحرام، واستحق العقوبة المغلظة عليها من «الإمام»، اللهم إلا إذا كان مقصوده من هذا العمل مكيدة العدو، فيظن أن الذي تظاهر بالفرار قد خاف منه ويتبعه، وإذا به ينقض عليه ويقتله، أو كان مقصوده الانتقال إلى صف آخر من صفوف المجاهدين في المعركة، بغية إعانتهم على العدو الغادر، وذلك ما يفصله قوله تعالى في أثناء هذا الربع: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْاُدْبَرَ وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ﴾ «يومئذ» أي يوم الزحف أيًا كان ذلك اليوم، بما يشمل يوم بدر أو غيره من أيام الإسلام، على مدى العصور ومرور الأيام، ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ والتحرف للقتال هو أن يُظهر الفرار وهو يريد الرجوع، مكيدة للعدو، حتى يقع العدو في الفخ بسهولة، ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ﴾ والتحيز إلى فئة هو أن ينتقل من مكانه الأول إلى موقع جديد في المعركة، وهو يريد إعانة الفئة المشتبكة فيه مع العدو. أما من ولى دبره وفر من الزحف وهو لا ينوي إلا مجرد الإدبار والفرار، دون أن يهتم بما يقع للمسلمين ورائه من هزيمة وانكسار: ﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوِيَهُ جَهَنَّمُ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

روى البخاري ومسلم في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات. قيل يا رسول الله وما هنَّ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المومنات».

الربع الأخير من الحزب الثامن عشر
في المصحف الكريم

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا
يَعْقِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ
لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا
لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا
أَنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ ﴿٢٩﴾ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا
مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٣٠﴾
وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ
أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ
الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا
تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعَاْمُونَ ﴿٣٢﴾

وَعَامُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ
 عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا
 اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ
 لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ
 الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ
 وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذْ تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ
 ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ
 هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ
 هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ
 أَوْ ابْعَثْنَا بَعْدَ آيِ الْيَمِّ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ
 وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾
 وَمَا لَهُمْ وَاللَّهِ لِيُعَذِّبَهُمْ وَاللَّهُ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
 وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ وَإِنْ أَوْلِيَاءُ هُؤُلَاءِ إِلَّا الْمُتَفَقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
 لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا
 مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ
 تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ

لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ
 عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى
 جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ
 وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُمْ جَمِيعًا
 فَيَجْعَلَهُمْ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُلْ
 لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ
 وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَاتِلُوهُمْ
 حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ
 فَإِنْ لِنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا
 فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نَعَمْ الْمَوْلَىٰ وَنَعَمْ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

الربع الأخير من الحزب الثامن عشر في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب الثامن عشر في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ، وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاغْلُظْوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلِيكُمْ، نِعْمَ الْمَوْلَى، وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.

أول ما ينبغي التنبيه إليه في بداية هذه الحصة هو أن أول آية من هذا الربع ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالآيات السابقة عليها في أواخر الربع الماضي، فقد سبق قبلها قوله تعالى: ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ، وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾. ومعنى هذه الآيات السابقة أن طاعة الله ورسوله واجبة على المؤمنين، وإن مخالفة أمر الرسول بعد العلم بأمره محرمة عليهم وهم منهيون عنها نهياً باتاً، ثم طالبهم الحق سبحانه وتعالى بأن لا يسلكوا مسلك المشركين والمنافقين، إذ المشركون مجاهرون بالمخالفة، مصرُّون على العناد، والمنافقون - وإن أظهروا الطاعة - فهم ينطون على النفاق والإلحاد، ومن هذا

السياق انتقل كتاب الله مباشرة إلى وصف دقيق فيه تبيكيت وتنكيت ينطبق على المشركين والمنافقين الذين نهى الله المومنين عن اتباعهم وسلوك مسلكهم، وفي ذلك تحذير من نفس السلوك، فقال تعالى في شأنهم، تقريباً وتوبيخاً، في بداية هذا الربع: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يُعْقِلُونَ﴾ أي الصم عن سماع الحق، لأنهم لا يستجيبون له، وإن قالوا سمعنا فهم لا يسمعون، والبكم عن الاعتراف بالحق - رغماً عن تلقيه - لأنهم يمتنعون من ذكره وترديده.

وتعبير كتاب الله عن هذا الصنف من الخلق بكلمة «شر الدواب» مناسب لما هم عليه كل المناسبة، فهم يشبهون الحيوانات العجاء في كونها لا تدرك عن طريق الاستماع بأذانها إلى كلام الناس إلا أصواتاً غامضة تعجز كل العجز عن فهمها والإمام بمعانيها، وهم يشبهون الحيوانات العجاء في كونها - وإن كان لها لسان - إلا أنها لا يصل منها إلى الغير إلا نبرات صوتية، لا قيمة لها ولا أهمية، وما دامت آذان هذا الصنف من الناس حين تسمع لا تنقل ما تسمعه إلى قلوبهم، وما دامت ألسنتهم حين تنطق إنما تهرف بما لا تعرف دون وعي ولا شعور، فأذانهم وألسنتهم أشبه ما تكون بأذان الدواب العجاء وألسنتها، وهم بسبب ذلك أدخل في عالم البهائم وأعرق، وأبعد من عالم الإنسان كل البعد. وسبق قوله تعالى في مثل هذا المقام: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ، أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾.

قال القاضي عبد الجبار في كتابه (تنزيه القرآن عن المطاعن)

عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾: «ذمهم على ترك القبول، ثم شبههم بالصم والبكم على طريقة اللغة، في مبالغة ذم من لا يقبل الحق، فربما قيل فيه إنه ميت، كما قال الله تعالى عن مثلهم لرسوله ﷺ: «انك لا تسمع الموق» ولذلك قال هنا بعده: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾، ثم قال: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ فذمهم نهاية الذم» إذ لا خير فيهم ولا أمل في هدايتهم (ولو اسمعهم) أي أفهمهم (لتولوا) أي لارتدوا بعد فهمه على أدبارهم (وهم معرضون) أي صائدون عنه منصرفون، ولن ينفع العقل وحده صاحبه إذا كان قلبه ميتاً، وإحساسه متبلداً.

وانتقل كتاب الله إلى مخاطبة المومنين بأشرف صفاتهم وهي صفة «الإيمان» داعياً إياهم إلى الاستجابة لله والرسول، منبهاً لهم إلى أن تطبيق المنهج الإسلامي في الحياة هو الطريق الوحيد إلى الحياة الطيبة والعيش الكريم، فقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قال الامام البخاري (استجيبوا) أي أجبوا (لما يحييكم) أي لما يصلحكم. وقال عروة بن الزبير: (لما يحييكم) أي للحرب التي أعزكم الله تعالى بها بعد الذل، وقواكم بها بعد الضعف، ومنعكم بها من عدوكم بعد القهر. وقال القاضي عبد الجبار: قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ هو بعث من الله تعالى على الجهاد، فكما ذم من قعد عنه ولم يطع الرسول فيه كذلك مدح من قام بحقه. وأراد بقوله (إذا دعاكم لما يحييكم) أن الجهاد

يؤدي إلى حياتهم، من حيث لولاه لقتلهم الكفار، فهو كقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾، ويحتمل: إذا دعاكم للأمر الذي يؤدي إلى حياة الأبد وهو الثواب. وقال أبو بكر (ابن العربي): «قوله تعالى (لما يحييكم) ليس يريد حياة المشاهدة والأجسام، وإنما يريد به حياة المعاني والقلوب، بدعائه إياهم إلى الإسلام، والقرآن، والحق، والجهد، والطاعة، والألفة».

وليعطي كتاب الله شاهداً حياً على صدق محتوى هذه الآية الكريمة، وعلى كون الدعوة الإسلامية كانت فعلاً نقطة الانطلاق لإقامة حياة عزيزة الجانب موفورة البركات، جاء قوله تعالى في هذا السياق بعد بضع آيات: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَثَاوِينُكُمْ وَأَيْدِكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فمن القلة إلى الكثرة، ومن الضعف إلى القوة، ومن الخوف إلى الأمن، ومن الحجر إلى الرشد، ومن الضيق والخصاصة إلى السعة والغنى عن الناس، ومن الانكسار إلى الانتصار.

والتعبير هنا بقوله تعالى: ﴿تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ تعبير حقيقي ينطبق على الواقع، فقد كان عدد المسلمين في بداية أمرهم بمكة أقل من القليل، وهم لا يتجاوزون بضع عشرات، وكانوا كالنقطة البيضاء في جلد الثور الأسود، إذ ليس في العالم باستثناءهم إذ ذاك إلا مشرك أو مجوسي أو يهودي أو نصراني، والكل يحوك لهم الدسائس، ويتربص بهم الدوائر، ويتنظر لهم أسوأ مصير، فلم تمض إلا سنوات معدودة حتى نصر الله عبده، وهزم

الأحزاب وحده، وفك عن الإسلام الحصار المضروب من حوله، وانطلق كالموج الزاخر يزحف في مده الطالع من مكان إلى آخر، وكالشمس المضيئة تسطع على بقاع العالم بقعة بعد أخرى.

ويقابل معنى الحياة والاحياء المستفاد من قوله تعالى هنا في هذا الربع: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ معنى الهلاك والفناء المضاد له، المستفاد من قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾. روى الترمذي وصححه، وأبو داود، والنسائي، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه، وقال الحاكم إنه على شرط الشيخين، وابن جرير في تفسيره، كلهم من حديث يزيد بن أبي حبيب عن «أسلم» مولى عمران التجيبي قال: «حمل رجل من المسلمين على صف الروم في غزوة كانوا يغزونها حتى دخل فيهم، ومعنا أبو أيوب الأنصاري، فقال ناس: ألقى بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب الأنصاري: أيها الناس إنكم تتأولون هذه الآية على غير التأويل، نحن أعلم بهذه الآية، إنما نزلت فينا معشر الأنصار، صحبنا رسول الله ﷺ، وشهدنا معه المشاهد ونصرناه، فلما فشا الإسلام وظهر اجتمعنا معشر الأنصار تخفياً، فقلنا قد أكرمنا الله بصحبة نبيه ﷺ، ونصره، حتى فشا الإسلام وكثر أهله، وكنا قد آثرناه على الأهلين والأموال والأولاد، وقد وضعت الحرب أوزارها، فلنرجع إلى أهلينا وأولادنا فنقيم فيهما، فأنزل الله تعالى على نبيه يرد علينا ما قلنا: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ فكانت التهلكة في

الإقامة في الأهل والمال وفي ترك الجهاد. قال «أسلم» راوي هذا الحديث: فما زال أبو أيوب الأنصاري شاخصاً في سبيل الله حتى دفن بأرض الروم».

وقد نبه مصلحو الإسلام في القرن الأخير، وفي طليعتهم حكيم المشرق جمال الدين الأفغاني الحسيني ومؤرخ المغرب أحمد بن خالد الناصري الجعفري إلى أن أهم سبب كان ولا يزال لطمع الأجانب في العالم الإسلامي هو إهمال المسلمين، لما أمرهم الله به وحضهم عليه، من العناية التامة بالقوة العسكرية، والفنون الحربية، ومن تركهم الاستعداد للجهاد، واعتمادهم في العدة والعتاد على نفس الأجانب، الطامعين في السيطرة على العباد والبلاد.

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن الأمانة الملقاة على عاتق المسلمين وما يجب عليهم إزاء تلك الأمانة، من أداء وصيانة، فقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

و«الأمانة» شجرة وارفة الظلال ذات فروع وأغصان، ويندرج تحتها جميع الأعمال التي ائتمن الله عليها الانسان، فتبدأ بالخلافة عن الله في الارض، والقيام بتطبيق بنود الدستور الإلهي بين جنباها: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ وتوسع الأمانة شيئاً فشيئاً حتى تشمل واجب المسلم في جميع مجالات الحياة: واجبه نحو ملته، ونحو أمته، ونحو دولته، ونحو مجتمعه، ونحو أسرته وأولاده، ونحو

عماله وطلابه، ونحو نفسه التي بين جنبيه، ففي جميع هذه المجالات، وفيما هو أعلى منها أو دونها، توجد أمانة مقدسة، وتوجد مسؤولية كبرى عن تلك الأمانة، حتى لا يضيعها المؤمنون عليها فيُحسبوا في عداد الخائنين. ومن خان أي نوع من أنواع الأمانة الملقاة على عاتقه في أي مجال من مجالاتها يعد خائناً لله ورسوله في نظر الإسلام، لأنه يعتبر العدو «رقم واحد» للصالح العام.

قال ابن كثير: «والصحيح أن هذه الآية عامة، وإن صح أنها وردت على سبب خاص، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء، و«الخيانة» تعم الذنوب الصغار والكبار، اللازمة والمتعدية».

وأخيراً نبّه كتاب الله إلى حقيقة من كبريات الحقائق تبشر المؤمنين وتلقي الطمأنينة في قلوبهم، لا سيما في أوقات الأزمات، والخطوب المدهومات، وهذه الحقيقة هي أنه كما أنفق مشركو قريش كثيراً من الأموال، واستنفروا العدد العديد من الرجال، لقتال المسلمين وإبادتهم، ورغم ذلك باد الشرك وانهمز المشركون، وبقي الإسلام وانتصر المسلمون، فكذلك سينفق خصوم الإسلام بغية القضاء عليه أموالهم، وسيؤيَّبون عليه - لكسْر شوكته - جميع قواهم، لكنّ عناية الله ستضع حداً لمكرهم، وترد كيدهم في نحرهم، فلا يجنون من نفقاتهم العريضة إلا حسرة وخسراناً، ولا من مؤامراتهم الطويلة إلا هواناً وخذلاناً، وذلك ما يتضمنه قوله تعالى في هذا الربع مبشراً للمؤمنين بكتابه، والمتعلقين بأهدابه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ،

فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ
 الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا،
 فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ، أُولَٰئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ﴾.

الربع الأول من الحزب التاسع عشر
في المصحف الكريم

وَأَعْمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ
وَأُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ
كُنْتُمْ وَءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ
يَوْمَ التَّلَقَىٰ أَتَجْمَعُونَ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦﴾ إِنْ أَنْتُمْ
بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْبَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ
مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاحْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ
لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ
عَنْ بَيْنَتِهِ وَيُحْيِي مَنْ حَيَّىٰ عَنْ بَيْنَتِهِ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ
عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَاكِبِ قَلِيلًا
وَلَوْ أَبْرِيكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنْزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ
وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٨﴾ وَإِذْ يُكُونُ

إِذِ النَّقِيتُمْ فِيهِ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِيهِ
 أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ
 تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً
 فَاقْتَبُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾
 وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنزِعُوا عَنْ أَفْئِسَّالُوا وَتَذَهَبَ
 بِرِجْمِكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا
 كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ
 وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾
 وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ
 الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَيْنِ
 نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ وَإِنِّي أَرَى مَا
 لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾
 إِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ
 دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾
 وَلَوْ تَبَرَّآ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ
 وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ

بِمَا قَدَّمْتَ أَيِّدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾
كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ
فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾
ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا
مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ
وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ
بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلُّ كَاذِبٍ مَلِينٌ ﴿٥٤﴾
إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾
الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ
مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فِيمَا تَثَقَفْتُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِدْ
بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدَّكُرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ
قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْمُخَافِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ
لَا يُعْجِزُونَ

الربع الأول من الحزب التاسع عشر في المصحف الكريم

عباد الله

يتناول حديث اليوم الربع الأول من الحزب التاسع عشر في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ الى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبْقُوا، إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾.

بعدما سجلت سورة الأنفال المدنية في مطلعها السابق أن «الأنفال»- وهي هنا المغانم التي غنمها المسلمون في غزوة بدر- موكول أمرها إلى الله ورسوله، لا إلى تقدير المجاهدين أنفسهم ورأيهم الخاص، وأنها ليست ملكاً مباشراً لهم بمجرد الغزو والجهاد: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ، قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ جاءت الآيات الكريمة في بداية هذا الربع تعلن حكم الله ورسوله في شأن تلك الأنفال خاصة، وفي شأن غيرها من الغنائم التي يغنمها المسلمون في حروبهم عامة، وهذا الحكم يتلخص في قسم الغنائم على يد الإمام أو من يخلفه في قيادة الجيش، إلى خمسة أخماس، تكون أربعة أخماس منها لمجموع المجاهدين الذين قاتلوا في سبيل

الله، ويخصص الخمس الباقي لمصالح المسلمين العامة، ولا سيما لذوي الحاجات منهم، الذين يحمل بيت مال المسلمين عادة عبء الصرف على حاجاتهم الضرورية.

وهذا الخمس العام المردود على ذوي الحاجات من المسلمين هو الذي يُطلق عليه كتاب الله هنا «خمس الله والرسول»، كما يُطلق في عرف الشرع على أي نوع من أنواع الحقوق العامة اسم «حق الله»، وإن كان مآل ذلك الحق إلى عموم الناس. ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ وذلك قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ وفيه تعيين لمصارف الخمس العام.

قال عمر بن عبد العزيز: «قوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ يعني في سبيل الله» وقال عطاء بن أبي رباح: «خمس الله والرسول واحد». وقال أبو بكر (ابن العربي): «إنما ذكر الله نفسه في هذا المقام، تشريفاً لهذا الكسب الذي جعله الله من أفضل وجوه الكسب».

وكلمة (الغنيمة) يراد بها ما أخذ من أموال الكفار بقتال، بينما كلمة (الفيء) - وستأتي في آيات أخرى من كتاب الله - يراد بها ما أخذ منهم بغير قتال، كالأموال التي يصالحون عليها، أو يتوفون عنها ولا وارث لهم، وكالخراج والجزية، وهذا النوع لا يخمس مثل الغنيمة، وإنما يتصرف فيه الإمام بما فيه مصلحة المسلمين، ويطلق عليه لفظ (الفيء) لأن الله أفاءه ورده على رسوله والمؤمنين، ووضعه بين أيديهم ليتنفعوا به في مصالحهم العامة، وهم أهل لكل خير،

وأحق بكل نفع. قال ابن كثير: «هذه الآية: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلِّهِ خُمُسُهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ هي تأكيد لتخميس كل قليل وكثير، حتى الخيط والمخيط، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُّغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الآية.

روى الإمام أحمد من حديث عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «ان هذه من غنائمكم، وانه ليس لي فيها إلا نصيبي معكم الخمس، والخمس مردود عليكم، فأدوا الخيط والمخيط، وأكبر من ذلك وأصغر، ولا تغلوا، فان الغلول عار ونار على أصحابه في الدنيا والآخرة» و«الغلول» بمعنى السرقة والاختلاس من الغنيمة.

وروى أبو داود والنسائي أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل لي من غنائمكم - مثل هذه - إلا الخمس، والخمس مردود عليكم».

وروى البيهقي بإسناد صحيح أن رسول الله ﷺ سئل عن الغنيمة فقال: «لله خمسها وأربعة أخماسها للجيش». ثم سئل فما أحد أولى به من أحد؟ فقال: «لا، ولا السهم تستخرجه من جيبيك، ليس أنت أحق به من أخيك المسلم».

وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «ما لي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم فيكم».

وفي الصحيح: «إنما أنا قاسم بعثت أن أقسم بينكم، والله المعطي، فالله حاكم، والنبى قاسم، والحق للخلق».

والخطاب بالأمر في قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن

شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمْسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴿﴾ موجه إلى الذكور من المسلمين القادرين على القتال، فهم الذين منحهم الله بفضلهم أربعة أخماس الغنيمة، وإذا تطوعت المرأة بالقتال - رغماً عن كونه لم يفرض عليها - كان لها نصيب من نفس الغنيمة، لكن بصفة عطية وهدية مجردة، لا بصفة سهم مفروض، كما ثبت في الصحيح: «أن النساء كن يُحَدِّثْنَ من الغنيمة ولا يُسَهَمَ لهن» ومعنى يُحَدِّثْنَ - أي يعطين - من «الحُدُوءِ»، وهي العطية والهدية، واستحسن ابن حبيب من أئمة المالكية أن يكون لها سهم في الغنيمة أيضاً.

والعبرة بالنسبة إلى التعبئة وحمل السلاح في الإسلام إنما هي بإطاقة القتال والقدرة عليه، بحيث يُقْبَلُ فيه حتى المراهقون متى كانوا أقوىاء على القتال، فقد عرض ابن عمر على رسول الله ﷺ يوم أُحُدٍ وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزه ﷺ، ثم جاء يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة، وعرض على رسول الله ﷺ فأجازه، وأذن له بالمشاركة في المعركة مع كبار المجاهدين.

وإنما يثبت السهم في الغنيمة لمن حضر القتال دون من غاب، ولو كانت غيبته لعذر، اللهم إلا إذا كان الغائب قد تغيب في مصلحة الجيش، فإنه يشارك من حضر بسهمه، كما ذهب إليه محمد بن المواز من المالكية، ومن حضر مريضاً كمن لم يحضر، اللهم إلا إذا كان له رأي يساهم به في تدبير الحرب، وذهب أشهب من المالكية إلى أن المجاهد الأسير يسهم له وإن كان مقيداً بالحديد.

وأما من يصحب الجيش للمعاش كالأجراء والصناع والتجار ممن لم يقصدوا القتال ولا خرجوا للجهاد، فلا حق لهم في الغنيمة،

مصدقا لقوله تعالى في سورة المزل: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى، وَأَخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ، وَأَخَرُونَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فقد ميز الله في هذه الآية القتالين عن أهل المعاش من المسلمين. وبين حال كل فريق وحكمه، نعم، إذا اشترك الأجراء والصناع والتجار في نفس القتال إلى جانب بقية المجاهدين - علاوة على ما يقومون به من كسب معاشهم - كان لهم حقهم في الغنيمة، لأن سبب الاستحقاق قد وجد منهم كما نص عليه المحققون.

وإذا كان كتاب الله لم ينص على أي تفصيل أو تفضيل في شأن الأربعة الأقسام التي منحها للمجاهدين الغانمين، فقد جاءت السنة النبوية الكريمة ببعض التفصيل والتفصيل، ذلك أن النبي ﷺ فاضل بين الفارس والراجل من المجاهدين، فأعطى للراجل سهماً واحداً، وأعطى للفارس سهمين اثنين.

قال أبو بكر (ابن العربي): «وذلك لكثرة العناء وعظم المنفعة» - أي بالنسبة للفارس - «فجعل الله التقدير في الغنيمة بقدر العناء في أخذها، حكمة منه سبحانه فيها، ووقف بعض العلماء عند الحد الذي فاضل به رسول الله ﷺ بين الفارس والراجل، واستحسن البعض الآخر إعطاء الفارس بدلاً من سهمين ثلاثة أسهم، له واحد ولفرسه اثنان، ومن له عدة أفراس أسهم لواحد منها، إذ لم يرد عن النبي ﷺ أنه أسهم لأكثر من فرس واحد».

وهكذا أحكم الله أمر الغنيمة بقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ

وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴿١٠﴾. وبهذا الحكم الإلهي الحكيم في الغنائم، أسقط الله حكم الجاهلية الظالم: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ ذهب كثير من المفسرين إلى أن المراد به نفس المعنى المقصود في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ وعن عمر بن عبد العزيز أن القرابة لا يعطون من الخمس إلا بالفقر، قال مالك: وبه أقول. واحتج مالك بأن ذلك جعل لهم عوضاً عن الصدقة، لأنها لا تحل لآل البيت.

وقوله تعالى: ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾ المراد به أيتام المسلمين الفقراء، واليتيم من فيه ثلاثة أوصاف: موت أبيه قبل بلوغه، ووجود الإسلام فيه أصلاً أو تبعاً لأبويه، وحاجته إلى الرِّفد والمساعدة. وتوسع بعض العلماء فأدرج في اليتامى المستحقين حتى اليتامى الأغنياء، بوصف يتمهم، لا بوصف غناهم.

وقوله تعالى: ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ المراد به المسافر الذي يَجْتَازُ الطريق محتاجاً، وإن كان غنياً في بلده، ومثله من عزم على السفر إلى مسافة تقصر فيها الصلاة، دون أن يكون عنده ما ينفقه في ذلك السفر.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَيْنِ﴾ إشارة إلى يوم بدر الذي فرَّق الله فيه بين الحق والباطل، وأعلى كلمة الإيمان على كلمة الشرك، والمراد: ﴿بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ عدوة الوادي القريبة

إلى المدينة، وبها نزل المسلمون، والمراد: ﴿بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ العدوة البعيدة عن المدينة والقريبة إلى ناحية مكة، وبها نزل المشركون.

وقوله تعالى: ﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ إشارة إلى العير التي كانت تحمل تجارة قريش من الشام في طريقها إلى مكة، محاذية لساحل البحر.

وقوله تعالى: ﴿لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي ليقضي ما أَراده من إعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله، بقدرته ولطفه.

وقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ يتضمن تلقين المؤمنين آداب المعركة وصدق اللقاء، وأمرهم بالثبات والتجلد عند مواجهة الأعداء. جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «فإذا لقيتموهم - أي الأعداء - فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف». وجاء في حديث آخر أن رسول الله ﷺ قال: «فإذا لقيتموهم فاثبتوا واذكروا الله، فان صخبوا وصاحوا فعليكم بالصمت». وقال قتادة في تفسير هذه الآية: «افترض الله ذكره عند أشغل ما يكون، عند الضرب بالسيوف». قال أبو بكر (ابن العربي): «قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ فيه ثلاثة احتمالات:

١) اذكروا الله عند جزع قلوبكم، فإن ذكره يُثبِت.

٢) اذكروا الله بالقلب واللسان حتى يثبِت القلب على اليقين

ويسكن، ويثبت اللسان على الذكر ولا يضطرب.
 (٣) اذكروا ما عندكم من وعد الله لكم، بابتياحه أنفسكم
 منكم، ومثامنته لكم.

ثم عَقَّبَ على هذه الاحتمالات قائلاً: «وكلها مراد، وأقواها
 أوسطها، فإن ذلك إنما يكون عن قوة المعرفة، ونفاذ القرينة، واتقاد
 البصيرة، وهي الشجاعة المحمودة في الناس».

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَا تَنَزَعُوا فَنَفْسُلُوا
 وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ، وَاصْبِرُوا، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ يتضمن أفضل
 وصية من الله لعباده المومنين، وهي الوصية التي تمسك بها السابقون
 الأولون، وشدوا عليها يد الضنين، ومهما عاد المسلمون إلى التمسك
 بها أعاد الله إليهم ما عودهم من النصر والفتح المبين. ومن أصدق
 ما قيل في تحليل هذه الوصية الإلهية وتعليلها ما ذكره القاضي أبو
 بكر (ابن العربي) حيث قال: «هذه الوصية هي العمدة التي يكون
 معها النصر، ويظهر بها الحق، ويسلم معها القلب، وتستمر معها
 على الاستقامة الجوارح، فإنما يقاتل المسلمون بأعمالهم لا
 بأعدادهم، وباعتقادهم لا بأمدادهم»، ثم علق على ما نهى الله عنه
 من التنازع، وما ينشأ عن التنازع من فشل فقال: «وهذا أصل
 عظيم في المعقول والمشروع... فإذا ائتلفت القلوب على الأمر
 استتب وجوده، واستمر مَريُّه، (يقال استمر مَريُّه إذا استحکم عزمه)
 وإذا تخلخل القلب قصر عن النظر، وضعفت الحواس عن
 القبول. والائتلاف طمأنينة للنفس، وقوة للقلب، والاختلاف
 إضعاف له، فتضعف الحواس، فتقعده عن المطلوب، فيفوت

الغرض، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْزَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾. وكفى (بالريح) عن اطراد الأمر ومضائه، بحكم استمرار القوة فيه، والعزيمة عليه، وأتبع ذلك بالأمر بالصبر، الذي يبلغ العبد به إلى كل أمر متعذر، وذلك بوعده الصادق في أنه مع الصابرين: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

وأخيراً أخبر الله عباده المومنين أنه منزّه عن أن يظلم أحداً من الخلق، وأنه لا يغير نعمة أنعمها عليهم إلا إذا كفروا بأنعمه وتواطأوا على نصره الباطل وإبطال الحق، وذلك قوله تعالى في أواخر هذا الربع: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، وقوله تعالى في ختامه: ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا، إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾.

الربع الثاني من الحزب التاسع عشر
في المصحف الكريم

﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ
 الْحَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَعَآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ
 لَا تَعْمَلُوهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ
 اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ
 فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾
 وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ
 بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَالْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي
 الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ
 بِبَنِهِمْ وَإِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبَكَ اللَّهُ
 وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ
 عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا

مَائَتَيْنِ وَإِنْ تَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ
 كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٥﴾ أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ
 وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ تَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ
 يَغْلِبُوا مَائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ
 بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ
 يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُبْخِزَ فِي الْأَرْضِ تَرْيَدُونَ عَرَضَ
 الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٧﴾ لَوْلَا
 كُنْتُ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٨﴾ فَكُلُوا
 مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩﴾
 يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ
 فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ
 وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا
 اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمَّكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢١﴾ إِنَّ الَّذِينَ
 ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ
 اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ ءَأَوْلِيَاءُ بَعْضٍ
 وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَٰلِيْنِهِمْ مِنْ شَيْءٍ

حَتَّىٰ يَهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا
 عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٦﴾
 وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ
 فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا
 لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدِ وَهَاجَرُوا
 وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَرْحَامُ بَعْضُهُمْ
 أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

٩ سُورَةُ التَّوْبَةِ مَدِينَتُهُ وَعَايَاتُهَا ١١٩

بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾
 فَسِيمُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ
 وَأَنَّ اللَّهَ مُخَيِّرُ الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ
 يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن
 تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ
 وَنَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ الْهِمِّ ﴿٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ

الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتَمُّوا
 إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ①

الربع الثاني من الحزب التاسع عشر في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول تفسير الربع الثاني من الحزب التاسع عشر في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة الأنفال المدنية: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ، تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ، اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ إلى قوله تعالى في سورة التوبة المدنية أيضاً: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتَمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ، إِنَّ اللَّهَ مُجِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

بعدما نبه كتاب الله في نهاية الربع الماضي إلى ما قد يتعرض له المومنون من دسائس ومؤامرات، يبيتها لهم أعداء الإسلام، وخاصة ما يقوم به أولئك الأعداء من خيانة متوالية للعهود، ونقض مستمر للمواثيق، إذ لا عهد لهم ولا ميثاق، فقال تعالى في شأنهم: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾.

وبعدما دعا كتاب الله إلى وجوب التنكيل بأعداء الإسلام

الخائنين للعهود، والضرب على أيديهم عند لقاءهم دون هواده، حتى يعتبر بهم غيرهم من بقية الأعداء، وحتى لا يحدثوا أنفسهم بالعدوان من جديد على المسلمين، فقال تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثَقَّفْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَّنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

وبعدما أمر الله رسوله والمومنين بالاحتياط التام، من تحركات أعداء الإسلام، وبالمبادرة إلى نقض عهدهم عند توقع خيانتهم، بمجرد ظهور بوادر الخيانة وبروز آثارها، وإن لم يكونوا قد أعلنوا خيانتهم رسمياً، فقال تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ جاءت الآيات الكريمة في أول هذا الربع بقاعدة قرآنية عامة، وخطاب إلهي موجه إلى كافة المومنين، بصفة مؤكدة ومستمرة إلى يوم الدين، وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾. ففي هذا الخطاب الإلهي الحكيم يأمر الله عباده المومنين أمراً قاطعاً بإعداد كل ما في إمكانهم واستطاعتهم من وسائل القوة، الكافية لمجابهة أعداء الإسلام، وعدم الغفلة عن هذا الاستعداد، على مدى السنين والأعوام.

وكتاب الله في هذه الآية لا يحدد نوعاً خاصاً من أنواع (القوة)، وإنما يأمر بإعداد القوة بكل ما في الوسع والطاقة، وعلى الاطلاق والشمول، دون تعيين لنوعها، ولا تحديد لشكلها، لأن أنواع القوة وأدواتها تختلف من عصر إلى عصر، ومن جيل إلى جيل، فلكل عصر نوع من القوة يقهر الأعداء، ونوع من السلاح يفيد في مقاومتهم ويردهم على أعقابهم. والله تعالى بمقتضى هذه الآية يلزم المسلمين بأن يكونوا أقوياء غير ضعفاء، وبأن يكونوا في

مستوى كافٍ من القوة يجعلهم في مأمن من طمع الطامعين، وعدوان المعتدين، إذ هو سبحانه وتعالى أعلم بما سيواجهه الإسلام منذ ظهوره في العالم من أحلاف عدائية، ودسائس سياسية وعسكرية، ومؤامرات صليبية وصهيونية وإلحادية، دون انقطاع، إلى أن يرث الله الأرض وَمَنْ عَلَيْهَا. ولذلك نزلت هذه الآية المحكمة واضحة كل الوضوح، صريحة كل الصراحة، تحذيراً للمسلمين من الغفلة عما يقوهم، وتذكيراً لهم بما يحيط بهم باستمرار من دسائس أعدائهم ومؤامراتهم، مما يلزم الاستعداد لرده والوقوف في وجهه في كل جيل، دون تهاون ولا إهمال ولا تردد. قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «أمر الله سبحانه وتعالى بإعداد القوة للأعداء، بعد أن أكد في مقدمة التقوى، وإن الله تعالى لو شاء لهزمهم - أي الأعداء - بالكلام والتقل في الوجوه»، إلى أن قال: «ولكنه أراد أن يبلو بعض الناس ببعض، بعلمه السابق، وقضائه النافذ، فأمر بإعداد القوى والآلة من فنون الحرب، التي تكون لنا عُدَّة، وعليهم قوة، ووعد على الصبر والتقوى بإمداد الملائكة العليا».

وكتاب الله عندما يتحدث عن (القوة) ويدعو المسلمين إلى إعدادها بكل الوسائل لا يقصد بلفظ القوة معناها المادي المجرد وحده، المتمثل في الآلات والأدوات الحربية، وإنما يقصد منها معناها المادي ومعناها الروحي في آن واحد، بل إن القوة الروحية عنده بالنسبة إلى القوة المادية تعتبر كالجوهر بالنسبة للعرض، والروح بالنسبة للجسد، فالقوة الروحية في نظر الدين والأخلاق، والروح المعنوية العالية، في نظر المختصين من رجال الدراسات

النفسية والأبحاث العسكرية، هي منبع كل قوة، وأساس كل نصر، وبدونها تضطرب القلوب وتنهار الأعصاب، وتصبح الهزيمة من كل جيش قاب قوسين وعلى الأبواب، لكن إذا كانت قوة الإيمان بالله وتقوى الله تقود جنود الإسلام، في خطواتهم إلى الأمام، فيبشّره من عند الله بالفتح المين، والنصر والتمكين، ووقتئذ يتم وعد الله بالغلبة على الكافرين، ويصدق قول الله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبْقُوا، إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ أي أنهم لا يعجزون الله، فهم في قبضته، وتحت قهره ومشيتته.

وبعدما أمر الله المسلمين بإعداد القوة لكبح جماح أعداء الإسلام، بشكل عام، خصّ كتاب الله بالذكر من بين أنواع القوة نوع الخيل، فقال تعالى: ﴿وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ وقد كانت الخيل في الحروب الماضية تحتل مكاناً بالغ الأهمية، ولا تزال الخيل إلى اليوم تقوم بدور مهم في العمليات الحربية، ولا سيما عندما تتعذر الحركة على الأدوات الآلية. ولعل ذكر «الخيل» هنا إنما ورد على وجه التنبيه، نظراً لأن الخيل كانت في العهد الإسلامي الأول أهم شيء في الحرب، وذلك حتى يقيس المسلمون عليها غيرها، ويهتموا في مستقبل الأيام بكل ما يحدث ويتجدد من أدوات القوة ووسائلها الفعالة، فالعبرة أولاً وأخيراً إنما هي بإعداد القوة التي لا تضام، والاستعداد التام للعدو الظاهر والخفي على الدوام.

ومن اللطائف في هذا الباب ما قام به علماء الشريعة من مناقشات، وما شغلوا به أنفسهم من مقارنات بين أدوات الحرب

أيها أفضل، اهتماماً بهذا الموضوع: هل أن ركوب الخيل أفضل من الرمي، أم أن الرمي أفضل من ركوب الخيل، فذهب الإمام مالك إلى الرأي الأول، استناداً فيما يظهر إلى قوله تعالى هنا: ﴿وَمِنْ رَبَاطِ الْخَيْلِ﴾ وإلى قوله ﷺ: «الخيل معقود في نواصيها الخير، إلى يوم القيامة. الأجر والمغنم» وهذا الحديث رواه البخاري في صحيحه عن عروة بن أبي الجعد.

وذهب غيره إلى الرأي الثاني، استناداً إلى أحاديث نبوية أخرى، فقد روى الإمام أحمد من حديث عقبة بن عامر قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ألا إن القوة الرمي. ألا إن القوة الرمي. ألا إن القوة الرمي. ثلاثاً». وهذا الحديث مروى عن رسول الله في صحيح مسلم أيضاً. وروى الإمام أحمد وأصحاب السنن من حديث صالح بن كيسان أن رسول الله ﷺ قال: «ارموا واركبوا، وأن ترمؤا خير من أن تركبوا».

وبعدما أمر كتاب الله المؤمنين من عباده بإعداد القوة لمواجهة خصوم الإسلام، حتى يصونوا البيضة ويحموا الذمار، أخذ يكشف الستار عن الحكمة الإلهية من وراء هذا الأمر القاطع، في إيجاز وإعجاز، فقال تعالى: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ، اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ ومعنى هذه الآية الكريمة أن الحكمة من وراء أمر المسلمين ببذل كل ما في المستطاع، للحصول على القوة المادية إلى جانب القوة المعنوية، هي تخويف أعدائهم من مواجهتهم، وقطع كل أمل في الطمع فيهم، وتحذيرهم من نتائج

أي عدوان يغامرون به ضد المسلمين، إذ إن ضعف الضعفاء يُغريهم ويُطمع فيهم جميع الأقوياء، فالقوة مهما وجدت وتيقن العدو من وجودها وحسن استعمالها، فكّر العدو في الأمر وقدر ولم يغامر في أغلب الظروف، بحيث متى راوده الطمع في المسلمين يوماً من الأيام وجدهم على أهبة الاستعداد، ووقفوا له صفاً واحداً بالمرصاد.

وكتاب الله ينبه المسلمين إلى أن عدو الله هو عدو لهم في نفس الوقت كما قال تعالى هنا: ﴿عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ والمراد بعدو الله عدو دينه، وعدو رسوله، وعدو كتابه، وعدو الأمة المومنة. ومن خلل العقل وبلادة الذهن اعتقاد بعض البسطاء أن عدو الله يمكن أن يكون عدواً لدوداً للإسلام، لكن يكون في نفس الوقت صديقاً حميماً للمسلمين. فهذه فكرة سخيفة لا تنسجم مع عقل ولا مع شرع.

وها هي الأحداث الأخيرة قد كشفت النقاب بما لا يدع الشك لمسلم، عن أمرين خطيرين:

الأمر الأول: ما لا يزال يحمله أعداء الإسلام للمسلمين من حقد وضغينة وشماتة، ونوايا سيئة ضدهم جميعاً، وذلك بمناسبة نكبة فلسطين الكبرى، التي وجدتهم مضعضعي القوى مادياً وروحياً.

والأمر الثاني: صدق كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ووجوب تنفيذ أمره، بإعداد القوة والاستعداد للعدو، وبذل النفس والنفيس في هذا السبيل، وإلاً حقت على

المسلمين كلمة العذاب، وطرقت ساحتهم المصائب والنوائب من كل باب.

وقوله تعالى في هذا السياق: ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ، اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ إشارة إلى أن للإسلام والمسلمين أعداء الداء غير ظاهرين، وإلى أنه كما يجب على المسلمين أن يستعدوا لأعدائهم التقليديين المعروفين، فعليهم أن يدخلوا في حسابهم دائماً أولئك الأعداء المستترين الذين يعملون ضدهم في السر والخفاء، بينما يواجهونهم بالكلام المعسول وباللين لا بالجفاء: ﴿يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾. وعداوة هؤلاء الأعداء المستترين أدهى وأمر، وأنكى وأشد من الأعداء المكشوفين، لأنهم هم الذين يوجهون الآخرين عن طريق جمعياتهم السرية، ويرسمون للباقيين خطط تخريب العالم الإسلامي وتدمير مقدساته، ويعرفونهم بالوسائل الفعالة لعرقلة نموه وتطوره: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾. ومن هنا كان عبء المسلمين ثقيلاً ولا سيما في هذا العصر، وكانت اليقظة الدائمة والاستعداد المستمر أوجب الواجبات، على خاصة المسلمين وعامتهم في جميع الأوقات.

ثم نبه كتاب الله إلى التضامن التام القائم بين أعداء الإسلام، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾. ومقابل هذا التضامن القائم بين ملّة الكفر، والموجه إلى أذى المسلمين، حضّ كتاب الله على توثيق أواصر الألفة بين المومنين، منوهاً بالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، حتى يسلك طريقهم من جاء بعدهم من الأوفياء الأبرار، فقال تعالى: ﴿إِنَّ

الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالَّذِينَ
 ءَاوُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَاءَكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴿٤٠﴾، إِذْ لَا يُقَاوِمُ تَضَامِنَ أَهْلِ
 الْبَاطِلِ وَتَكْتَلُهُمْ، وَلَا يُقْضَىٰ عَلَىٰ آثَارِهِ السَّيِّئَةِ، إِلَّا بِتَضَامِنِ أَهْلِ
 الْحَقِّ وَتَكْتَلُهُمْ صَفَاً وَاحِداً، وَلَا يَفِلُ الْحَدِيدُ إِلَّا بِالْحَدِيدِ: ﴿هُوَ
 الَّذِي أَيْدِكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ، وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي
 الْأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ، إِنَّهُ
 عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وأخيراً حذر كتاب الله من مخالفة هذه الأوامر الإلهية الصارمة، التي بامثالها ينهض المسلمون وينصرون، وبمخالفتها تدول دولتهم ويقبرون، فقال تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾. ففي هذه الآية الكريمة آخر إنذار وجهه كتاب الله مباشرة إلى كافة المؤمنين، ومضمون هذا الإنذار الإلهي الخطير: انكم أيها المسلمون إن ضيعتم الألفة التي عقدتها بينكم، وانقسمتم على أنفسكم، وواليتم أعداء الإسلام بدلاً من موالاة بعضكم، وإن أهملتم إعداد القوة اللازمة لحفظ كيانكم، والعمل المتواصل لتدعيم سلطانكم، وإن تخاذلتم عن إعزاز ملتكم وحماية دولتكم، وإن تهاونتم في السعي إلى فرض هيبتكم وإعلاء كلمتكم ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ أي أن لا تفعلوا كل هذا: ﴿تَكُن فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ﴾ أي تقم فتنة في أطراف العالم، وفي الطليعة العالم الإسلامي، وذلك لتسلط قوات الشر والعدوان في كل مكان، ولفقدان التوازن بين القوات المتطاحنة في الميدان، وهكذا يسود البغي والفساد، في جميع أطراف البلاد: ﴿تَكُن فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ وهذا التفسير الذي فسرنا به

قوله تعالى هنا: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾
يزداد جلاءً ووضوحاً كلما تدبرنا بإمعان وروية قوله تعالى في سورة
البقرة تعقياً على صراع طالوت وجالوت: ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ
بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ، وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى
الْعَالَمِينَ﴾، وقوله تعالى في سورة الحج: ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ
بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمْتُ صَوَامِعَ وَبِيَعٍ وَصَلَوَاتٍ وَمَسَاجِدَ يُذَكَّرُ فِيهَا
اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً، وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

الربع الثالث من الحزب التاسع عشر في المصحف الكريم

فَإِذَا أُنْسِلَ

أَلَا شَهْرًا أَحْمَرُ ۖ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ
وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ ۚ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَأَتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾
وَإِن أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ
اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَا مَنَّهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾
كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ
إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَمُوا لَكُمْ
فَأَسْتَفِيمُوا لَهُمْ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن
يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً
يَرْضَوْنَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ
فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اِشْتَرَوْا بِبَايَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا
عَنْ سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ
فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن
تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَتَوْا الزَّكَاةَ فَأِخْوَانُكُمْ فِي

إِلَدِينِ وَنَفَصِلُ الْآبِتِ لِقَوْمٍ يَعْمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن تَكْتُوا
 أَيَّمَنَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا
 أَپَمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْهَوْنَ ﴿١٢﴾
 أَلَا تَقْتَلُونَ قَوْمًا نَّكَتُوا أَيْمَنَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ
 الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُكُمْ وَأُولَٰئِ مَرَّةٍ اتَّخَشَوْنَهُمْ
 فَالَلَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾
 قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ
 وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيَذِيبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ
 وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ
 أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ
 اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾
 مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَي
 أَنفُسِهِم بِالْكَفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَت أَعْمَالُهُمْ وَفِي
 النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَن آمَنَ
 بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ
 وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

الربع الثالث من الحزب التاسع عشر في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثالث من الحزب التاسع عشر في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصِرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ، فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ - آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾.

في الربع الماضي أنهينا تفسير سورة الأنفال المدنية، وانتقلنا منها إلى سورة التوبة المدنية أيضاً، وأول ما يستلفت النظر في سورة التوبة ان «البسمة» غير مكتوبة في أولها كبقية سور القرآن، وإنما لم يبدأ فيها بكتابة البسمة، جرياً على ما اختاره أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه في كتابة المصحف «الإمام»، حيث أن رسول الله ﷺ انتقل إلى الرفيق الأعلى قبل أن يتلقى عنه كتاب الوحي ما يعرفهم هل «سورة التوبة» جزء من «سورة الأنفال» فلا يفصل بينهما بالبسمة، أم هي مستقلة عنها، فتفصل عنها بالبسمة. ونظراً لهذا

الاعتبار قورن بينهما عند كتابة المصحف من جهة، ولم تكتب بينهما البسمة التي تفرق بين سورة وأخرى فرقاً تاماً، من جهة أخرى.

وإنما سميت «سورة التوبة» بهذا الاسم، أخذاً من قوله تعالى في شأن الثلاثة الذين خَلَفُوا ثم تابوا في غزوة تبوك: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ، إِنَّهُ بِهِمْ رَعُوفٌ رَحِيمٌ، وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا، حَتَّىٰ إِذَا ضَاقتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ، وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا، إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

والموضوع الرئيسي الذي تعالجه سورة التوبة هو بيان ما يجب أن تكون عليه علاقات المسلمين بغيرهم من المشركين والمنافقين وأهل الكتاب، وإبراز ما كانت تنطوي عليه نفوس المثبتين والمتخلفين والمتثاقلين، حين استنفر رسول الله إلى غزوة تبوك في السنة التاسعة من الهجرة، بُغيةً فك الحصار الذي كان يضربه الروم إذ ذاك على الدعوة الإسلامية ناحية الشام، وتمهيداً لخروج هذه الدعوة السماوية من جزيرة العرب، وانتشارها في بقية أرجاء العالم.

قال ابن كثير: «وأول هذه السورة الكريمة نزل على رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك، وهمَّ بالحج، ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم ذاك إلى موسم الحج على عادتهم في ذلك، وأنهم يطوفون بالبيت عُرة، فكره ﷺ مخاطبتهم، وبعث أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميراً على الحج تلك السنة، ليقوم للناس مناسكهم، ويُعلم المشركين أن لا يحجوا بعد عامهم هذا، ثم أتبعه بعلي بن أبي طالب ومعه «براءة من الله ورسوله» ليؤذن بها ويبلغها إلى الناس.

ونقل القاضي أبو بكر (ابن العربي) عن أبي المظفر طاهر بن محمد أنه قال: «إنما أرسل النبي ﷺ علياً «ببراءة» مع أبي بكر، لأن «براءة» تضمنت نقض العهد الذي كان عقده النبي ﷺ، وكانت سيرة العرب أنه لا يُلْجأ العقد وينقضه إلا الذي عقده أو رجل من بيته، فأراد النبي ﷺ أن يقطع السنة العرب بالحجة، وأن يرسل ابن عمه الهاشمي من بيته بنقض العهد، حتى لا يبقى لهم متكلم». قال القاضي أبو بكر تعقيماً عليه: «وهذا بديع في فنه».

وهكذا طاف أبو بكر وعليّ بالناس في ذي المجاز، وبأمكناتهم التي كانوا يتبايعون بها، وبالمواسم كلها، وخطب أبو بكر الناس يوم عرفة، ولما أتم خطبته التفت إلى عليّ وقال له: «قم يا عليّ، فأد رسالة رسول الله» فقام عليّ وقرأ عليهم أربعين آية من «براءة»، ثم علم عليّ بعد ذلك أن أهل الجمع لم يكونوا كلهم حضروا خطبة أبي بكر يوم عرفة، فلم يزل يتتبع الفساطيط بمنى فسطاطاً فسطاطاً ويقروها عليهم، حتى بلغت «براءة الله ورسوله» إلى الجميع، وأدرك المشركون من العرب حينئذ أن الساعة قد دقت، وانه لم يبق أمامهم أي احتمال، ما عدا الإسلام أو القتال، وكان المؤذنون يؤذنون يوم النحر: أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

وبهذا التدبير الحاسم الذي اتخذته الرسول بوحى من ربه وضع حداً نهائياً لجميع مظاهر الشرك وشعائره في عبادة الحج، وانتظر رسول الله حلول العام القابل ليدشن بنفسه موسم الحج الإسلامي بشعائره الإسلامية الكاملة، فجاء الرسول عليه الصلاة والسلام على رأس الآلاف المؤلفة من المسلمين ليحج «حجة الوداع»

في السنة التالية، وهي السنة العاشرة للهجرة، دون أن يشارك في تلك الحجة أحد من المشركين.

والآن فلنلق نظرة سريعة على الآيات السابقة من سورة براءة الواردة في نهاية الربع الماضي، لننتقل منها إلى الآيات الواردة منها في بداية هذا الربع، إذ إنها يرتبط بعضها ببعض معنى وسياقاً، وفهم الآيات اللاحقة متوقف على فهم الآيات السابقة.

فقوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي هذه الآيات براءة من الله ورسوله، والبراءة بمعنى التبرؤ، تقول برئت من الشيء إذا أزلته عن نفسك، وقطعت ما بينك وبينه من علاقات.

وقوله تعالى: ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ يستفاد منه مبدأ تشريعي مهم، ذلك أن النبي ﷺ وحده هو الذي عاهد المشركين عندما اقتضت مصلحة المسلمين ذلك، بصفته «إماماً» حاكماً وأمراً، لكن هذه الآية نسبت العهد الذي أعطاه رسول الله وحده إلى جميع المؤمنين، إذ قالت: ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ ولم تقل الآية: (الذين عاهدتكم) نظراً إلى أن كل ما حكم به الرسول ﷺ أو أمر به فهو لازم لأُمَّته، منسوب إليها، ومحسوب عليها، إذ هو رئيسها الأعلى. ومن هنا جاءت القاعدة الشرعية: «أن الإمام إذا عقد أمراً بما يرى فيه المصلحة للأمة لزم حكمه جميع رعاياه، فإذا رضوا به كان أثبت لنسبته إليهم». كما نُسب عهد رسول الله ﷺ الذي كان قد عاهد به المشركين، إلى جميع المسلمين، لكونهم به راضين، وهذا فن بديع من تحقيقات القاضي أبي بكر (ابن العربي) وتدقيقاته.

وقوله تعالى هنا: ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ يقتضي أن أولئك المعاهدين لم يكونوا من أهل الكتاب، فقد كان العهد المشار إليه هنا خاصاً بالوثنيين من العرب.

وقوله تعالى: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ من السياحة أي السير، ومعنى الآية: ان الحد الذي حده الله للذين عاهدوا رسوله من مشركي العرب لا يتجاوز بعد «إعلان البراءة» أربعة أشهر، لهم أن يسيروا خلالها ويذهبوا حيث شاءوا، ناجين بأنفسهم آمنين، ليدبروا أعمالهم، ويتدبروا مآلهم، فإن دخلوا أثناءها في الإسلام كان لهم ما للمسلمين من العصمة والأمان والاحترام، وإن أصروا على الشرك كان لهم عند تمام آخر ليلة من آخر شهر، إما القتل وإما الأسر، وقد استغرق هذا الأجل المحدود بأربعة أشهر: عشرين يوماً من ذي الحجة، وكانت نهايته: اليوم العاشر من ربيع الثاني كما نص عليه ابن كثير، وهذا الأجل الذي ضربه الله للمعاهدين من المشركين - أجل أربعة أشهر - إنما هو بالنسبة لمن كان لهم عهد مطلق، غير موقت ولا محدود المدة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ الآية. المراد «بالأذان» في لسان العرب مطلق الاعلام، أي هذا إعلام مقدم، وإنذار سابق من الله ورسوله إلى الناس، جرياً على المنهج الإسلامي المعروف في قوله تعالى: ﴿لِيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾.

و«يوم الحج الأكبر» إما أنه يوم عرفة كما رواه ابن جرير وابن

أبي حاتم عن ابن عمر، وروي مثله عن ابن عباس وغيره من مفسري السلف، اعتماداً على قوله ﷺ: «الحج عرفة»، وإما أنه يوم النحر كما روي عن الإمام مالك، نظراً لأنه اليوم الذي ترمى فيه الجمرة، وينحر فيه الهدي، وينقضي فيه الحج، ورجح القاضي أبو بكر (ابن العربي) أن المراد «يوم الحج الأكبر» الوارد في هذه الآية بالخصوص هو يوم النحر، لثبوت الحديث الصحيح بذلك، إذ قال ﷺ يوم النحر: «أي يوم هذا؟ أليس يوم الحج الأكبر؟».

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَبُتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يتضمن الإشارة إلى مبدأ أساسي في الإسلام، هو أن الإسلام يجب ما قبله، وذلك لما انبنى عليه من سماحة ورحمة وعفو، فمهما اقتحم المشركون والكفار من المعاصي والجرائم، وارتكبوا من الموبقات والمآثم، ثم أسلموا وجوههم لله، إلا ونالتهم المغفرة، وقبلت منهم التوبة، ولم يواخذوا بما سلف: ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ والحكمة في ذلك تاليهم على الملة، وتسهيل دخولهم في الدين، حتى ينيبوا إلى الله، ويسلموا وجوههم إليه.

أما قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظْهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ فهو استثناء من ضرب الأجل المحدود بأربعة أشهر، ومعناه أن من كان لهم من المشركين عهد موقت بمدة معينة، فالأجل بالنسبة إليهم هو انتهاء المدة المعينة التي عاهدوا عليها، وفي مثل هؤلاء ورد في الحديث: «إن من كان له عهد مع رسول الله ﷺ فعاهده إلى مدته» لكن بشرط أن لا ينقض المعاهد منهم عهده، وأن

لا يمالئ على المسلمين غيرهم، فهذا هو الذي يُوفى له بدمته، ويمتد أجل عهده إلى نهاية مدته. وحضاً للمومنين على الوفاء بالعهد لهذا الصنف من المعاهدين، قال تعالى في نفس السياق: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾. والشأن في المتقي أن يكون وفياً بالعهد، منجزاً للوعد.

ويؤخذ من قوله تعالى في هذه الآية: ﴿ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظْهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ أن المعاهدين من المشركين كانوا قسمين: قسم منهم ثبت على العهد دون خيانة ولا بمألاة ضد المسلمين، وهذا القسم هو الذي استثناه كتاب الله من أجل أربعة أشهر، وجعل أجله انتهاء المدة المتعاهد عليها، وقسم منهم خاس بعهده ونقضه، وهذا القسم هو الذي تولى بيان حكم الله فيه قوله تعالى في هذا الربع: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾.

وزاد هذا الحكم بياناً وتوضيحاً قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ، إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ، لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ، أَلَّا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهُمْ أَوْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَّءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الآية. قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «إنما العهد حكم اقتضاه النظر، والتزمه المسلمون، فإذا نقضه (المعاهد) انتقض كسائر العقود، فإنها تعقد فترت عليها الأحكام، فإذا نُقضت ونُسخت ذهبت تلك الأحكام».

وتأكيداً لنفس الحكم المتعلق بالقسم الأول، وهو الوفاء بالعهد لمن بقي على عهده إلى مدته، قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ

عَهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ﴿١٠﴾، ثم أعطى لهذا الحكم قوة جديدة، فقال في نفس السياق وللمرة الثانية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

وأوضح كتاب الله كيف يكون العمل مع مشركي العرب المعاهدين الذين ضرب لهم أجل أربعة أشهر، إذا انتهى الأجل المضروب لهم دون أن يهتدوا للإسلام، وأصروا على الشرك والمقاومة دون استسلام، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ﴾. والمراد بها هنا بالخصوص «أشهر الأمان الأربعة»، التي أباح لهم أن يسيروا أثناءها حيث شاؤوا آمنين على أنفسهم، فمعناها هنا غير معناها في قوله تعالى: ﴿مِنَهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ﴾.

ثم مضى كتاب الله يقول: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾، وذلك لأن جزيرة العرب قضى الله أن تكون خالصة لدين الحق، وأن لا يجتمع فيها إسلام وشرك، ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أي خذوهم أسرى ﴿وَاحْضَرُوهُمْ واقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ أي اقصدوهم بالحصار في معقلهم، وبالرصد في طرفهم ومسالكهم، فإما أن يهتدوا ويسلموا، وإما أن يقاتلوا إلى أن يستسلموا.

ثم بين كتاب الله كيف يكون العمل معهم إذا اختاروا الإسلام ديناً، فقال تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ أي تابوا من معصية الشرك والوثنية ومعتقدات الجاهلية، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَعَآتُوا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾.

وقوله تعالى هنا: ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ قد تولت السنة النبوية بيان معناه على أكمل وجه، فقال ﷺ: (أمرت أن أقاتل الناس

حتى يقولوا لا إله إلا الله، وقيموا الصلاة ويوتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله) فانظم القرآن والسنة واطردا كما قال القاضي أبو بكر (ابن العربي).

ومما يفيد التنبيه إليه في هذا المقام أن هذه الآية دليل قوي للموقف الصارم الذي اتخذته الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه في قتال مانعي الزكاة، فهذه الآية لم تسمح بتخلية سبيل المشركين المعاهدين وعصمة دمايهم إلا بشرط التوبة من الشرك والدخول في الإسلام، والقيام بواجباته الأساسية، وعلى رأسها إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وصدق أبو بكر الصديق رضي الله عنه عندما قال قوله المشهورة: «لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الله قد جمعها ولم يفرق بينهما». وأعاد كتاب الله نفس المعنى مرة أخرى في هذا الربع، لتقويته في النفوس وتركيزه في الأذهان، فقال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَعَآتُوا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ، وَنُفِّصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ وفي هذه الآية معنى جديد، وهو معنى «الأخوة» بدلاً من معنى «العصبية» ووصف جديد هو وصف «الأخوة في الدين» بدلاً من «حمية الجاهلية»، والأخوة في الدين رابطة تقوم على أساس التماثل في الاعتقاد والتفكير والعمل والسلوك، تشبيهاً لها بتماثل الأخوين ولا سيما إذا كانا شقيقين في كثير من الخصال والحلال، وقد بينت السنة النبوية ما تقتضيه الأخوة في الدين من التزامات أدبية وأخلاقية وعملية، فقال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم».

وانتقل كتاب الله إلى توضيح الحكمة في إنذار الله ورسوله للمشركين، ومنعهم من حج بيت الله الحرام بعد هذا العام، فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ - وعلى رأسها المسجد الحرام - ﴿شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ - أي بحالهم ومقالمهم، بينما بيوت الله، وأشرفها البيت الحرام، إنما أقيمت للتوحيد لا للشرك، وللإيمان لا للكفر، فعمارة المشركين لها قلب للأوضاع: ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ، إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ - آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾، وعمارة المومنين لها يعود الحق إلى نصابه، فمن أراد المساهمة في عمارة بيوت الله، عليه قبل كل شيء أن يخلع الشرك ويومن بالله، ومن أراد الوقوف فيها بين يدي الله، فلا يأت إليها عُرياناً على عادة الجاهلية، ولتزين بزينة الله: ﴿فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾.

الربع الأخير من الحزب التاسع عشر
في المصحف الكريم

أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ
آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ
أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾
يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا
نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ وَأَجْرُهُ
عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ
أَوْلِيَاءَ إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ
مِّنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ
وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ

وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ
 تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ
 فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا
 يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي
 مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ
 فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا
 رَحَبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ
 عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا
 وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾
 ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ
 غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ
 نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا
 وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
 إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَاتِلُوا
 الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ
 مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ

مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ^ص وَقَالَتِ النَّصْرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ^ص ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْتَهُمُ اللَّهُ^ص أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ^ص وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا^ص لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَسْبِغُوا اللَّهَ^ص إِلَّا أَنْ يَتِمَّ نُورُهُ^ص وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ^ص وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

الربع الأخير من الحزب التاسع عشر في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب التاسع عشر، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ كَمَنْ - آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.

في بداية هذا الربع استنكر كتاب الله ما كانت تفتخر به قريش على غيرها من الناس، ولا سيما على المسلمين، من قيام بسقاية الحجاج، وعمارة للمسجد الحرام، وسكنى بمكة على العموم، وأبطل ما كانت تعتقده في ذلك من الفضل على غيرها، وبين كتاب الله أنه لا محل للمقارنة بين من أصر على الشرك، وإن قام بهذه الأعمال، ومن آمن بالله وهاجر مع رسوله، وجاهد في سبيله بالمال والنفس، وأن مجرد القيام بسقاية الحجاج وعمارة الكعبة لا يجعل القائمين بها - وهم مشركون - في درجة المومنين الذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله، فضلاً عن أن يكونوا عند الله

أفضل من هؤلاء. بل ان المومنين أعظم درجة عند الله وأعلى منهم مقاماً، وذلك قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ - آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وهل هناك ظلم يرتكبه الخلق أكبر من ظلمهم للخالق عندما يشركون به غيره وهو الواحد الأحد؟ «إن الشرك لظلم عظيم» ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْبَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ، يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ، خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

وبعد أن رد الله على مشركي قريش ادعاءهم، وأبطل فخرهم وكبرياءهم، انتقل إلى مخاطبة المومنين، وتعريفهم بأن ولايتهم لله ورسوله، وجهادهم في سبيله، هما في نظر الإسلام معيار الإيمان الوحيد، وأن علاقاتهم مع ذوي قرباهم يجب أن تنظم حسب هذا المعيار الجديد، فمن اختار الإيمان على الكفر، وكان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما والاه المومنون، وكانوا له إخواناً وأعواناً، ومن اختار غير ذلك نبذه المومنون ظهرياً، واعتبروه نسياً منسياً، وذلك قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ - إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ - وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ، قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا ﴿أي اكتسبتموها وحصلتموها﴾ وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ﴿أي تخافون نقصان قيمتها﴾ وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا ﴿أي تحبونها لطيبها وحسنها﴾ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ

وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ ﴿ أَي فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿فَتَرَبُّصًا﴾ أَي انْتَظَرُوا مَاذَا يَنْزِلُ بِكُمْ مِنْ شَدِيدِ عِقَابِهِ، وَأَلِيمِ عَذَابِهِ ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ أَي حَتَّىٰ يَغْزُوكُمُ الْعَدُوُّ فِي عَقْرِ دَارِكُمْ، وَيَسْلِبِكُمْ أَعْزَ شَيْءٍ لَدَيْكُمْ: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَاللَّفْظُ لَهُ عَنِ ابْنِ عَمْرٍ أَن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَدَّثَ أَصْحَابَهُ بِحَدِيثِ شَرِيفٍ مِمَّا جَاءَ فِيهِ: «إِذَا تَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذَلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّىٰ تَرْجِعُوا إِلَىٰ دِينِكُمْ».

ثم تناولت الآيات الكريمة في هذا الربع موضوعاً مثيراً كل الإثارة، ألا وهو «يوم حُنين» وماذا جرى في بدايته على المسلمين من امتحان عسير، كان لهم بعد فتح مكة هو أخطر نذير:

ذلك أنه بعد أن فرغ رسول الله ﷺ من فتح مكة، وأسلم عامة أهلها، وتمهدت أمورها، بلغه أن هوازن وحلفاءها جمعوا لقتاله جموعهم بقيادة أميرهم مالك بن عوف النضري، وقد أقبلوا ومعهم النساء والولدان والشاء والنعم، وجاءوا بقضهم وقضيضهم، فخرج إليهم رسول الله ﷺ في جيشه الذي جاء معه لفتح مكة، وكان عدده عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب، ومعه الذين أسلموا من أهل مكة يوم الفتح وهم «الطلقاء» في ألفين من الناس، غير أن هوازن بمن معهم ارتكبوا خدعة حربية كبرى، فكمنوا في وادي حُنين، وهو وادٍ بين مكة والطائف، ولم يشعر المسلمون بهم إلا وقد بادروهم بغتة بالقتال في أول النهار وفي عمية الصبح، وثارت في وجوه المسلمين خيل هوازن، فرشقتهم بالسهم والنبال، وحملت عليهم حملة رجل واحد قبل أن يأخذوا أهبتهم

ويستعدوا للنزال، لكن رسول الله ﷺ ثبت أمام العدو، رغمًا عن أنه كان لا يركب يومئذٍ إلا بغلته الشهباء، وانكشف عنه جيشه، ولم يزل يسوق بغلته إلى نحر العدو ويركضها إلى وجهه، وأبو سفيان بن الحارث أخذ بلجامها، واستمر النبي ﷺ يُعرِّف بنفسه من لم يعرفه، أيًا كان عدوًّا أو نصيرًا، داعيًا المسلمين إلى الرجوع والثبات في وجه العدو، قائلًا: «إيَّ عباد الله، إيَّ أنا رسول الله، أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب».

وأخذ عمه العباس - وكان جهير الصوت - ينادي من جهته بأعلى صوته قائلًا حينًا: «يا أصحاب سورة البقرة» وقائلًا حينًا آخر: «يا أصحاب الشجرة» يعني شجرة بيعة الرضوان التي بايع رسول الله تحتها المهاجرون والأنصار، فجعلوا يرجعون ويقولون: «لبيك لبيك» وانعطف الناس إلى رسول الله ﷺ، فأمرهم أن يصدُقوا الحملة، وأخذ قبضة من تراب فرمى بها العدو بعدما دعا ربه واستنصره وقال: «اللهم أنجز لي ما وعدتني» فما بقي من العدو أحد إلا أصابه من تلك القبضة من التراب في عينيه وفمه ما شغله عن القتال، ونظر رسول الله إلى مُجْتَلِدِ القوم فقال: «الآن جَمِي الوطيس» ولم يلبث العدو أن انهزم انهزامًا شنيعًا، وأخذ يتساقط قتلاه وأسراه أمام رسول الله ﷺ فكان النصر الأخير لرسول الله وللمؤمنين، والهزيمة الأخيرة لهوازن ومن معها من المشركين، ولم تمضِ عشرون يومًا بعد هزيمة هوازن وحلفائها حتى قدمت البقية الباقية منهم على رسول الله ﷺ مسلمين، فعند ذلك قبل إسلامهم وخيرهم بين سبيهم وأموالهم، فاخترأوا سبيهم وكان يبلغ ستة آلاف

نسمة، فرده عليهم، وقسم أموالهم المأخوذة في الغنيمة بين الغانمين، واستعمل رسول الله نفس مالك بن عوف النضري، الذي كان أمير هوازن يقودها يوم حنين، على قومه كما كان عليهم من قبل، تأليفاً لقلوبهم على الإسلام، وانتفاعاً بخدماتهم للدين فيما يستقبل من الأيام.

وهذا الموضوع المثير هو الذي تولت شرحه الآيات الكريمة التالية في أسلوب موجز ومعجز. ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ، وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعَجَبْتَكُمْ كَثَرْتُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّذَبِّحِينَ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا، وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا، وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ، ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ومن هنا عاد كتاب الله إلى الحديث عن المسجد الحرام، ومنع المشركين من قربه ودخوله بعد ذلك العام، معللاً هذا المنع بأن الشرك والمشركين عبارة عن «نَجَسٍ»، فلا يناسب أن يقربوا المقامات الطاهرة، وهم يملأون عقولهم وقلوبهم بأوسخ المعتقدات، ولا يعرفون من وجوه العبادة إلا أُرذل وأسخف الطقوس والعبادات، لا سيما وهو قوم لا يتطهرون، وفي الحُبث والحبائث من قِمة الرأس إلى أخمص القدم غارقون، فقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾. قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «قوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ دليل على أنهم لا يقربون أي مسجد

سواه، لأن العلة - وهي النجاسة - موجودة فيهم، والحرمة موجودة في المسجد، وقد أكد الحال ببيان العلة وكشفها فقال: «إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام» يريد ولا بُدَّ لنجاستهم، فتعدت العلة إلى كل موضع يحترم بصفة المسجدية».

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يمكن تفسيره بمعنى: ان خفتم الفقر، بانقطاع مادة المشركين عنكم، وتوقف الحركة التجارية التي كانوا يقومون بها، فإن الله سيعوضكم عنها، وسيغنيكم عن تجارة المشركين بتجارركم أنتم استغناء تاماً، وكذلك كان الأمر.

وبعدما بين كتاب الله حكمه في شأن مصير المشركين بجزيرة العرب، وكونهم لا يُقبل منهم إلا الإسلام، حرصاً على أن يظل مهد الإسلام خالصاً له وحده لا تشاركه فيه أية ملّة كيفما كانت، انتقلت الآيات الكريمة إلى بيان حكم الله في أهل الملل الأخرى، ولا سيما «أهل الكتاب» من اليهود والنصارى، وهذا الحكم الإلهي يقتضي أولاً وجوب قتال المسلمين لأهل الكتاب، وإذا كان الإسلام قد أمر بقتال المشركين من عبدة الأوثان، مع العلم بأنهم لم تكن عندهم أدنى سابقة من التوحيد والنبوة والشريعة إلى أن أظلمهم الإسلام، فإن أمر الإسلام بقتال أهل الكتاب يكون من باب أولى وأحرى، إذ أن الحججة قائمة عليهم منذ قرون، وذلك بالكتب الإلهية التي يقرؤون أنها نزلت على أنبيائهم، فهم على شيء من العلم بالتوحيد والنبوة والشريعة، وفيما تناقلوه بينهم ذكراً صريحاً لرسول الله، وإشارة واضحة إلى ملته وأمته، ورغماً عن ذلك كله

كفروا بالله وباليوم الآخر، ولم يجرّموا ما حرّم الله ورسوله، ولم يدينوا بدين الحق الذي هو دين الإسلام، وهذا هو السر فيما يطلقه عليهم كتاب الله غالباً من لفظ (أهل الكتاب) تأكيداً لإقامة الحجّة عليهم، إذ هذا اللفظ يعني في جملة ما يعنيه أهل الكتاب الجاحدين لكتابهم، المحرفين لكلمه عن مواضعه، الذين يشترون به ثمناً قليلاً.

ويقتضي حكم الله في شأنهم ثانياً قبول الجزية منهم ان استسلموا لسلطان الإسلام، ورضوا بالدخول تحت ذمته، والعيش تحت طاعة دولته، وذلك معنى قوله تعالى هنا: ﴿فَتَلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ و«الجزية» التي يدفعها «أهل الذمة» للدولة الإسلامية التي يوجدون تحت حكمها تقابل «الزكاة» التي يدفعها المسلمون لدولتهم وبيت مالهم، وبذلك يساهم المسلمون والذميون معاً في تكاليف الدولة الإسلامية والتزاماتها. غير أن يد المسلم المعطي في الزكاة يد عليا، لأن المسلم جزء لا يتجزأ من الدولة الإسلامية، فهو منها وإليها، ويد الذمي المعطي في الجزية يد سفلى، لأن وجوده بين أظهر المسلمين إنما هو مدين به لتسامح الدولة الإسلامية وكرمها، يضاف إلى ذلك ما في دفع الذمي للجزية من إشعار بطاعته لسلطان الإسلام، والتزام بعدم التمرد عليه، واعتراف بسماحة الإسلام وتسامحه، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى في نفس السياق: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

وختم هذا الربع ببشارة كبرى بشر الله بها رسوله والمؤمنين،

وهي أن يُظهِر الإسلام وينصره على بقية الأديان، عن طريق الحجة والبرهان، وعن طريق النفوذ والسلطان. وذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾. وقد حقق الله هذه البشرية أولاً في جزيرة العرب، إذ محا منها إلى الأبد كافة الملل والنحل التي كانت منتشرة فيها قبل عهد الرسالة، ثم حقق الله هذه البشرية خارج الجزيرة العربية، فطهر بلداناً عديدة وأقطاراً شاسعة في جميع أطراف العالم من أوساخ المعتقدات الباطلة، ومن مظالم السلطات الزائفة، وأشع عليها نور الإسلام، بعدما كانت غارقة في الظلام.

وما هذا العالم الإسلامي المترامي الأطراف الذي يقع في صُرة العالم اليوم وعند ملتقى القارات والمحيطات، والذي هو مركز الثقل في العالم كله إلى الآن وحتى الآن، والذي يُعدّ أبناؤه بمئات ومئات الملايين، بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً، إلا جزء من هذه البشرية، وستلوه بحول الله وقوته بشائر أخرى.

جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زوى لي الأرض - أي جمع لي وقبض - مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها».

وروى الإمام أحمد من حديث المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يبقى على وجه الأرض بيت مدر ولا وبر إلا دخلته كلمة الإسلام، يُعز عزيزاً ويُذل ذليلاً، إما يعزهم الله فيجعلهم من أهلها، وإما يذلهم فيدينون لها: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾».

الربع الأول من الحزب العشرين
في المصحف الكريم

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ
لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبُطْلِ وَيَصُدُّونَ عَن
سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ
وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٦﴾
يَوْمَ يُجْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ
وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ
فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ
إِثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا
تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا
يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَعَالِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٨﴾

إِنَّمَا النَّسِيُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا
 يُحِلُّونَهُ وَعَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ وَعَامًا لِيُؤَاطِعُوا عِدَّةَ مَا
 حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنٌ لَهُمْ سُوءٌ
 أَعْمَلِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَا أَيُّهَا
 الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي
 سَبِيلِ اللَّهِ إِثْقَالْتُمْ وَ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ
 إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا
 وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ
 عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ
 اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي أَثْنَيْنِ إِذْ
 هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ
 مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ وَعَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ
 بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا
 السُّفْلَى وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾
 أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ

فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ؕ وَإِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾
 لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّا تَبْعُوكَ وَلَٰكِن
 بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا
 لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ
 لَكَاذِبُونَ ﴿٥٧﴾ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعَن
 لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٥٨﴾ لَا يَسْتَنْذِرُكَ
 الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ
 وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّمَا يَسْتَنْذِرُكَ
 الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ
 فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٦٠﴾

الربع الأول من الحزب العشرين في المصحف الكريم

عباد الله

حديث هذا اليوم يتناول الربع الأول من الحزب العشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبُطْلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ. وَالَّذِينَ يَكْتِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾.

في بداية هذا الربع يتحدث كتاب الله من جديد عن الأحبار والرهبان، فيكشف النقاب عن استغلالهم للناس وتضليلهم إياهم، وقد سبق في الربع الماضي استنكار قوي واستهجان بالغ للاعتقاد الفاسد الذي يعتقده فيهم أتباعهم المغرورون، وذلك في قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ ففي هذه الآية الكريمة نعى الله على اليهود ما ينسبونه إلى أحبارهم، وعلى النصارى ما ينسبونه إلى رهبانهم من نفع وضرر، وما يعلقونه عليهم من رجاء باطل في الشفاعة والمغفرة وحسن الثواب، وما يطيعونهم فيه من

أحكام، تتصل بجوهر الحلال والحرام، مع أن أحكامهم تلك لا سند لها من الدين، وإنما هي من بنات أفكارهم ومحدثات أهوائهم، فهذا معنى اتخاذهم لأخبارهم ورهبانهم «أرباباً من دون الله».

روى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير والطبري من عدة طرق عن عدي بن حاتم الطائي الذي كان أبوه مشهوراً بالكرم بين العرب، حتى أصبح (الكرم الحاتمي) بينهم مضرب المثل، أنه دخل على رسول الله ﷺ قبل أن يسلم وفي عنقه صليب من فضة، إذ كان على النصرانية قبل دخوله في الإسلام، فوجد رسول الله ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فقال عدي مدافعاً عن النصارى: «أنهم لم يعبدوهم» فقال رسول الله ﷺ: «بلى: إنهم حرّموا عليهم الحلال وأحلّوا لهم الحرام فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم». ثم أقبل عليه رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام، وكان من جملة ما قال له: «يا عدي ما تقول؟ أضررك أن يقال: الله أكبر؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله؟ ما يضررك؟ أضررك أن يقال لا إله إلا الله؟ فهل تعلم إلهاً غيره؟» ولم يلبث عدي بعد سماعه رسول الله ﷺ ومجالسته إياه أن أسلم وشهد شهادة الحق. ثم قال رسول الله ﷺ: «إن اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون».

وأما عقيدة التثليث التي يعتقدونها النصارى في المسيح ابن مريم عليه السلام فالشرك فيها بالله واضح كل الوضوح، متجاوز كل الحدود، وسبق في شأنها قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ النَّصْرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ، ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ الآية، وكذلك ما نسبته اليهود قبلهم

من بنوة عزيز لله الذي لم يلد ولم يولد: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾.

وتولى كتاب الله في هذا الربع وصف الأبحار والرهبان، بما ليس فوق بيانه بيان، فقال تعالى معرفاً للمومنين بحقيقتهم: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فالأبحار والرهبان أغلبهم عبارة عن مستغلين للشعوب يستنزفون أموال الناس بشتى الوسائل، وقد كان لأبحار اليهود على عهد الجاهلية شفوف واعتبار ومكانة خاصة بين المشركين العرب، وكان لهم عندهم هدايا وضرائب تجبى إليهم، فلما بعث الله رسوله استمروا على ضلالهم واستغلاهم، وبذلوا كل ما في وسعهم من الدسائس والمؤامرات للقضاء على الإسلام في مهده، ولاغتيال رسوله قبل حلول أجله، طمعاً في أن تبقى لهم مراكزهم العالية، ورياساتهم الزائفة، التي تمتعوا بها زمناً طويلاً، لكن الله سلبهم كل ذلك، وعوضهم عنه مزيداً من الغضب والتشريد، وأما رهبان النصارى فرغماً عن أن الإسلام كشف عنهم النقاب، وألقى عليهم الأضواء، لم يزالوا يستغلون ضعفاء العقول من أتباعهم إلى الآن وحتى الآن، في مختلف البلدان، ولا سيما في فترة «الاعتراف بالذنوب» أمامهم، عندما يجيئون للمذنبين وأتباعهم أنهم سيمنحونهم «صك التوبة والغفران»، ويتقاضون منهم مقابل ذلك أغلى الأثمان. وما الثروة الهائلة المقدسة التي كانت تملكها الكنيسة في العصور الغابرة، والتي لا تزال تملكها حتى اليوم، ممثلة في العقارات والمنقولات والمعادن

النفيسة والأحجار الكريمة إلا شاهد ناطق بصدق هذه الآية منطوقاً ومفهوماً.

وإلى جانب ما عرف به أغلب الأخبار والرهبان من استغلال بالغ للضعف البشري، واستثمار فاحش للأزمات الروحية والعقد النفسية عند الناس أخذوا على عاتقهم منذ ظهور الإسلام القيام بضد الناس عن سبيل الله، واستعمال جميع الوسائل، للحيلولة بينهم وبين اتباع الحق، وذلك عن طريق إثارة الشبهات الباطلة، وإثارة الغرائز السافلة، وتشويه الحقائق الواضحة، واختلاق الأكاذيب الفاضحة.

وعلى سبيل المثال نذكر ما تناول عليه الرهبان بإعانة اليهود من ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية ترجمة مختزلة محرّفة مشوهة، مذيلة في نفس الوقت بالرد على عقائده بعدما حرّفوها، وبالطعن في شرائعه بعدما شوّهوها، إذ عرضوا ذلك كله في ترجمتهم وتعاليقهم عرضاً ممسوخاً فاسداً، وهذه الترجمة اللاتينية التي أشرنا إليها هي أول ترجمة مشوّهة للقرآن وضعت بين أيدي قراء اللاتينية من الأوربيين، وذلك على أيدي ترجمة طليطلة من الرهبان واليهود، وكان المشرف على هذه الترجمة المزورة هو الراهب الشهير بطرس المبجل Pierre le vénérable من رهبان القرن الثاني عشر الميلادي، وقد صرح هذا الراهب نفسه بأن الغرض الأساسي من تلك الترجمة المشوهة هو الدعاية ضد الإسلام، وأهدى هذه الترجمة إلى سان بيرنار Saint Bernard، وبعدها بأربع سنوات فقط أعلنت أوربا المسيحية الحرب الصليبية الثانية ضد المسلمين. ويقرر المستشرق

Régis Blachère في كتابه باللغة الفرنسية (مدخل إلى القرآن) «أن العارف باللغتين العربية واللاتينية عندما يقارن بين النص العربي للقرآن وهذه الترجمة اللاتينية لا يملك نفسه من الدهشة، إذ يجدها قليلة التشابه مع النص الأصلي، ولا يتردد عن القول بأنها ليست بترجمة مطلقاً» ثم يعترف هذا المستشرق بعد ذلك صراحة «بأن العالم المسيحي قد استمر ضحية هذه الترجمة المشوهة الوحيدة خلال خمسة قرون كاملة، وإن العالم المسيحي ظل يعتمد عليها ويستعملها مباشرة أو بواسطة طوال هذه القرون الخمسة، في حملاته العنيفة والسخيفة ضد الإسلام»، وذلك على حد تعبير المستشرق المذكور، وقد استمر طبع هذه الترجمة اللاتينية المشوهة ونشرها حتى فيما يسمى بعهد «النهضة والاحياء» مما يدل على أن أقطاب النهضة الأوربية كانوا أيضاً مرتاحين ومطمئنين إلى هذه الترجمة اللاتينية المشوهة للقرآن الكريم، وهذه الترجمة بالذات هي التي قام بطبعها في سويسرا سنة ١٥٤٣ أستاذ علم اللاهوت بوشمان Buchman وعن هذه الترجمة اللاتينية أخذت الترجمة الإيطالية التي نشرت سنة ١٥٤٧، وعن الترجمة الإيطالية المأخوذة عن اللاتينية أخذت الترجمة الألمانية التي نشرت سنة ١٦١٦، وعن الترجمة الألمانية أخذت الترجمة الهولندية التي صدرت سنة ١٦٤١، وهكذا استمرت عملية التشويه والتزوير للقرآن الكريم التي دشنها الرهبان المسيحيون بإعانة إخوانهم التراجمة اليهود قرونًا طويلاً تعمل عملها وتوتي أكلها في نفوس المسيحيين في العالم أجمع، فهذا مثال واحد مما قام به الرهبان وأعاونهم من صد الناس عن سبيل الله، والحيلولة بينهم وبين معرفة

جوهر الإسلام الصافي وحقيقته الساطعة، وهكذا أثبتت الأيام والوقائع باستمرار تحالف اليهودية والنصرانية ضد الإسلام قديماً وحديثاً، مصداقاً لقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصْرَىٰ أَوْلِيَاءَ، بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنَّهُمْ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. كما أثبتت نفس الوقائع والأحداث صدق كتاب الله في كل ما وصف به طائفة الأحرار والرهبان إذ قال: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾. قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «ومعنى صداهم عن سبيل الله صداهم لأهل دينهم عن الدخول في الإسلام، بتبديلهم وتغييرهم، وإغوائهم وتضليلهم».

وكلمة «أحبار» جمع حبر، ويقال بكسر الحاء وفتحها، ومعناه في الأصل الذي يحسن القول وينظمه ويتقنه، ومنه ثوب مُحَبَّرٌ أي جامع للزينة، وغلط بعضهم عندما قال إن الحبر سمي حبراً من حمل الجبر والكتابة به، والجبر هو المداد. و«الأحبار» من اليهود. وكلمة «رهبان» جمع راهب، أخذ من الرهبة، وأطلق في الأصل على من حمله خوف الله على أن يجعل عمله معه، وأنسه به. و«الرهبان» من النصارى. قال سفيان بن عيينة: «من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبّادنا كان فيه شبه من النصارى».

وانتقل كتاب الله إلى الحديث عن الممولين الأشحاء الذين لا يؤدون حقوق الله ولا حقوق الخلق فيما رزقهم من الأموال، فقال

تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ، يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتِزُونَ﴾. روى البخاري وغيره عن ابن عمر رضي الله عنه أن أعرابياً قال له: «أخبرني عن قول الله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ فأجابه ابن عمر: «من كنزها، فلم يؤد زكاتها فويل له». إنما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة، فلما أنزلت جعلها الله طهرة للأموال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾. وروى الإمام مالك عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر أيضاً هذا القول نفسه. ومجمل ما حرره القاضي أبو بكر (ابن العربي) في تفسير هذه الآية: «أن الكنز هو مال مجموع، وأنه لا حق في المال سوى الزكاة، فأخراج الزكاة من المال يخرج المال عن وصف (الكنزية)، وكل ذهب أو فضة أديت زكاتها، أو اتُّخذت حلياً، فليسا بكنز، وعندما تؤدى الزكاة عن المال يصبح مطهراً. نعم هناك حقوق عارضة تتعلق بالمال، كفك الأسير وحق الجائع وغيرهما من مصالح المسلمين وحاجاتهم، مما لا تكفي فيه الزكاة أو تقصر دونه، فهذه الحقوق العارضة تعتبر مثل الحقوق الأصلية في المال، وكنز المال دون الوفاء بها يعد ذنباً كبيراً في الإسلام». روي أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقي من أموالكم، وإنما فرض الموارث من أموال تبقى بعدكم» فلما سمع ذلك عمر كبر، فقال له رسول الله ﷺ: «يا عمر ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء؟ المرأة الصالحة، التي إذا نظر إليها سرته، وإذا أمرها

أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته»، رواه أبو داود في سننه والحاكم في مستدركه، وقال الحاكم إنه صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ومما ينبغي التنبيه إليه هنا من الناحية اللفظية في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا﴾ أن الضمير الوارد في هذه الآية يعود على الفضة دون الذهب رغماً عن ذكرهما معاً، ولو عاد الضمير على الذهب والفضة لقليل (ولا ينفقونها) لكن اكتفت الآية بإعادة الضمير على أحدهما دون الآخر، على حد قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ هَؤُلَاءِ انْفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ فيها هنا شيئان: «اللهو والتجارة» لكن أعيد الضمير على التجارة وحدها، اكتفاءً بذكر ضميرها عن الآخر. وهذا أسلوب متعارف في لسان العرب.

ثم تولى كتاب الله الحديث عن تقسيم الزمان إلى شهور وأعوام، علاوة على تقسيمه إلى ساعات وأيام، فقال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ، فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾، وتحقيق القول في هذا المقام أن الله تعالى جعل السنة اثني عشر شهراً، كما جعل البروج في السماء اثني عشر برجاً، ورتب فيها سير الشمس والقمر. وعدد أيام السنة القمرية ربع يوم وأربعة وخمسون يوماً وثلاثمائة يوم، وعدد أيام السنة الشمسية ربع يوم وخمسة وستون يوماً وثلاثمائة يوم، وقوله تعالى هنا: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي معدودة في كتاب الله المحفوظ في الأزل، وقوله تعالى هنا: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ﴾ المراد به رجب الفرد،

وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم. ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم: ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب». وفي رواية: «ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان» وإنما أطلق عليه في هذه الرواية «رجب مضر» لأن مضر هي التي اقتصر في الجاهلية على تحريمه دون غيرها. قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «وهذا كله إنما هو بيان لتحقيق الحال، وتنبيه على رفع ما كان وقع في الشهور من الاختلال».

ومن هذا الموضوع انتقلت الآيات الكريمة الى الحديث عن غزوة تبوك وما أحاط بها من ظروف وملابسات، وما لقيه رسول الله ﷺ من عراقيل وعقبات، أثناء استعداده لها وعند خروجه لملاقاة الروم أعداء الإسلام، الذين كانوا يتربصون به الدوائر في الشام، قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ - ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ذَلِكَمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ - ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾.

الربع الثاني من الحزب العشرين
في المصحف الكريم

وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ
لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ۗ وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ ابْتِغَاءَهُمْ
فَشَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا
فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ
الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾
لَقَدْ ابْتَغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى
جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُمْ
مَنْ يَقُولُ أَيْدِنِّي وَلَا تُفِنِّئِي إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا
وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ
تَسُوْهُمْ ۗ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا
أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُلْ لَنْ
يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى

اللَّهُ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا
 إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ وَ أَنْ
 يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا
 إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا
 لَّنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ وَ إِنْ كُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾
 وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ
 كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَ لَا يَاتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ
 كُسَالَى وَ لَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾
 فَلَا تُحِبُّكَ أَمْوَالُهُمْ وَ لَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ
 بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾
 وَ يُخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَ لَكِنَّهُمْ قَوْمٌ
 يَفْرُقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يُجَادُونَ مَلِجًا أَوْ مَغْرَاتٍ أَوْ مَدْخَلًا لَّوَلُوا
 إِلَيْهِ وَ هُمْ يَجْحَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَ مِنْهُمْ مَن يَأْمُرُكَ فِي الصَّدَقَاتِ
 فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ
 يَسْتَخْطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَيْنَهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ
 وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا

إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ
وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ
وَالْغَرَامِينِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً
مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾

الربع الثاني من الحزب العشرين في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب العشرين، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً، وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاتَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَاةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ، فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

في بداية هذا الربع أخبر الحق سبحانه وتعالى نبيه بحقيقة ما انطوى عليه المنافقون الذين كانوا منبئين بين المسلمين يقومون بدور «الطابور الخامس» المتعارف عليه في هذا العصر، فبين أنهم لو كانوا راغبين في الخروج مع رسول الله للقاء الروم في الشام لتأهبوا لذلك من أول وهلة، ولما تخاذلوا وترددوا، ثم كشف الحق سبحانه وتعالى عن اللطف الخفي، الذي حصل بعدم خروجهم، ذلك أنهم لو شاركوا المسلمين في الخروج إلى غزوة تبوك لكان وجودهم بين ظهرانيهم مثاراً للبلبلة والاضطراب والخبال، ووقوداً لإشعال نار الفتنة، وإفساد ذات البين، مما يعكر الجو ويشغل البال، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً، وَلَكِنْ كَرِهَ

اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ ﴿١﴾ أي أبغض خروجهم ﴿فَتَبَّطَهُمْ﴾ أي أخرهم عن الخروج: ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ، لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا، وَلَا وُضِعُوا لِخَلِّكُم يَتَّبِعُونَكُمْ الْفِتْنَةَ﴾ أي لمشوا بينكم بالنميمة، وحركوا بينكم عوامل البغضاء المؤدية إلى الفتنة: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّعُونَ لَهُمْ﴾ أي وفيكم من يستحسن حديثهم الخداع، إذ إنكم لستم جميعاً على بيّنة من أمرهم، فهم منافقون يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، وبذلك يقع السامع لهم في الشرك، ويحدث بين المؤمنين - بسبب دسائستهم وسعايتهم - فساد كبير، وإلى هذا التفسير ذهب قتادة وغيره من المفسرين.

ويحتمل أن يكون معنى قوله تعالى: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّعُونَ لَهُمْ﴾ أنه يوجد منبثاً من بينكم عيون لهم، منهم وإليهم، يتتبعون أخباركم وينقلونها إليهم أولاً بأول، لإفساد خطة الرسول وتعطيل سير المؤمنين، وإلى هذا التفسير الثاني ذهب مجاهد وزيد بن أسلم وابن جرير الطبري. قال ابن كثير: «والمعنى الأول أظهر في المناسبة بالسياق».

ثم أخبر الحق سبحانه وتعالى عن تمام علمه وإحاطته بما ظهر وما بطن من نوايا المنافقين ودسائسهم، فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ فهو مطلع على سرائرهم، عليم ببواطنهم كعلمه بظواهرهم: ﴿لَقَدْ ابْتِغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي لقد فكروا وقدروا، ودبروا من أسباب الفتنة والاضطراب ما دبروا، وتعاونوا مع جميع القوات المعادية للإسلام بغية القضاء عليه، حتى لا يتزعزع ولا يستد ساعده، ومنذ هجرة الرسول إلى المدينة رمته قريش وحلفاؤها

عن قوس واحدة، وحاربه اليهود والمنافقون حرباً لا هوادة فيها، ولعبت حرب الأعصاب والاشاعات والدسائس ضد رسول الله في هذه المعركة دوراً كبيراً، فلما نصره الله «يوم بدر» قال زعيم المنافقين عبد الله بن أبي كلمته المشهورة: «هذا أمر قد تَوَجَّه» ويثسوا وقتئذ من التغلب على رسول الله والمومنين، فلم يسعهم إلا أن يظهروا الإسلام ويندسوا بين المسلمين، لمتابعة دسائسهم، لكن دون جدوى، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُون﴾.

وعرض كتاب الله نموذجاً من نماذج الأعذار التي كان يعتذر بها المنافقون عن الخروج مع رسول الله إلى غزوة تبوك، فمن تلك الأعذار التي بلغت الغاية في المجون والاستهتار، ما قاله الجد بن قيس جواباً لرسول الله ﷺ عندما دعاه إلى الخروج مع المسلمين وقال له: «هل لك يا جدُّ في جِلاَد بني الأصفر هذا العام» - يريد الروم البيزنطيين - فكان جواب الجد بن قيس: «يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشدَّ عجباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهن»، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال له: «قد أذنت لك». وإلى هذه القصة يشير قوله تعالى هنا في إيجاز وإعجاز: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَيُّذْن لِي وَلَا تَفْتِنِي﴾ ثم عقب عليها كتاب الله بما يبين بطلان هذا العذر من أصله، وسوء نية صاحبه فقال: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ وكان هذا الجزء من جنس العمل: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾.

ويمضي كتاب الله في كشف النقاب عن نفسية المنافقين ووصف انطباعاتهم عن الأحداث الكبرى التي يواجهها الرسول والمؤمنون، فقال تعالى: ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ، وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ، وَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾.

ثم لقن كتاب الله نبيه والمؤمنين ما يواجهون به جميع الأحداث والنوازل كيفما كانت، في السراء والضراء، والشدة والرخاء، من الثبات واليقين والإيمان الراسخ، فقال تعالى مخاطباً لنبيه: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا، هُوَ مَوْلَانَا، وَعَلَى اللَّهِ فَلْتَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

وتعرض كتاب الله بعد ذلك لموقف الرسول والمؤمنين من دسائس المنافقين ونواياهم السيئة نحو المسلمين، وبين أن الله تعالى لا يقبل من تصرفاتهم الباطلة صرفاً ولا عدلاً، فقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ أي ماذا تنتظرون بنا غير الموت في سبيل الله أو النصر عليكم، وكل واحدة منهما في حد ذاتها «حسنى» عندنا وعند الله، لا «سوأى» كما تتمنون: ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا، فَتَرَبَّصُوا، إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبَّصُونَ، قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ، إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

وبين كتاب الله السر في إحباط نفقات المنافقين وعدم قبولها عند الله، فقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهِونَ﴾. وواضح أن من سلك مثل مسلك المنافقين من

أي جيل أو قبيل، يدخل معهم تحت هذا الحكم القاطع، ويعاقب بنفس هذا العقاب الرادع.

ويوضح كتاب الله خصلة من خصال المنافقين الملازمة لهم في القديم والحديث، ألا وهي خصلة الإكثار من الحلف باسم الله، ومن استعمال الأيمان المغلظة، بمناسبة وبغير مناسبة، شعوراً منهم بفقدان الثقة فيهم، وعدم الاطمئنان إليهم، فيحاولون انتزاع الثقة من المخاطبين، باستعمال الحلف وتوكيد اليمين، وذلك ما ينص عليه قوله تعالى هنا: ﴿وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِيْمَانَهُمْ لِمَنْكُمُ﴾ ثم يرد عليهم كتاب الله مكذباً حلفهم ويمينهم الغموس، فيقول: ﴿وَمَا هُمْ مِّنْكُمْ﴾، وسترد آية أخرى في الربع القادم بنفس هذا المعنى: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ، وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

ويمضي كتاب الله في فضيحة المنافقين وهتك أستارهم من أي جيل أو قبيل، فيؤكد ما انطوا عليه في ذات أنفسهم من الخوف والجزع، والرعب والفرع، على العكس من المؤمنين الذين هم أشداء على الأعداء، يوم اللقاء، وأقوياء دائماً على التضحية والفداء، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ أي قوم جبناء يصيبهم الفرق وهو الخوف: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً﴾ أي حصناً يتحصنون به ﴿أَوْ مَغْرَاتٍ﴾ أي كهوفاً في قمم الجبال ﴿أَوْ مُدْخَلًا﴾ أي نفقاً تحت الأرض: ﴿لَوْلُوا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي لفروا إليه وهم يسرعون.

ويذكر كتاب الله إحدى خصائص المنافقين البارزة التي تميزهم

عن غيرهم ولا ينفكون عنها بحال، ألا وهي خصيصة الطمع والاستغلال، والروح الانتفاعية المهيمنة عليهم في جميع الظروف والأحوال، فهم راضون مستبشرون، يعلنون رضاهم كلما استغلوا وانتفعوا وكانت مصلحتهم الخاصة مضمونة ومصونة، وهم ساخطون متبرّمون، يعلنون سخطهم كلما توقفت عجلة الاستغلال والانتفاع، وتعطلت أبسط مصلحة من مصالحهم الخاصة، وذلك قوله تعالى في شأن المنافقين، الأولين منهم والآخرين: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يُّلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ أي من يطعن عليك ويعيبك في قسّمها ويتهمك في توزيعها، و«اللمز» في الأصل يقصد به عيب الشخص لغيره في غيبته لا بحضوره، والمراد «بالصدقات» هنا الأموال العامة التي يقوم بجبايتها بيت مال المسلمين برسم الزكاة المفروضة: ﴿فَإِنْ أَعْطُوا مِنْهَا رِضْوَانًا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾.

وبعدما فصح كتاب الله طبيعة المنافقين وما هم عليه من التقلب في المواقف بين السخط والرضى، وسقوط الهمة، والطمع البالغ، والاستغلال الفاحش، بين كتاب الله الموقف السليم الذي يقفه - عادة - المومنون الصادقون، والذي أخطأ طريقه وضلّ عنه المنافقون، وهذا الموقف هو موقف الرضى بحكم الله، والثقة بوعده، والرجاء فيه، وإخلاص العمل لوجهه الكريم، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُوتِنَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ، إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ فقد تضمنت هذه الآية الكريمة «أدباً كريماً، وسراً عظيماً» كما أشار إليه ابن كثير.

وأخيراً تناول كتاب الله موضوع الزكاة بالتأصيل والتفصيل،

وهي الصدقة التي فرضها الله على أغنياء المسلمين في أموالهم لترد على فقرائهم، حماية للمجتمع الإسلامي من عوامل الفرقة والانقسام، وتوجيهاً له نحو العدالة الاجتماعية والاقتصادية التي هي جزء لا يتجزأ من أصل «العدالة العامة» في الإسلام، فبين كتاب الله وجوب دفعها، وحدد وجوه صرفها، ولف كتاب الله بذلك أنظار الجميع، إلى أن أمر الصدقات موكول إلى الله لا إلى غيره، فهو الذي أعلن حكمها، وهو الذي تولى قسمها، ولذلك فلا محل لأي لمز أو تقريع، فيما حدده لها من القسم والتوزيع، وذلك قوله تعالى هنا: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

قال القاضي أبو بكر (ابن العربي) ما خلاصته: «هذه الآية من أمهات الآيات فقد خصَّ الله بعض الناس بالأموال دون البعض، نعمة منه عليهم، وجعل شكر ذلك منهم إخراج سَهْمٍ من مالهم، يرُدُّونه إلى من لا مال له، نيابة عنه سبحانه فيما ضمنه بفضله للمحتاجين من رزق في قوله ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾، وقدَّر الصدقات على حسب أجناس الأموال، فجعل في النقدين ربع العشر، وجعل في النبات العشر، ومع تكاثر المثونة نصف العشر، و«الصدقة» متى أطلقت في القرآن فهي صدقة الفرض، ولفظ الصدقة مأخوذ من «الصدق»، بمعنى مساواة الفعل للقول والاعتقاد، وبناء (ص دق) يرجع إلى تحقيق شيء بشيء وعَضْدِهِ به، ومنه «صداق المرأة» أي تحقيق الحل وتصديقه بإيجاب المال والنكاح، على

وجه مشروع، ومشابهة الصدق ها هنا للصدقة أن من أيقن من دينه أن البعث حق، وإن الدار الآخرة هي المصير، - وأن هذه الدار الدانية قنطرة إلى الأخرى، وباب إلى السُّوَأى أو الحُسْنَى - (مؤنث الأسوأ والأحسن) عمل لها، وقدم ما يجده فيها، فإن شك فيها أو تكاسل عنها وآثر عليها بخل بماله، وغفل عن مآله».

والآن فلنتحدث عن الألفاظ الواردة في هذا السياق لفظاً لفظاً حتى يتضح المعنى المراد، إذ كل لفظ منها يعبر عن صنف من أصناف المستحقين للزكاة:

لفظ (الفقراء) جمع فقير، وهو المحتاج المتعفف.

ولفظ (المساكين) جمع مسكين، وهو المحتاج السائل، وهذا التفسير للثنتين منقول عن الإمام مالك في كتاب ابن سحنون. وجاء في حديث رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن المسكين ما هو فقال: «الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يُفْطَن له فيتصدق عليه، ولا يسأل الناس شيئاً».

ولفظ (العاملين عليها) يراد به الجباة والسعاة الذين يذهبون لتحصيل الزكاة ويؤكّلون على جمعها.

قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «وهذا يدل على مسألة بديعة، وهي أن ما كان من فروض الكفايات فالقائم به يجوز له أخذ الأجرة عليه، ومن ذلك الإمامة، فإن الصلاة وإن كانت متوجهة على جميع الخلق، إلا أن تقدم بعضهم بهم من فروض الكفائية، فلا جرم يجوز أخذ الأجرة عليها».

ولفظ ﴿المَوْلَفَةَ قُلُوبُهُمْ﴾ يشمل المسلم الذي يعطى ليحسن إسلامه ويزداد يقينه، والكافر الذي له ميل إلى الإسلام، فيعطى لتقوية ذلك الميل فيه حتى يسلم، تأثراً بعبء المسلمين وإحسانهم، وفي حكمهما من يُعطى لما يُرجى من إسلام نظرائه، ومن يُعطى ليدفع عن حوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد. وروي عن مالك أنه قال: «ان النبي ﷺ أعطى المؤلفَةَ قلوبهم فحسن إسلامهم».

ولفظ (الرِّقَابِ) المراد به شراء الرقاب وعتقها من الرق، وذلك هو ظاهر القرآن الكريم، فان الله حيثما ذكر الرقبة في كتابه إنما أراد منها العتق. روى الإمام أحمد وأهل السنن إلا أبا داود عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة حقُّ على الله عونهم: الغَازِي في سبيل الله، والمكاتب (أي الرقيق) الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف».

ولفظ (الغَرَمِينَ) المراد به من رَكِبَهُم الدِّين ولا قدرة لهم على الوفاء به، اللهم إلا من تداين في سفاهة، فانه لا يعطى من الزكاة ولا من غيرها، إلا أن يتوب، فإن مات من ركبه الدين في غير سفاهة قُضِيَ دَيْنُهُ من الزكاة، لأنه من الغارمين.

ولفظ (في سبيل الله) قال الإمام مالك: «سبيل الله كثيرة، ولكني لا أعلم خلافاً في أن المراد بسبيل الله ها هنا الغزو «الجهاد»، وقال محمد بن عبد الحكم: «يعطى من الصدقة - أي الزكاة - في الكُرَاع والسلاح، وما يُحتاج إليه من آلات الحرب وكفّ العدو عن الحَوْزَة، لأنه كله من سبيل الغزو ومنفعته».

ولفظ (ابن السَّيْلِ) المراد به من غاب عن بلده ومستقر ماله، وانقطعت به الأسباب فلم يجد ما ينفقه في سفره، ولو كان غنياً في بلده. قال مالك في كتاب ابن سحنون: «وليس يلزمه أن يدخل تحت منة أحد، وقد وجد منة الله ونعمته» قال ابن كثير: «وهذا الحكم يمثله حكم من أراد إنشاء سفر من بلده وليس معه شيء، فيعطى من مال الزكاة كفايته في ذهابه وإيابه» إن لم يكن سفر معصية.

وقوله تعالى: ﴿فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي حكماً مقدرًا بتقدير الله وفرضه وقسمه. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليم بظواهر الناس وبواطنهم، حكيم فيما يحكم به عليهم، حكيم فيما يشرعه لهم: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

الربع الثالث من الحزب العشرين
في المصحف الكريم

وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ
النَّبِيَّاءَ وَيَقُولُونَ هُوَ أذُنٌ قُلٌّ أذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ
يَوْمِنُ بِاللَّهِ وَيَوْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا
مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾
يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمُ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ
أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ
يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا
فِيهَا ذَلِكَ الْخَبْرُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ
أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ
إِسْتَهْزِءُوا إِنَّا اللَّهُ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ
لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبَا اللَّهِ وَعَآيَاتِهِ
وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ

كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۗ وَإِنْ تُعْصَبَ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ تُعَذَّبْ
طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ
بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ
الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ
إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ
وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا
هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾
كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا
وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِمَخْلَقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِمَخْلَقِكُمْ
كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِمَخْلَقِهِمْ وَخُضْتُمْ
كَالَّذِينَ خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾ الْمَرْيَاتِمْ
نَبَأَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ
إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمُ رُسُلُهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ

بَعْضِ يَامُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ
 الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
 وَأُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧٦﴾ وَعَدَّ
 اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
 خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ
 وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٧﴾
 يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ
 وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴿٧٨﴾ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا
 وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ
 وَهُمْ أُوَّابِمَا لَمْ يَتَّوَلَوْا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ
 وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ
 يَتَوَلَّوْا يَعَذِّبْهُمْ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
 وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٩﴾

الربع الثالث من الحزب العشرين في المصحف الكريم

عباد الله

حديث هذا اليوم يتناول الربع الثالث من الحزب العشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ، قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ، وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَّلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

لا يزال كتاب الله يكشف الستار عن فضائح المنافقين فضيحة بعد أخرى، حتى سميت هذه السورة، من كثرة ما فضحت المنافقين، وأظهرت من سواتهم ومساوئهم، سورة (الفاضحة)، وظن الصحابة أنها لا تبقى أحداً.

وفي بداية هذا الربع أشارت الآيات الكريمة إلى تضايق المنافقين كل التضايق، من إطلاع رسول الله صلى الله وسلم عليهم، ومن معرفته الواسعة بمساعيهم الخفية التي يقومون بها من وراء الستار، ومن علمه التام بما يتناجون به من الإثم والعدوان في خلواتهم الخاصة.

ومما يدل على تضايقهم البالغ ما أخذوا يتحدثون به فيما بينهم، من أن الرسول عليه الصلاة والسلام يصغي إلى الأخبار التي تنقل له عنهم، ومن أنه يتأثر بتلك الأخبار وينفعل لها، بينما هي في زعمهم لا أساس لها من الصحة، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ - أي أن من قال له شيئاً عنهم صدقه - ﴿قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ - أي أنه عليه الصلاة والسلام يميز الخير من الشر، والصواب من الخطأ، والصدق من الكذب، ولا يلتبس عليه من أمرها شيء، خلافاً لما يزعمه المنافقون - ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ - أي يصدق المومنين ويزكي أخبارهم - ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ، وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

ثم نبه كتاب الله إلى المخاوف التي أخذت تساور المنافقين من جراء إلقاء الأضواء الكاشفة عليهم يوماً بعد يوم، وأنهم يتهيّبون أن تنزل على الرسول في شأنهم سورة خاصة بهم، وإذ ذاك يُرْفَعُ عن وجوههم آخر بُرْقَعٍ من البراقع الشفافة، ويتعرضون لنقمة المومنين وغضبهم قبل حلول يوم الحساب، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾، وأنذرهم كتاب الله عقب ذلك بما يؤكد مخاوفهم قائلاً: ﴿قُلْ اسْتَهِزُّوْا، إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ .

ووصف كتاب الله أنواع الاعتذار التي يعتذر بها المنافقون متى عجزوا عن إنكار أقوالهم أمام الرسول، حيث يقعون في منتهى الحيرة والارتباك. فقال تعالى مخاطباً لنبيه في شأنهم: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ

لَيَقُولَنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴿١﴾ ومن ذلك ما قاله فوج من المنافقين بمناسبة خروج رسول الله إلى غزوة تبوك: «يَظُنُّ هَذَا أَنَّهُ يَفْتَحُ قِصُورَ الشَّامِ وَحِصُونَهَا؟» وما قاله فوج آخر منهم بنفس المناسبة تحديراً لجمهرة المؤمنين: «أَتَحْسِبُونَ جِلَادَ بَنِي الْأَصْفَرِ كَقِتَالِ الْعَرَبِ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، وَاللَّهِ لَكُنَّا بِكُمْ غَدًا مُقَرَّنِينَ فِي الْجِبَالِ؟» أي مشدودين بها، وقد أثبتت الأيام التالية بعد ذلك أن قصور الشام وحصونها سقطت كلها في قبضة الدولة الإسلامية الفتية، وان «بني الأصفر» هم الذين سقطوا أسرى وقتلى في أيدي المسلمين، وبذلك كانت كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

ثم واجههم الحق سبحانه وتعالى بخطابه في صيغة إنذار نهائي، فقال تعالى لهم: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا، قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ فلا معنى إذن للاعتذار ولا فائدة منه.

وإذا كان المنافقون على درجات متفاوتة في النفاق، فيهم المتبوع والتابع، والرئيس والمرؤوس، وجرائمهم ليست في مستوى واحد، ولا مدفوعة بدافع واحد، فقد ينال عفو الله أقلهم أذى إذا تاب وأناب، ولكن البعض الآخر لا بد له من شديد العقاب وعسير الحساب، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿إِنْ يُعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ تُعَذِّبْ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

واهتمت الآيات الكريمة في هذا السياق بعقد مقارنة دقيقة وفاصلة بين المنافقين والمؤمنين، وذلك حتى لا يبقى أي لبس في شأن معرفتهم، وحتى يسهل تمييز بعضهم عن بعض بالنسبة لجميع الناس، وبالنسبة لجميع العصور:

فأما المنافقون فهذه أوصافهم الخاصة، ومميزاتهم التي يمتازون بها يعرضها علينا كتاب الله إذ يقول: ﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ - أي أنهم متشابهون متداخلون متشابكون فيما بينهم، لا يحسون بالانسجام والطمأنينة وهدوء البال إلا إذا كانوا يتنفسون في جو النفاق الخاص بهم - ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ فهم أعوان على الهدم لا على البناء، وهم رؤاد الفساد وطلائعه في البلاد، وهم جند الانحراف المجند الذي يُشيع الفاحشة بين العباد.

ثم قال تعالى في وصف المنافقين: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي من علامات المنافقين أنهم كلما دُعوا إلى البذل في سبيل الله والانفاق في وجوه الخير شحوا وبخلوا، وكلما دعوا إلى مد يد المساعدة لمشروع من مشاريع النفع العام كان موقفهم منه سلبياً، ولم يمدوا أيديهم إليه - إن مدوها - إلا بعد اللتي واللُّتيا.

وعقب كتاب الله على أوصاف المنافقين البارزة فقال تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ، إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ومن حَكَم عليه الحق سبحانه وتعالى بالخزي ووضعه موضع الإهمال، لم يبق مفتوحاً في وجهه أي باب للأمل ولا مجال: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا، هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ أي فيها كفايتهم: ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ، وَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

وأما المومنون فهذه أوصافهم الخاصة ومميزاتهم التي يمتازون بها يعرضها علينا كتاب الله إذ يقول: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ

أَوْلِيَاءَ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ، وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ، وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿ فَمَنْ وَجَدَ نَفْسَهُ مَتَصِفًا بِهَذِهِ الْأَوْصَافِ فَلِيَحْمَدِ اللَّهَ ، وَلِيَنْتَظِرَ رِضْوَانَ اللَّهِ ، وَمَنْ وَجَدَ نَفْسَهُ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ ، وَلِيَحَاسِبَهَا الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ يَحَاسِبَ غَدًا ، وَإِلَّا فَلِيَنْتَظِرَ غَضَبَ اللَّهِ !

فالمؤمنون والمؤمنات يجب أن يكونوا أخوة في الله، متحالفين على الخير، متعاونين على البر، كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، إذا اجتمعوا تواصلوا بالحق والصبر، وإذا افترقوا قام كل واحد منهم بشدِّ الأزر وجبر الكسر، وذلك معنى قوله تعالى هنا: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ .

والمؤمنون والمؤمنات يجب - إذا أمروا - أن يأمروا بالمعروف، وتندرج تحت كلمة (المعروف) كل الطيبات والصالحات وجميع أنواع الخير والبر، ويجب - إذا نهوا - أن ينهوا عن المنكر، وتندرج تحت كلمة (المنكر) كل الخبائث والسيئات، وجميع أنواع الشر والظلم، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ .

والمؤمنون والمؤمنات لا يصح إيمانهم أولاً، ولا ينمو ويرسخ ثانياً، إلا إذا مارسوا عقيدة الإيمان في صميم حياتهم اليومية، فأدوا ما عليهم من حقوق الله، بشكره وعبادته، وربط الصلة به على الدوام، عن طريق الصلاة المفروضة، وإلا إذا أدوا ما عليهم من

حقوق إخوانهم وهم «عيال الله»، بتمكينهم من وسائل العيش الضروري، وأسباب الكسب الشريف، عن طريق الزكاة المفروضة، و«أحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله» كما قال عليه الصلاة والسلام، ففي الصلاة يتجلى إيمان المومن تجاه خالقه، وفي الزكاة يتجلى إيمان المومن تجاه أخيه، كما يتجلى فيها شكره لرازقه، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾.

والمؤمنون والمومنات لا يكونون من أهل الإيمان الصادق إلا إذا أسلموا وجوههم لله، وطبقوا في حياتهم اليومية المنهج السماوي الذي رسمه لهم الله، فالله تعالى أعلم منهم بما يصلحهم، والله تعالى أعلم منهم بما يلائمهم، والله تعالى أحكم منهم بما اختاره لهم عن علم شامل ومحيط، من نهج للعمل والسلوك، وطريق للنجاح المحقق في الحياة، دنيا وأخرى، وهذا هو المعنى المقصود من (طاعة الله ورسوله)، لأنها طاعة أحكم الحاكمين، ورب العالمين، كما قال تعالى هنا في وصف المؤمنين والمومنات: ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾. وواضح أن من التزم طاعة الله ورسوله تحرر من طاعة كل من خالفها، إذ «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

ومن كان متحلياً بهذه الصفات المميزة للمؤمنين والمومنات، كان حقاً على الله أن يشملته برحمته، وأن يرعاه بعين رعايته، فقد تعهد لهم سبحانه بذلك تفضلاً منه وكرماً، عندما قال مشيراً ومبشراً للمؤمنين والمومنات: ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (عزيز) يعز المؤمنين ويذل المنافقين ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ، وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، (حكيم) يختار للمؤمنين

بواسع علمه، وبالغ حكمته، أهدى طريق، ويمدّهم عند سلوكه بمدد الهداية والتوفيق.

وقوله تعالى هنا: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ معناه أن رضا الله عن المومنين والمومنات يوم لقائه وتلقي نداءه، أكبر وأجل وأعظم وأفضل، من كل نعيم أنعم به عليهم دونه. روى الإمام مالك من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة. فيقولون لبيك وسعديك، والخير في يديك. فيقول الحق سبحانه وتعالى: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب، فقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحداً من خلقك. فيقول الحق تعالى: ألا أعطيتكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا ربّ وأيّ شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أُجِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً» ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

الربع الأخير من الحزب العشرين
في المصحف الكريم

وَمِنْهُمْ مَنْ

عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ
الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَأَمَّا آبَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ
مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ
بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾
أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ
عَلِيمُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ
مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾
إِسْتَعْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ
سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا
بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾

قَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ
 يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا
 لَا نَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا
 يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً
 بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ
 فَاسْتَدْنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ
 تُقَاتِلُوا مَعِي عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ
 مَرَّةٍ فَأَقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ
 مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا
 بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تَعْجَبْكَ
 أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ
 بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾
 وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ
 رَسُولِهِ اسْتَذْنَكَ أُولُوا الطَّلُوفِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا
 نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ
 وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَكِنْ

الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ
 وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾
 أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
 فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ
 الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ
 وَرَسُولَهُ وَسَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾
 لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ
 لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى
 الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ
 إِذَا مَا اتَّوَكَّلْتَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أُحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ تَوْلَوْا
 وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾

الربع الأخير من الحزب العشرين في المصحف الكريم

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب العشرين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِن آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ، فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ، وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ، تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾.

في بداية هذا الربع واصل كتاب الله حديثه عن المنافقين وأصنافهم وأوصافهم، فوصفهم بخيانة العهود وإخلاف الوعود، لا مع مطلق الناس، ولكن حتى مع الله تعالى، ومن أمثلة ذلك تعهدهم أمام الله بأنه إن أغناهم تصدَّقوا وأحسنوا وسلَكوا مسلك الصالحين من أهل الإيمان، في عمل البر والإحسان، لكنهم بمجرد ما أدركوا المني، ونالوا الغنى، طغوا واستكبروا، وكفروا وما شكروا، مصداقاً لقوله تعالى في الربع الماضي: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ واستولى عليهم الشح والبخل كل

الاستيلاء، كأنما لم يسبق منهم أي عهد أو التزام أمام الله بالإحسان والعتاء، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنِ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ، فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ وهذه الآية الكريمة تشبه في مغزاها آية أخرى سبقت في سورة الأعراف المكية، وهي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَثْقَلتْ - أي حملت حملاً ثقيلاً - دَعَا اللَّهَ رَبُّهَا لَئِن آتَيْتَنَّا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ، فَلَمَّا آتَيْتَهَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شِرْكًَا فِيمَا آتَيْتَهَا﴾ الآية.

ولتمام الفائدة في هذا الصدد ينبغي التنبيه إلى أن (البخل) يستعمل في الكتاب والسنة للدلالة على التقصير في أداء ما هو واجب، بينما (الشح) يستعمل فيها للدلالة على الإخلال بأداء ما هو مستحب، كما حرره ابن العربي المعافري.

وبين كتاب الله ما تعرض له المنافقون من سوء العاقبة بمثل هذا التصرف اللعين، فقد زاد نفاقهم بسببه حدة وشدّة، إذ السيئة تشجع على أختها، والمعصية الصغيرة تدفع إلى ما هو أكبر منها، «فالمعاصي بريد الكفر» كما ورد في الأثر. وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَاعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ أي فأعقبهم بخلهم نفاقاً راسخاً في قلوبهم، لازماً لهم إلى يوم الدين، يوم يلقون جزاء نفاقهم، حيث يُعرضون على الله للحساب والعقاب، ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ أي أن ذلك بسبب إخلافهم للوعد، وخيانتهم للعهد ﴿وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ أي وبسبب كذبهم فيما تحدثوا به والتزموه، إذ كانوا منطوين على سوء النية من أول وهلة،

فالمنافق في الوقت الذي يتحدث فيه إلى غيره يكون واثقاً بأنه كاذب فيما يقول، وفي الوقت الذي يعدُّ فيه غيره يكون مصمماً على أن لا يفِي بالوعد ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾، وإنما آتاهم الله من فضله ووسع عليهم الرزق - وهو يعلم السر والنجوى - ليلوهم وينظر كيف يعملون أولاً، وليظهر حقيقة حالهم للناس ثانياً، حتى يكونوا على بينة من نفاقهم الراسخ، ومعرفة بمرض قلبهم الزمن، على حد قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَبَلَّوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

ومما يحسن التنبيه إليه في هذا المقام أن ما استنكرته هذه الآية الكريمة ووصفت به المنافقين من إخلاف الوعد: ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ ومن الكذب في الحديث: ﴿وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ هو نفس ما أكده الحديث النبوي الشريف المروي في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان». وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق، حتى يدعها: إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

ومن الأمثلة التي تندرج تحت هذه الآية قصة ثعلبة بن حاطب، وينسبها بعضهم إلى غيره، فقد جاء ثعلبة بن حاطب إلى رسول الله ﷺ يسأله الدعاء له بالمال قائلاً: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقني مالاً. فقال له رسول الله ﷺ: «وَيَحْكُ يَا ثَعْلَبَةُ، قَلِيلٌ تُوَدِّي شُكْرَهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لَا تَطِيقُهُ» فقال له ثعلبة: «والذي بعثك

بالحق لئن دعوت الله فرزقني مالاً لأعطين كل ذي حق حقه» فلم يَسْعَ رسول الله بعد اليمين التي حلفها ثعلبة، والتزامه بأداء الحقوق اللازمة عليه في المال، إلا أن دعا له وقال: «اللهم ارزق ثعلبة مالاً» ولم يلبث ثعلبة أن اتخذ غنماً، فنمت كما ينمي الدود، وضاعت عليه المدينة، ففتنحى عنها، فنزل وادياً من أوديتها، حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة، ويترك ما سواهما، ثم نمت غنمه وكثرت، فتنحى حتى ترك الصلوات إلا الجمعة، وهي تنمي كما ينمي الدود حتى ترك الجمعة، فطفق يتلقى الركبان يوم الجمعة، ليسألهم عن الأخبار، فقال رسول الله ﷺ: «ماذا فعل ثعلبة»: فقالوا يا رسول الله: «اتخذ غنماً فضاعت عليه المدينة» فأخبروه بأمره، فقال رسول الله: «يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة» ثلاثاً. وكما يقال: «نما ينمو» يقال «نمي ينمي» كما جاء في هذه الرواية، فهو من صيغ الأفعال التي جاءت «واوية» و«يائية».

ولما نزلت فرائض الصدقة - وهي الزكاة - بعث رسول الله ﷺ رجلين على الصدقة من المسلمين، رجلاً من جهينة، ورجلاً من بني سليم، وكتب لهما كتاباً في حدود الصدقة وما يأخذان من المسلمين، وقال لهما: «مراً بثعلبة وبفلان - رجل من بني سليم - فخذوا صدقاتهما» فخرجا حتى أتيا ثعلبة، فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله، فقال: «ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية، ما أدري ما هذا؟ انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إلي». فانطلقا، وسمع بهما زميله السلمي، فنظر إلى خيار أسنان إبله، فعزلها للصدقة، ثم استقبلهما بها، فلما رأوها قالوا: «ما يجب عليك هذا، وما نريد أن

نأخذ هذا منك» فقال: «بلى فخذوها، فإن نفسي بذلك طيبة، وإنما هي له» فأخذها منه، ومراً على الناس فأخذوا منهم الصدقات، ثم رجعا إلى ثعلبة فقال: «أروني كتابكما» فأعطياه الكتاب فقراه، فقال مرة ثانية: «ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية، فانطلقا عني حتى أرى رأيي» فانطلقا حتى أتيا النبي ﷺ، فلما رآهما قال لهما قبل أن يكلماه: «يا ويح ثعلبة» فأخبراه بالذي صنع ثعلبة والذي صنع السلمي، فدعا للسلمي بالبركة، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عٰهَدَ اللّٰهَ لَئِنۡ اٰتَيْنَا مِنْ فِضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُوْنَنَّ مِنَ الصّٰلِحِيْنَ﴾ الآية، وكان عند رسول الله رجل من أقارب ثعلبة، فخرج حتى أتاه وأخبره الخبر، ولما بلغ ثعلبة ما نزل من القرآن في شأنه وشأن أمثاله أتى النبي ﷺ يسأله أن يقبل صدقته، فقال له رسول الله: «إن الله منعني أن أقبل منك صدقتك» فقام ثعلبة وأخذ يحو التراب على رأسه، ولما أبى رسول الله ﷺ أن يقبل صدقته رجع ثعلبة إلى منزله حزينا كئيباً، ثم انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى وهو مقاطع لصدقته دون أن يقبل منها شيئاً.

ولما استخلف أبو بكر أتى إليه ثعلبة، وسأله أن يقبل صدقته، فقال له أبو بكر: «لم يقبلها منك رسول الله فكيف أقبلها؟» وأبى أن يقبلها منه، إلى أن توفي أبو بكر، وهو مقاطع لصدقة ثعلبة، اقتداءً برسول الله ﷺ.

ولما استخلف عمر جاءه ثعلبة يقول: «يا أمير المؤمنين، أقبل صدقتي» فقال له عمر: «لم يقبلها منك رسول الله ولا أبو بكر، وأنا أقبلها منك؟» وتوفي عمر وهو مقاطع لصدقته أيضاً دون أن يقبل

منها شيئاً، اقتداءً برسول الله وبخليفته الأول أبي بكر الصديق .

ولما استُخْلِيفَ عثمان جاءه يقول: «أقبل صدقتي» فقال له عثمان: «لم يقبلها منك رسول الله ولا أبو بكر ولا عمر وأنا أقبلها منك؟» فلم يقبلها منه وقاطعها أيضاً، اقتداءً برسول الله وخليفته أبي بكر وعمر، وهلك ثعلبة في خلافة عثمان وهو محروم كل الحرمان من قبول صدقته، دون بقية الناس، وكان ذلك الموقف الصارم من طرف رسول الله وخلفائه من بعده تعزيراً وتأديباً لثعلبة وأمثاله في جميع العصور، وسنة حسنة يعمل بها من يريد الاقتداء برسول الله وخلفائه، في مقاطعة أولئك الذين يعاهدون ثم لا يوفون بالعهود، ونبذ أولئك الذين يعدون ثم يخلفون الوعود.

وقد نبّه القاضي أبو بكر (ابن العربي) عند تفسير هذه الآية: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ «إلى أنه لما حيل بينهم وبين التوبة، ووقع التصريح بنفاقهم وكفرهم لم تقبل صدقاتهم»، لأن صحة الإيمان شرط لقبول الصدقة والصلاة وسائر الأعمال، ولذلك لم يقبلها رسول الله ﷺ، ولا أبو بكر، ولا عمر، ولا عثمان، اقتداءً برسول الله ﷺ، لعلمه عليه الصلاة والسلام بسريرة ثعلبة، وإطلاعه على بُنَيَاتِ صدره» - يقال «بُنَيَاتِ الطريق» للطرق الصغيرة المتشعبة من الجادة - .

وإذا كان المنافقون يتجرأون على لمر أشرف الخلق، والطعن في تصرفات خاتم النبيين والمرسلين كما سبقت الإشارة لذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ

لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿ فَإِنَّهُمْ سَيَكُونُونَ أَشَدَّ جِرَاءً وَأَكْثَرَ لِمَا لَمْ يَدُونَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَفَعَلًا فَقَدْ كَانَ الْمُنَافِقُونَ يَنْتَهِزُونَ كُلَّ فُرْصَةٍ لِيَلْمَزَ الْمُؤْمِنِينَ وَالطَّعْنَ فِيهِمْ، فَإِذَا جَاءَ الْمُؤْمِنُونَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ بِعَطَاءٍ جَزِيلٍ لِمَزْوِهِمْ وَقَالُوا: «إِنَّهُ عَطَاءٌ مُقْصُودٌ بِهِ الرِّيَاءُ وَالسَّمْعَةُ»، وَإِذَا جَاءَ الْمُؤْمِنُونَ بِعَطَاءٍ يَسِيرٍ اسْتَهْزَءُوا بِذَلِكَ الْعَطَاءِ وَقَالُوا: «إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ صَدَقَةِ هَؤُلَاءِ» بِحَيْثُ لَا يَسْلَمُ مِنْ لِمَزِهِمْ وَطَعْنِهِمْ وَاسْتَهْزَائِهِمْ أَحَدٌ، مِنْ أَكْبَرَ كَبِيرٍ إِلَى أَصْغَرَ صَغِيرٍ، وَهَذَا هُوَ شَأْنُ الْمُنَافِقِينَ فِي كُلِّ جِيلٍ. وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى يُشِيرُ قَوْلُهُ تَعَالَى هُنَا: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ﴾ أَيِ يَعْيِيُونَ الْمُتَصَدِّقِينَ تَطَوُّعًا وَتَبَرَعًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ أَيِ كَمَا يَلْمِزُونَ الَّذِينَ يَتَصَدَّقُونَ بِالْكَثِيرِ يَلْمِزُونَ الَّذِينَ يَتَصَدَّقُونَ بِالْيَسِيرِ عَلَى قَدْرِ طَاقَتِهِمْ: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ أَيِ يَسْتَهْزِئُونَ بِهِمْ. ثُمَّ عَقِبَ كِتَابُ اللَّهِ عَلَى ذَلِكَ ذَاكِرًا نَوْعَ الْعِقَابِ الَّذِي عَاقَبَ اللَّهُ بِهِ الْمُنَافِقِينَ عَلَى اسْتَهْزَائِهِمْ بِالْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿سَخَّرَ اللَّهُ مِنْهُمْ، وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وَهَذِهِ الْآيَةُ وَارِدَةٌ عَلَى طَرِيقِ الْمَقَابِلَةِ، أَيِ كَمَا أَنَّهُمْ سَخَرُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَاقَبَهُمُ اللَّهُ فَسَخَّرَ مِنْهُمْ، إِذْ «الْجُزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ».

وَحِرْصًا عَلَى إِزَالَةِ كُلِّ لَبْسٍ، وَعَلَى تَمْيِيزِ الْمُنَافِقِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ تَمْيِيزًا تَامًا، نَهَى اللَّهُ رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ عَنِ الصَّلَاةِ عَلَيْهِمْ بَعْدَ وُفَاتِهِمْ، وَنَهَاةً عَنِ الْقِيَامِ عَلَى قُبُورِهِمْ لِلدَّعَاءِ لَهُمْ، وَبِذَلِكَ بَقِيَتْ هَذِهِ الْمِيزَةُ خَاصَّةً بِأَمْوَاتِ الْمُؤْمِنِينَ وَحَدِهِمْ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّا تَأْتِيهِمْ وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ، إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ﴾.

وقد تلقى حذيفة بن اليمان عن رسول الله ﷺ أسماء المنافقين وعرف أشخاصهم، فكان بعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى هو الذي يلفت نظر المسلمين إليهم كلما مات واحد منهم، حتى لا يصلوا عليه ولا يقفوا على قبره، امتثالاً لهذه الآية الكريمة، ومن أجل ذلك أُطلق على حذيفة بن اليمان لقب «صاحب السر»، والسر إنما هو في هذا المقام بالخصوص. وهكذا أصبحت صلاة الجنازة قاصرة على المومنين يستغفر بها أحيائهم لأمواتهم، ومما جاء في فضلها قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «من شهد الجنازة حتى يصلي عليها فله قيراط، ومن شهدها حتى تُدفن فله قيراطان. قيل وما القيراطان؟ قال: أصغرهما مثل أحد» يشير إلى جبل أحد. وكان رسول الله ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال: «استغفروا لأخيكم، واسألوا له الثبیت، فإنه الآن يُسأل» أخرجه أبو داود في سننه، وانفرد به.

وبعدما فضح كتاب الله في هذه السورة الكريمة الأعذار المنتحلة التي كان يعتذر بها المنافقون عن الخروج مع رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك، كقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ إِذْنَ لِّي وَلَا تَفْنِي﴾، وكقوله تعالى حكاية عنهم أيضاً: ﴿وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ، قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ جاءت الآيات الكريمة بالقول الفصل في بيان العذر الصحيح والعذر الباطل.

ومضمون هذه الآيات أن الأعذار التي تقبل ويرفع الحرج بسببها عن قعد عن الجهاد، إما أن تكون أعذاراً لازمة للشخص،

كالعيوب القائمة بذاته التي لا ينفك عنها ولا تنفك عنه، وذلك مثل العمى والعرج ونحوهما، وإما أن تكون أعداراً عارضة للشخص، وهذا النوع الثاني من الأعدار يندرج تحته المرض الذي لا يتمكن معه صاحبه من الجهاد، والفقر الذي لا يتمكن معه صاحبه من إعداد الزاد والعتاد، وذلك ما ينص عليه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرْجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي إذا لم يقوموا في حال تخلفهم عن الجهاد بتبسيط ولا إرجاف، وكانوا عوناً للمجاهدين من ورائهم، ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي لا سبيل إلى عقوبة هؤلاء المعتذرين، بعدما تيقن الرسول ﷺ من صدق عذرهم، وعرف حقيقة أمرهم، قال القاضي أبو بكر (ابن العربي): «هذا عموم ممد في الشريعة، وهو أصل في رفع العقاب والعتاب عن كل محسن».

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ، تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ﴾ أي لا حرج على الفقراء الذين عرضوا أنفسهم على رسول الله للجهاد، ثم رجعوا وهم يبكون حزناً وأسفاً، لعجزهم عن تجهيز أنفسهم أولاً، ولضيق وسائل التجهيز عند رسول الله ثانياً، ولما فاتهم من الالتحاق بصفوف المجاهدين ونيل شرف الجهاد في سبيل الله وحسن ثوابه ثالثاً.

وفي مثل هؤلاء الذين منعتهم أعدار حقيقية لا منتحلة عن الخروج مع رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك ورد حديث أنس في

الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال وهو في غزوة تبوك: «إن بالمدينة أقواماً ما قطعتم وادياً، ولا سرتهم سيراً، إلا وهم معكم» قالوا: «وهم بالمدينة؟» قال: «نعم، حبسهم العذر»، ﴿تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾.

المحتويات

تفسير الحزب الحادي عشر في المصحف الكريم

- ٥ الربع الأول من الحزب الحادي عشر.
- ١٤ الربع الثاني من الحزب الحادي عشر.

(وفيه نهاية سورة النساء وبداية سورة المائدة)

- ٢٣ الربع الثالث من الحزب الحادي عشر.
- ٣٤ الربع الأخير من الحزب الحادي عشر.

تفسير الحزب الثاني عشر في المصحف الكريم

- ٤٣ الربع الأول من الحزب الثاني عشر.
- ٥٢ الربع الثاني من الحزب الثاني عشر.
- ٦٢ الربع الثالث من الحزب الثاني عشر.
- ٧١ الربع الأخير من الحزب الثاني عشر.

تفسير الحزب الثالث عشر في المصحف الكريم

- ٧٩ الربع الأول من الحزب الثالث عشر.
- ٨٨ الربع الثاني من الحزب الثالث عشر.
- ٩٧ الربع الثالث من الحزب الثالث عشر.

(وفيه بداية سورة الأنعام)

- ١٠٧ الربع الأخير من الحزب الثالث عشر.

تفسير الحزب الرابع عشر في المصحف الكريم

- الربع الأول من الحزب الرابع عشر ١١٦
الربع الثاني من الحزب الرابع عشر ١٢٤
الربع الثالث من الحزب الرابع عشر ١٣٤
الربع الأخير من الحزب الرابع عشر ١٤٣

تفسير الحزب الخامس عشر في المصحف الكريم

- الربع الأول من الحزب الخامس عشر ١٥٢
الربع الثاني من الحزب الخامس عشر ١٦١
الربع الثالث من الحزب الخامس عشر ١٧١
الربع الأخير من الحزب الخامس عشر ١٨١

(وفيه نهاية سورة الأنعام)

تفسير الحزب السادس عشر في المصحف الكريم

- الربع الأول من الحزب السادس عشر ١٩٢

(وفيه بداية سورة الأعراف)

- الربع الثاني من الحزب السادس عشر ٢٠٣
الربع الثالث من الحزب السادس عشر ٢١٥
الربع الأخير من الحزب السادس عشر ٢٢٦

تفسير الحزب السابع عشر في المصحف الكريم

- الربع الأول من الحزب السابع عشر ٢٣٨
الربع الثاني من الحزب السابع عشر ٢٥٠
الربع الثالث من الحزب السابع عشر ٢٦١
الربع الأخير من الحزب السابع عشر ٢٧٣

تفسير الحزب الثامن عشر في المصحف الكريم

- الربع الأول من الحزب الثامن عشر ٢٨٥
الربع الثاني من الحزب الثامن عشر ٢٩٥

(وفيه نهاية سورة الأعراف وبداية سورة الأنفال)

- الربع الثالث من الحزب الثامن عشر ٣٠٥
الربع الأخير من الحزب الثامن عشر ٣١٦

تفسير الحزب التاسع عشر في المصحف الكريم

- الربع الأول من الحزب التاسع عشر ٣٢٧
الربع الثاني من الحزب التاسع عشر ٣٣٩

(وفيه نهاية سورة الأنفال وبداية سورة التوبة)

- الربع الثالث من الحزب التاسع عشر ٣٥٢
الربع الأخير من الحزب التاسع عشر ٣٦٤

تفسير الحزب العشرين في المصحف الكريم

- الربع الأول من الحزب العشرين ٣٧٥
الربع الثاني من الحزب العشرين ٣٨٧
الربع الثالث من الحزب العشرين ٤٠٠
الربع الأخير من الحزب العشرين ٤١٠

دار الغرب الإسلامي
لصاحبها : الحبيب المسمي
شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء - بناية الاسود
تلفون : 340131 - 340132 - ص.ب. 113-5787 بيروت - لبنان

رقم الإيداع القانوني

١٩٨٣ - ٤٢٧

الرباط

الرقم 85/4/3000/49

التنفيذ : كومبيو تايب للصف الطباعي الالكتروني

الطباعة: مؤسسة جواد - بيروت
